

2274
.8567
.362

2274.8567.362

Sarrūf

Maw'id ma'a al-tārīkh

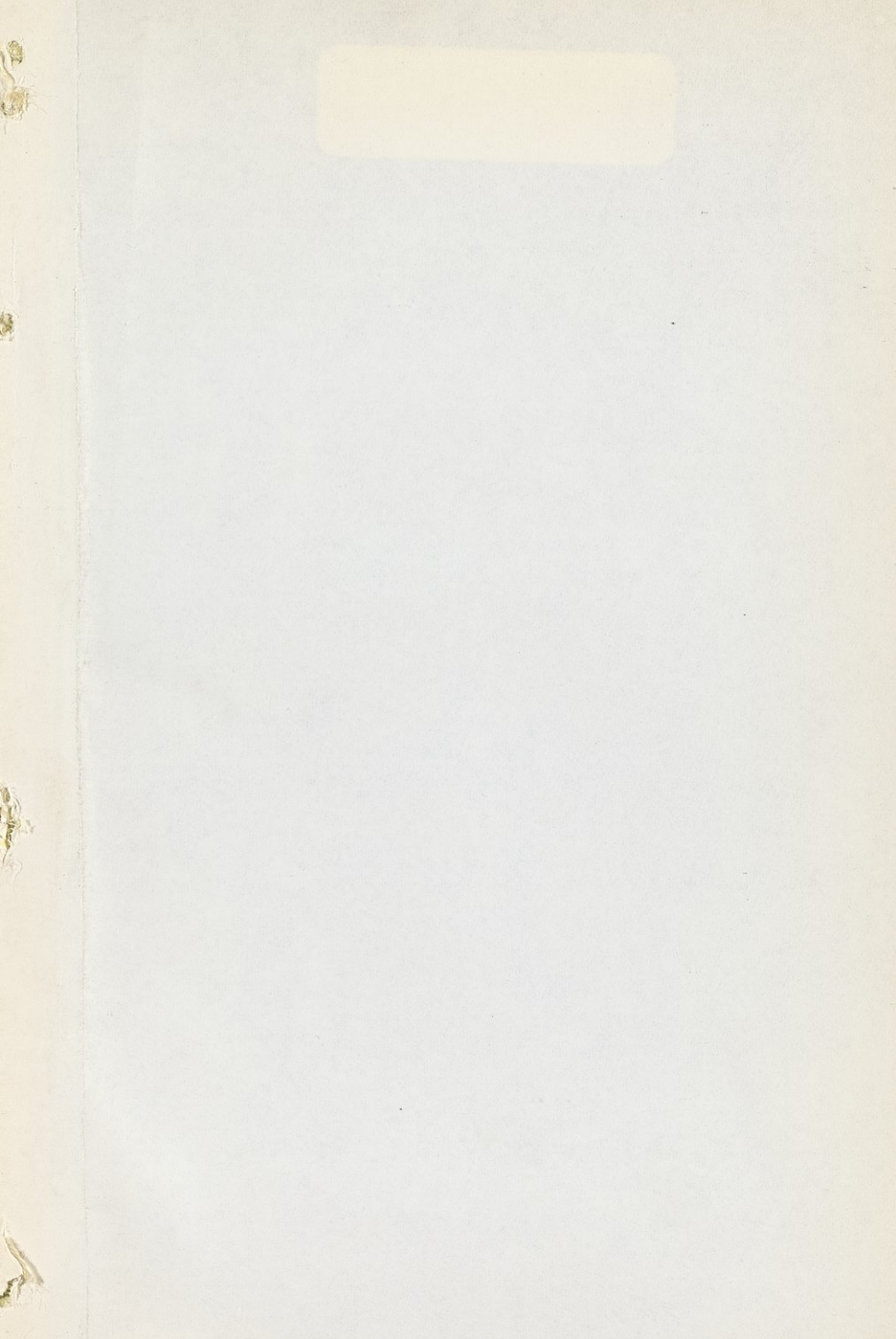
DATE	ISSUED TO
AUG 5 1965	Binders

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library



32101 074326354



سَوْعَدُ مَعَ التَّارِيخِ

تِجَارَتِ الْأُمَمِ فِي ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ

فَوَادِ صَرُوفَ

مَطْبَعَةُ مِصْرِ شَرِكَةِ تَسَاهِيلِ مِصْرِيَّةِ

١٩٥١

Ṣarrūf, Fu'ād

مَوْعِدُ السَّارِخِ

Maw'id ma'a al-tārikh

تَجَارِبُ الْأُمَمِ فِي ثَلَاثِ سِنَوَاتِ

أبو بكر بن أبي
A. B. Abushady

فؤاد صروف

مطبعة مصر شركة فؤاد صروف

١٩٥١

كتاب الوصية

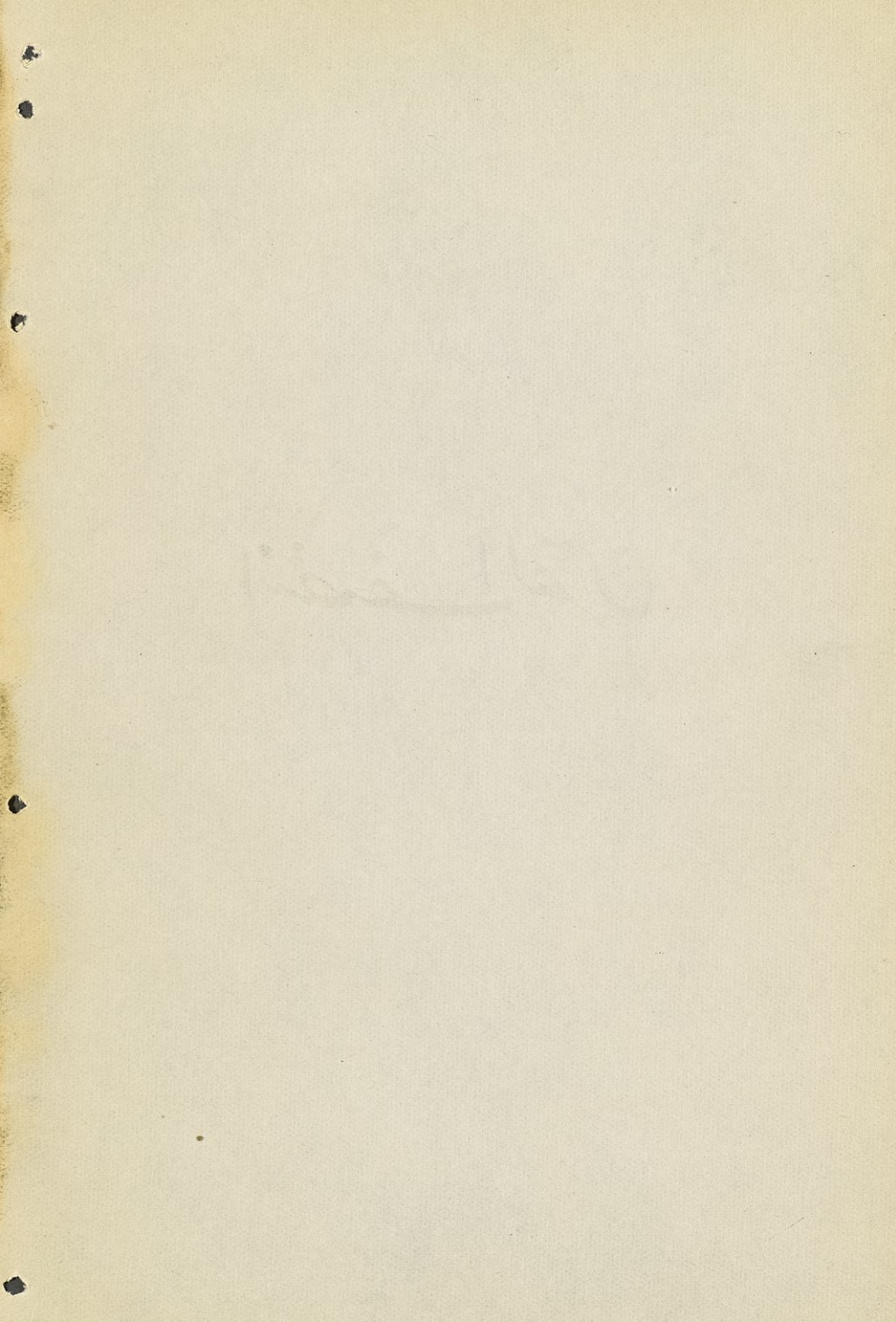
كتاب الوصية

كتاب الوصية

انصف القرن

65-14

2274
8567
362



انْصَفَ القرن

أهلّ القرن العشرون وليس في سمائه طائفة تهدر ، ولا ذرة تتفجر بمشيئة الانسان وسلطانه ، فلم يكد ينتصف حتى كادت الطائفة والقنبلة الذرية أن تدكا أركان عمرانه ، ولا يزال خطرهما يتعاظم .

كان القرن التاسع عشر حين دنا من ختامه ، يغرى بالأمل الغريز في مقام البشر على الأرض ، فكان الانسان اذا وقف على الحد الفاصل بين القرنين ورد بصره الى السنين التي انقضت منذ هزم نابوليون في واترلو ، يرى ما يحمله على الزهو بما صنع ، والثقة بالمستقبل . فقد شهد القرن عار النخاسة يمحي في شطر كبير من أرجاء العالم ، والقانون الدولي يعلو سلطانه شيئاً فشيئاً ، والعلوم الطبيعية والصناعة الحديثة يطرد تقدمها فتمهد للناس رجاء الغلبة على المرض والفاقة ، وقد انقضت ثلاثون سنة منذ نشبت آخر حرب تعد شيئاً مذكوراً ، وكان أحرار بريطانيا قد أخذوا يستخرجون العبرة من ثورة الأفكار على الاستعمار فمالت لندن بتأثيرهم الى تحويل الامبراطورية أو أجزاء منها الى جامعة دول أو أمم مستقلة تربط بينها أوامر أو هي من خيوط العنكبوت وأمتن من حبال الفولاذ ، واشتدّ الأمل بأن تسلك بقية الأجزاء

طريق الاستقلال والرخاء • أما الحكم النيابى فقد اتسع نطاقه فكثرت الأهم التى أخذت به وزاد عدد الرجال الذين يستمتعون بحقوق الانتخاب ، وبدأت المرأة تكسب مزاياها ، ونبتت فكرة العدالة الاجتماعية وترعرعت فى بريطانيا وألمانيا والبلاد السكنديناوية على تشريعات الإصلاح الاجتماعى فهنا الأحرار بعضهم بعضا بهذا الظفر وجعلوا يتأهبون ليمدوا آفاقه • وكان القرن التاسع عشر عصر ارتقاء فى نواحي الحياة جميعا ، حتى صارت فكرة الارتقاء نفسها ركن فلسفة القرن وسمة فكرة ، وقد جمعها هربرت سبنسر وبوبنها ونسقتها وقال فيها : « ليس الارتقاء مصادفة من مصادفات التاريخ بل هو شيء لا غنى عنه ... فالتيار العظيم متجه الى الكمال والخير الذى لا تشوبه شائبة » • ولكن لم تكد تمضى سنوات على استهلال القرن ، حتى أخذت الخيبة تلقى ظلالها القاتمة على الآمال المشرقة • وفى نصف قرن من الزمان أو أقل حلت الحرب محل السلام ، والقلق والفاقة محل الطمأنينة والرخاء ، والشك فى البقاء نفسه محل الارتقاء والسير فى معارج الكمال • وقد يندر أن تجد فى عصور التاريخ عصرا كعصرنا هذا دمّرت فيه الآمال الزاهية كهذا التدمير ، وانقلبت فيه النظرة الى الحياة كهذا الانقلاب الذى طرأ عليها — من الوثوق الى الريب ، ومن رعاية الأخلاق الى الاستهتار بها ، واذا المبادئ والمعايير التى لم تزل قائمة منذ دعا إليها الرسل وغناها الشعراء قد دخلها الريب ، بل النكران • أما فلسفة الارتقاء التى نستقها سبنسر وجعلها عنوانا للقرن التاسع عشر ، فقد أخذت تخلى مكانها للتحكم العلمى الميكانيكى ، أو القدرية العلمية كما

يقولون ، وأما المادة التى كانت راسية لا ينالها الشك ، فقد أصبحت فى علم الطبيعة الجديد نبضات كهربائية أو موجات من الاحتمال الرياضىّ تمور فى الخواء ، وصار العقل الذى كان مميز الانسان عن العجاوات ، مجموعة مختلطة من الأفعال المحوّلة والغرائز الجنسية ورغبات الاستعلاء والسلطان ♦

كشف المنظار والحساب الرياضىّ كونا متراميا يتيه فيه العقل والخيال ويتحدّى قياسه الملايين من سنى الضوء ، فصارت الأرض دقيقة من غبار فى فضاء لا يحدّ ، وكشف المجهر وغيره من وسائل البحث جسما حيّا كامنا فى الخلية ، وكونا مصغرا فى الدّرة ، وانتهى بعض علوم الحياة الى أن الحياة نفضة تحدثها تفاعلات كيميائية يبدو أنها تحدث مصادفة وعلى غير غرض مقصود ، ففشا روح الانكار أو قلة المبالاة على الأقل فى المجتمع ، وضعف سلطان الدين على النفوس ، ووهن الوازع الخلقى فى سلوك الناس ، وليس من المصادفات أن الدول التى أخذت بمادية التاريخ هى أميلها الى الاعتداء على حقوق الانسان وكرامته المتأصلة فى تعاليم الرسل وأغانى الشعراء ، فلما وهن سلطان الدين وهن كلّ سلطان آخر فى ميادين الفكر والفن ، واذا تجارب التجديد على قدم وساق فى بعض الأمم ، واذا البحث عن سلطان جديد يستأثر بالنفوس فى بعض آخر ، وان كان سلطان القوة العاشمة ♦

فى هذا الجوّ من الفكر والشعور ، تمت أحداث النصف الأول من القرن العشرين ♦

ففى جماعة كبيرة من الأمم بذلت المساعى للتوفيق بين سلطان الحكومة ومقتضيات الحال الجديدة فى الاقتصاد والاجتماع ♦ وقد

كان مبدأ الديمقراطية ومبدأ المساواة كالخميرة في المجتمع ،
فتم شئ من هذا التوفيق في بريطانيا والولايات المتحدة
وسكنديناوة وغيرها ، وفقا لمبادئ الدستور وأصول التطور
المعتدل ، فقد أدرك الناس أن الحكومة لا يسعها أن تقف موقف
المتفرّج على الحياة تسير زاخرة في ظلها بل ينبغي أن تكون لها يد
في ضبطها وتوجيهها والاشراف عليها ، وكذلك نشأت « دولة
الخير » هنا أو هناك ، حيث صار للحكومة عمل جوهري في تنظيم
المجتمع تنظيما اجتماعيا يقلل ما بين الطبقات من تفاوت ، ويضمن
لأفراد الأمة قدرا من الضمان والعون على العيش الكريم ، ولكن
هذا السعى لم يخلص من شوائب الشكّ في أن هيمنة الحكومة
إذا اتسعت دائرتها ، كانت أول الطريق الى الحكم المستبدّ .

أما في بعض البلاد الأخرى فقد كان التطور عنيقا ، فسلكت
روسيا سبيل الثورة الشيوعية ، وإيطاليا طريق الفاشية ، وتوسلت
ألمانيا بالحرب فلما أخفقت لجأت الى النازية ، وعانت أسبانيا
والمكسيك وغيرهما هزات ثورات شتى ، انتهت في المكسيك الى
حكم مستنير وفي أسبانيا الى ضرب من الحكم الجامع . وقد
اصطلحت في آسيا المبادئ الديمقراطية الحديثة التي أخذها طلائع
الشباب عن جون ستيوارت مل وأقرانه من فلاسفة الأحرار في
الغرب ، والأساليب الصناعية التي أتقنها العلم ، على اذكاء النفوس ،
فأثرت اليابان أن تأخذ بأسلوب الاقتصاد الغربي والصناعة
الغربية والعسكرية الغربية مع مسحة من الحكم الياباني ، فصارت
احدى الدول العالمية التي تحاذر قوتها ، وتردّت الصين في غمار
انقلاب حولها الى الجمهورية ، فأشرق أملها ولكن مزقها النزاع

بين طوائفها وأوهنها الفقر ، ومع ذلك ناضلت اليابان عشر سنوات أو أكثر ، ولكنها لم تستطع أن تصمد في وجه الشيوعية الجارفة .
وأما الهند فقد تنكرت لسلطان بريطانيا وفي الوقت نفسه أنشأت صناعة حديثة لم تزل تطرد سعة وقوة ، الى أن ظفرت بحريتها ورضيت أن تبقى — زمنا على الأقل — في دائرة الكومونولث المرنة ، وهي الآن تشرف من كوتها على شطرى العالم ، وفي يدها أن تصير احدى دوله الكبرى . وقد خرج العالم العربى من نطاق الدولة العلية تحدوه ذكرى التاريخ العربى ومنى النهضة العربية ويحمله الأدب العربى المنبعث على أجنحته ، وقد ظفرت دوله بقسط محمود من التقدم العلمى والاقتصادى والسياسى ، ولكنها لا تزال برغم قيام الجامعة العربية ، متعثرة بين فرقة سياسية لها أسبابها التاريخية ، وتردد عن الالتقاء بكل وسيلة تمهّد لها — من حيث هى رقعة متكاملة التاريخ واللغة والدين والمصلحة — سبيل القوة بالوحدة ، أو بالتضامن الوثيق على الأقل .

ويغلب على رأى أن أهم أحداث النصف الأول من القرن العشرين فى ميدان السياسة والاجتماع ، كان قيام الشيوعية الروسية وانتشارها ، ونهضة الولايات المتحدة وانصرافها عن العزلة وتحولّها الى أعلى مقام بين دول الأرض ، وانحطاط الامبراطورية البريطانية . ومجال البحث فى هذه الأحداث الثلاثة ذو سعة ، يضيق به الفصل وقد يضيق المجلد الكبير . ولكنها جميعا متأصلة فى العلم الجديد والصناعة الجديدة والتطور الاقتصادى الحديث . فامتناع القياصرة أو عجزهم عن أن يوفرّوا لملايين الروس قدرا يسيرا من الأمن الاقتصادى أفضى الى تأثر

المفكرين الروس بتعاليم ماركس ، وذيوع هذه التعاليم بين أبناء الأمة ، واستتباب الأمر لأصحابها بالثورة ، وتوسلهم بمشروعات الصناعة الحديثة لرفع مستوى الاقتصاد الروسى والقدرة الحربية الروسية ، وبمادية ماركس ووسائل العلم ليقتلوا فى الأجيال الجديدة روح الدين التى تنبع منها الحرية فى أسمى مظاهرها .

وأما الولايات المتحدة ، فقد استطاعت فى خمسين سنة أن تضاعف بوسائل الصناعة والعلم عدد سكانها وأن تستقبل فى أرضها ملايين من مهاجرى أوربا وغيرها ، وأن توفر الطعام والآلات لهم ولجانب كبير من أمم الأرض ، وأن تبنى حين اقتضتها ضرورات السياسة والدفاع آلة حربية ضخمة ، وعلى ما للمادة والآلة من منزلة فى حياة الأمة الأمريكية ، فانها أمة لها من تقاليد هجرتها الأولى ما يجعلها تعلق شأن القانون ، وتحاسب حكومتها فى نطاقه ، فاستطاعت أن تسلك طريق التطور السلمى فأنشأت أقوى اقتصاد قومى عرف ، بغير أن تضحى — حتى الآن — بحقوق أبنائها وحررياتهم الأصيلة . وأما انحطاط الامبراطورية البريطانية فلا يقتصر على انفصال برما عن الكومونولث ، وتحول الأجزاء الأخرى الى دول مستقلة لا يربطها سوى رباط التاج ، بل يشمل الوهن الذى حلّ ببريطانيا من أثر حربين عالميتين ، عجزت معه عن أن توفر بالصناعة التى كانت طليعتها المال اللازم للمحافظة على منزلتها العالمية . ومع ذلك ، فالكومونولث لا يزال فى مجموعه قوة دولية يحسب لها حساب ، والروابط بين أجزائه أمتن مما تدل عليه نصوص القوانين التى نظمتها ، وبريطانيا نفسها التى كانت مثال الدولة الرأسمالية لأنها كانت الدولة الصناعية الأولى ، ومثال

الدولة الاستعمارية لأنها بحكم الصناعة طلبت الموارد والأسواق ،
تراها اليوم في طليعة الأمم التي تسعى الى التوفيق بين السلطان
والحرية — في انجلترا نفسها عسى أن يصبح نظام الاجتهاد الحر
في المجتمع أدنى الى مسايرة ضرورات العصر من الدولتين
الرأسمالية القحة والشيوعية المتطرّفة ، ومثالا لغيرها • وترى أيضا
« كومونولثها » أجدى ما عرف من نمط للتعاون الدولي الذي
لا مفرّ منه ولا غنى عنه في عالم لا يتجزأ فيه السلام
ولا يتجزأ الرخاء •

وأشدّ بلوى منى بها الناس في النصف الأول من القرن التاسع
عشر كانت بلوى الحرب • وقلّ أن تجد في تاريخ الانسان على
الأرض حقبة من الزمن آكتوى فيها الناس بنار الحرب ورزاياها
من تقتيل وتدمير وانقسام في روابط الاجتماع والاقتصاد وانحطاط
في منزلة القانون ، كحقبة الخمسين السنة المنصرمة ، ولو عدت
ببصرك الى مستهل القرن وذكرت مؤتمر السلام الذي عقد في
لاهاي ، لوجدت الحربين العالميتين الماضيتين أفجع ما ينتهى اليه
أمل كالأمل الذي راود ذلك المؤتمر •

والحرب العالمية الأولى تعدّ صغيرة في جنب الثانية ، ولكنها
كانت كالزلزال المدمر لا يلبث أن تلى موجته الأولى موجة أشد فتكا
وتدميرا • فقد كانت تلك الحرب هي الحرب الأولى على نطاق
عالمى ، والحرب الأولى في العصور الحديثة التي ترعزعت فيها
هيبة القانون الدولي ، والأولى التي لم تفرق بين المحاربين والمدنيين ،
والأولى التي كشفت عن قدرة الأسلحة الحديثة على التدمير —
الطائرات والغواصات والدبابات والغازات الحربية • وقد كانت

عواقبها الاجتماعية خطيرة — ففى أحضان الحرب نفسها وعلى
أنتقاض النظم الاقتصادية والسياسية المتداعية التى أعقبتها ،
نبئت الثورة الروسية والثورة الايطالية والثورة النازية ، وسمت
اليابان الى مكاتبتها العالمية ، وارتدت الولايات المتحدة بعد
مغامرتها الأولى الى قوقعة عزلتها ، ولكن بعد أن تبينت عناصر
قدرتها وأدركت أن مصيرها مرتبط بمصير العالم ، فلما تمّ صنع
القنبلة الذرية فى المغامرة الثانية صارت العزلة الأمريكية
وهما خاتلا ♦

ونحن لا نزال اليوم على مقربة من الحرب العالمية الثانية ،
فلا يسعنا أن نستوضح عواقبها ، ولكن اذا نظرنا الى أسبابها
القرية والبعيدة وقفنا عند شيء يحمل على الروية ، فقد كانت
أسبابها القرية قيام الحكم الجامع واستفحال رغبة التوسع بالقوة ،
وهذه موضوعات سيتوفر عليها المؤرخون ، وأما أسبابها البعيدة
فترتدّ الى المنشآت والآراء وطرق التفكير التى لازمت القرن
الجديد منذ أهل ♦

فقد نشبت الحرب من تناحر القوميات التى ورثها القرن
العشرون عن القرن التاسع عشر ، دون أن يروّضها ، مع أن العلم
والصناعة فى طورهما الجديد جعلاً أمم الأرض موصولة الأواصر
متكاملة المنفعة ، ومن استفحال النزعة العسكرية التى أمدتها
الصناعة بالأدوات المهلكة ، ومن عجز الانسان عن السيطرة على
علمه وصناعته ♦ فالقدرة على الانتاج أفضت الى زيادة السكان ،
فالى زيادة المنتجات المصنوعة ، فالى زحام على الأسواق ♦ والحق
أن الخطأ كان خطأ السياسة لا خطأ الصناعة والعلم ، فشعوب

الأرض غير الصناعية كانت كفيّلة بفتح أبواب الرخاء على مصاريحها لجميع الناس ، لو أحسن التوزيع ، ولو أخذ بأيديها أخذاً رقيقاً غير استعماريّ ، حتى تمضي قدما تنمي مواردها وترفع مستوى معيشتها ، فتصير أعضاء نافعة في المجتمع العالمي تأخذ منه وتعطيه سواء بسواء .

وعلى الرغم من جميع هذه العواقب المفجعة ، فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين ارتقاءً مطّرداً ساعد على انقاز الملايين من الهلاك بالأوبئة ، ومدّ في أمد الحياة على الأرض ، وخفّف الآلام بالعقاقير الجديدة العجيبة ، ويسّر انتشار أسباب التربية والمعرفة ، ورفع مستوى العيش وخفض مساوىء الصناعة ، وحسن أحوال العمال ، وزاد وسائل التسلية والتربية . ولو حصرت النظر في الفترات التي بين الحروب لقلت أن حياة المرء بوجه عام كانت أيسر وأفضل . ولكن ثمار التقدم العلميّ والصناعي على ما كان لها من نفع محقّق ، تراها تشيل في الميزان متى وازنتها بالريب التي داخلت النفوس ، وانهار الإيمان بالدين والأخلاق والقانون ، واستفحال القدرة على صنع أدوات الشرّ ، ومن هنا القول بأن قدرة الانسان سبقت حكمته في الانتفاع بها .

وقد انتصف القرن الآن ، ولا يزال أبناؤه يعانون المشكلات نفسها وان اختلفت وجوها — كيف يضمّنون قسطاً من السلام يتيح للعقول أن تزدهر وللهم أن تعمل ؟ كيف يسيطرون على القوى المخوفة التي فتقها العلم من الذرّة وجعلتها الصناعة في منال أيديهم ؟ كيف يحسنون الانتفاع بموارد الأرض أجدى انتفاع دون أن يدمروا ، البيئة الطبيعية التي تزكو فيها الموارد ،

بل كيف يزيدون هذه الموارد لتكفل الأود للناس الذين يزداد عددهم عشرات الملايين كل عام؟ وكيف يسировون نحو انشاء الدولة التى تكفل الخير العام دون أن تفتت على حقوق الأفراد الأصيلة ، أى كيف يوفقون بين السلطان والحرية فى الدولة ؟ وكيف يردون الى النفوس ثقة بالخير واستمساكا بالفضيلة والحق ؟ كل مشكلة منها عسيرة أو هى عصية على الحل ، وهى فى مجموعها أعسر وأعصى . ولكن تاريخ الانسان على الأرض ، وعبر التجارب التى بلاها فى النصف الأول من القرن العشرين ، والوسائل التى أتاحتها له العلم ، والوفر الذى تستطيع الصناعة أن تخلقه — كل ذلك خليق أن يمهد للانسان ان عقل أن يمضى الى حلها ، فان لم يفعل فالعاقبة وبال ، فهو فى النصف المقبل من القرن ، على موعد مع تاريخه — وهذا هو الأمل الذى يتحدى العزائم .

★ ★ ★

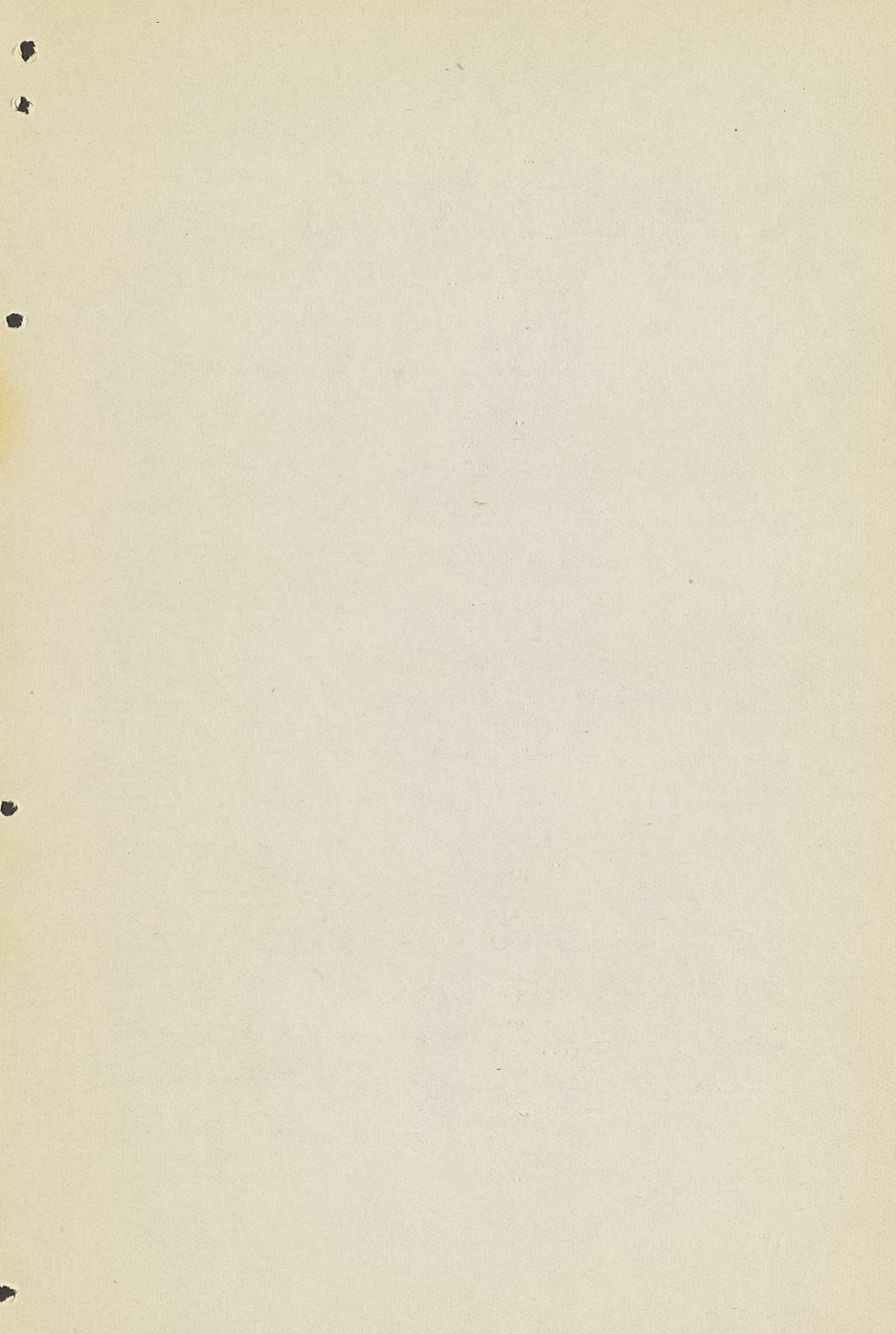
منذ ثلاث سنوات عدت أدون وأنشر ما أراه فى أنباء الأمم وحوادث الدنيا ، فنشرت أكثر ما كتبت فى صحيفتى « المصرى » و « الأهرام » فى مصر ، ومجلة « الكتاب » فى مصر ، ومجلة « الأديب » فى بيروت ، وأذعت طائفة من الأحاديث من محطات الشرق الأدنى للاذاعة العربية ، والاذاعة البريطانية ، والأمم المتحدة فى ليك سكسيس . وقد ضيعت كثيرا مما كتب ونشر ، فاخترت مما تبقى فصول هذا الكتاب ، وأقدمت على طبعه ونشره لأستعيد فى اعداده للطبع ومراجعة تجاربه ذكرى أيام عشناها بين الرجاء والخوف ، عسى أن يشاركنى فيها بالمطالعة اخوان كرام قرأوها

يوم نشرت وتفضلوا بكلمة تذكى الهمة والعزم على مواصلتها ♦♦
ولم أغير فى هذه الفصول شيئا سوى حذف فقرة من مقال ،
واضافة فقرة من مقال حذفته الى مقال آخر ضمته الى المجموعة ،
فهى هنا بما فيها من الأحكام والخطرات التى أصابت أو أخطأت ،
وما أكثر الخطأ ، والأحلام والمنى التى تحققت أو خابت — وقد
كانت الخيبة أغلب ، فهى صورة لفترة من حياة الناس كما وقعت
فى نفسى يوما بعد يوم ♦

وقد جعلت عنوانه الأول ، عنوان أحد فصوله « موعده مع
التاريخ » وقد كان فى أول الأمر عنوانا لمقال عن قومنا ، ولكننى
تلقت من حولى فلم أجد أن العرب وحدهم هم على موعده مع
تاريخهم بل الانسانية جمعاء على موعده مع تاريخها ♦ وأما العنوان
الثانى « تجارب الأمم » فهو عنوان كتاب للفيلسوف
ابن مسكويه ، وقد درجت على اتخاذه منذ أيام الحرب العالمية
الثانية عنوانا ثابتا لأكثر هذه الفصول أينما نشرت ♦ وقد ذكرت
فى مسرد كل باب تاريخ نشر الفصل أو اذاعته ، ولكن الفصول مع
الأسف ليست مرتبة وفقا لتواريخها من أول الكتاب الى آخره ♦
ومنها ما نشر دون توقيع ، ولكننى استأذنت فى ضمها الى ما نشر
بتوقيعى ♦ واننى لأستغفر القراء ما فى هذه الصفحات من تكرار
لبعض المعانى ، فلم يكن فى وسعى اتقاء لتشابه الأحداث المتواترة ♦
ويسرنى فى ختام هذه التوطئة ، أن أجزل الشكر لأصحاب
الصحف والمجلات ومديرى محطات الاذاعة الذين تفضلوا ،
فأتاحوا لهذه الكلمات أن تنشر أو أن تذاع ♦

فؤاد صروف

٧ ديسمبر ١٩٥٠



الجهاد الأكبر

- ١ - قرار الحق ٦ ديسمبر ١٩٤٧
- ٢ - بين جهادين ١٨ مايو ١٩٤٨
- ٣ - تفسير لا يقبل عذرا ٣١ مايو ١٩٤٨
- ٤ - هكذا يقول العربى ٦ يونيو ١٩٤٨
- ٥ - رسالة مفتوحة الى برنادوت ٢٢ يونيو ١٩٤٨
- ٦ - موجتان مارس ١٩٤٩
- ٧ - الطريق واضح
- (أ) مستقبل الثروة القومية ١١ مايو ١٩٤٩
- (ب) اقتصاد عربى متكامل ٣ يونيو ١٩٤٩
- (ج) الاستقرار لا الجمود ١٨ أغسطس ١٩٤٩
- (د) حكم القوة ومنطق النفع ٢٢ يوليو ١٩٤٩
- (هـ) قطيعة ضد الطبيعة ٣ أبريل ١٩٥٠
- ٨ - منابع الالهام ديسمبر ١٩٤٧
- ٩ - فرصة الجامعة ١٧ أكتوبر ١٩٤٩
- ١٠ - نعيش فى واجهة ٢٨ أكتوبر ١٩٥٠
- ١١ - موعد مع التاريخ ٢٦ يوليو ١٩٤٨

قرار الحق

لن يستقرّ لأمر قرار حتى يكون قراره على الحق
كلمة حق لن تجد اليوم كلمة أصدق منها انطباقا على ما تم
في أمر فلسطين ، ولو تصيدت الدول الكبيرة التي تريد القسمة ،
أصواتا أخرى تجعل عدد الأمم التي وافقتها على التقسيم ، خمسين
دولة لا ثلاثا وثلاثين لما انقلب الباطل حقا ، ولما قال عاقل ينظر
الى شئون الأمم من ناحية أخلاقها وتطورها التاريخي الطويل
ان قسمة فلسطين قد قر قرارها بهذا الاقتراع المدخول الزائف ،
وكل من يظن أن هذا القرار هو خاتمة القول في فلسطين يجهل
انه بدء نضال طويل مرير .

ونحن نرى أن الحق الذي نطالب به في فلسطين هو حق
التاريخ ، وحق المنطق ، وحق العدالة ، بل وحق المصلحة أيضا :
مصلحة العالم ومصلحة اليهود أنفسهم لا مصلحة العرب وحسب
وليس يغلبنا على هذا الرأي ، أقوال فيها مباحكة ، وأرقام فيها
تهويل ، وتحريك النخوة والشهامة لايواء المشردين . فهذا
البلد الذي يريدون تقسيمه ، لم يزل وطنا للعرب منذ ألقى
سنة متصلة . يقف فيه العربي أينما وقف ويرفع في راحته حفنة
من ترابه فاذا التراب دقائق من عظام آبائه وأجداده ، ويجيل

العين في آكامه ووهاده التي يخرج منها قمحه وزيتونه وبرتقاله
فاذا الأرض ندية بالعرق المتحدر من جباههم جيلا بعد جيل •
ولو أراد الناس أن يغيروا معالم خريطة العالم استنادا الى اقامة
شعب اقامة عابرة في أرض ما منذ زمن بعيد لضربت القوضى
اطنابها في جميع أرجاء الأرض ، ولو توسلوا بما يزعمونه لبعضهم
من قدرة على اصلاح الأرض واقامة العمران ، لصار الفتح بالقوة
آية الدنيا ، ولحق لموسوليني ما أنكرته عليه أمم الأرض في
الحبشة •

بين يوم وعد بلفور في سنة ١٩١٧ ، ويوم قرار الجمعية
العمومية في سنة ١٩٤٧ ثلاثون سنة وبضعة أسابيع قضاهما العرب
في النضال لرد الباطل ورفع الحيف وقد كان نضالهم بالقوة حيناً
وبالمنطق حيناً وبالرجاء المعلق على العهود والكتب البيض والملونة
حيناً ولكن من عجائب المنطق المعكوس في معجم سياسة القوة
أن يتخذ وعد بلفور أساساً يرجع اليه ولا يحاد عنه ، وأن يزعم
رجل مثل سمرويلز وكيل الخارجية الأمريكية الأسبق — في
كتابه « الى أين نحن سائرون » ، ان هذا الوعد « وثيقة مقدسة » •
فهذا قول ينافي العقل والمنطق جميعاً ، مع أن صاحبه كان ينبغي
أن يكون أسلم علماً وادراكاً ، فمن ذا الذي وهب بلفور حقاً في
أن يتصرف في مصير فلسطين كأنها ضيعة من ضياعه • ومن ذا
الذي منح هيئة الأمم المتحدة في جمعيتها العمومية حقاً في تقسيمها
وهي التي أنشئت لكي تؤلف بين الأمم ، لا لكي تمزق أوصال
أمة قائمة ، ومن ذا الذي ألهمه العقل فرأى أن دولة مؤلفة من
مثلثات هندسية تصل بينها خطوط أو نقاط هندسية تستطيع أن

نعيش الا اذا توسعت فيما بعد على حساب جاراتها ، وقد طال اجتماع الجمعية العمومية عشرة أسابيع ، وافقت فيها على قرارات خاصة بلجنة البلقان ، ولجنة كوريا ، والجمعية الصغيرة فتنكرت لها روسيا جميعا ودعت اليها أمريكا جميعا ، ثم اذا بالدولتين تتفقان على قسمة فلسطين ، فصدق عليهما قول فارس الخورى :
« لقد اتفقتا على الشر » ♦

وهذا الشر شر عام ، فمن الزاوية بكرامة العقل البشرى فى هذا العصر أن تصاد أصوات الأمم بالمال أو بالضغط أو بالاغراء ، ومن بلاء هذه الدنيا أن تنشأ فيها هيئة أممية على رجاء التعاون والأمن والرخاء ، فلا تتفق دولتها الكبريان على شىء سوى ، جور تمليه سياسة القوة . ومن نكد الدهر أن يحمل العرب وزر الافلاس الروحى الذى بليت به أمم الغرب فجعل اضطهاد اليهود فى أراضيها آية من آيات حضارتها . وقد أندر مشلو العرب رجال الهيئة بأن هذا القرار كفى بأن يشعل فى فلسطين نار حرب أهلية ، وأن ما يلزمها ويعقبها من الاضطراب فى الشرق العربى نذير بما هو أجل منه وأفدح على سلم العالم . وبين أهل الرأى أن أمريكا تحقق باصرارها على اقرار القسمة ، ما تحاول جاهدة أن تمنعه بما يقرره الرئيس ترومان فى صدد اليونان وتركيا وما يقترحه الوزير مارشال لمعونة أوربة .

ومن أغرب الغرائب فى قصر النظر السياسى ، أن أمريكا أغفلت ، وهى مفتوحة العينين ، فرصة قلما تسنح فى الدهر الطويل فرصة مثلها لأمة كبيرة . فقد أتاح لها مشكلة فلسطين أن توفق فى سياستها بين كرامة المبادئ التى أوجدتها ونادت بها

وقالت انها سر كيائها ، وبين مصلحتها العالمية الخاصة ، ولكنها داست الأولى ، ولم تكفل الثانية ، بل زادت عرضة للبوار .
 والتعبير عن غضبة العرب لما تم بالتظاهر ، حق بل فرض .
 ولكن هذا اللون من ألوان المطالبة بالحق ينبغي أن يقف عند حده النافع المعقول ، لأنه قليل الجدوى في نضال لا بد أن يكون طويلا مريرا . والرجاء معقود على أن يكون أقطاب أمم العريية قد أحكموا تدبير الخطة لهذا الضرب من النضال من جميع نواحيه ، فقد علمتنا الحرب العالمية الثانية أن عضل الجند وبأسهم وشجاعتهم لا تغنى عن عصب القتال الذى نظم أدق تنظيم وأحكمه .
 وبعد فان خطب فلسطين مكروه نحمد عليه الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، لأنه جعل بين أيدينا فلذة دامية من الوطن العربى نستطيع أن نلتف من حولها ، ثم لأنه يغنينا عن اضاءة الجهد فى اقامة الحججة بالكلام ، ويهيب بنا الى العمل .
 فلن يستقر لأمر فلسطين قرار حتى يكون قراره على الحق .
 ولن يضيع حق ما دام وراءه مطالب .

بين جهادين

فلسطين بلد صغير ، لا يزيد عدد أهليه على واحد فى الألف من أهل كرة الأرض . وفى العالم مشكلات كثيرة تستأثر باهتمام الدول ، منها هذا القتال الدائر فى أرض الصين ، والنزاع القائم فى بلاد الهند بين دولتيها . ولو وزنت مشكلة فلسطين فى الميزان الدولى ، بعدد أهلها وحسب ، لكانت مشكلة الصين خليقة أن تفوقها شأنًا مثنى ضعف وخمسين ضعفا ، ولبزتها مشكلة الهند

متى ضعف أو نحوها • بيد أن مشكلة فلسطين لم تزل في المقام الأول بين مشكلات الدول ، منذ سنة أو تزيد ، وقد خصصت لها هيئة الأمم المتحدة ، ثلاث دورات كاملة تقريبا من دورات جمعيتها العمومية ، واستأثر بحثها في مجلس الأمن بمجهود أعضائه منذ أواخر فبراير الى أواسط ابريل ، ولا يزال موضوعها في مجلس الأمن والجمعية العمومية ومجلس الوصاية ولجانها قائما لم يعتوره فتور • أضف الى ذلك كله الاهتمام بفلسطين في عواصم طائفة كبيرة من الدول ، من واشنطن الى لندن وموسكو فحواضر الشرق العربي ، ثم لا تنس ألوفا من المقالات كتبت في الصحف العالمية ، ونقل مضمونها بالبرق الى أربعة أركان المعمورة • وليس ثمة من يزعم أن هذا الاهتمام ليس في محله • فلم ذلك كله ؟

في وسعك أن تقول ، ولا تخشى الخطأ : لأن أرض فلسطين أرض مقدسة في نظر أهل الأديان الثلاثة — اليهود والمسيحيين والمسلمين • ثم في وسعك أن تقول أيضا : لأن العرب الذين هبوا الى استرداد تراثهم المجيد وبناء مستقبلهم الباهر ، يأبون أن يروا اسفينا صهيونيا يدق بين ميمنتهم وميسرتهم في الشرق العربي ، فيشطره ويعوق سيره وتعاون شعوبه على ما فيه خيرهم وخير الانسانية جميعا • وأخيرا في وسعك أن تقول : لأن فلسطين واقعة في رقعة من سطح الأرض ، هي أخطر رقعتها شأنا حربيا ، وأن النزاع العالمي بين الكتلتين الشرقية والغربية من الدول ، يتجلى في الشرق الأوسط على نحو لا يجاريه تجلّ في أية رقعة أخرى • فعجز الأمم المتحدة عن الوصول الى حل لمشكلة فلسطين يكفل

الحق والعدل ، هو الحقيقة المفجعة التى أسفر عنها اللجاج الدولى ، منذ أعلنت بريطانيا هيئة الأمم فى السنة الماضية ، أنها تنوى أن تنفض يدها من الانتداب وتلقى به فى أحضان الهيئة العالمية •

وهذا العجز صدمة أليمة للقلة القليلة التى لم تزل تؤمن بأن الأمم المتحدة قادرة على أن تنهض بعبء المهمة التى أنشئت من أجلها • وقد قامت الأمم المتحدة على فرض التعاون الوثيق بين الدول الخمس الكبيرة ، ثم على فرض سيرها يدا واحدة فى طليعة سائر الأمم ، عاقدة عزمها على توفير أسباب الأمن والسلام والرخاء للناس جميعا • وقد منحت هذه الدول الخمس حق النقض (الفيتو) على مريض ، ولكنه كان اعترافا بحقيقة لا سبيل الى نكرانها ، مهما برمت بها وثرثَ عليها ، وهى أنه من العبث أن تحاول الأمم المتحدة أن تفرض بالقوة على أية واحدة من هذه الدول الخمس أو جماعة منها ، حلا لا ترضاه ، لأن ذلك يعنى نشوب حرب عالمية •

وكان رأى كذلك ، أنه اذا لم تصدق الدول الكبيرة فى تعاونها فمن العبث أن تتوقع نجاح الأمم المتحدة فى مهمتها ، بل قدر فريق كبير من رجال السياسة العقلاء ، ان كل انقسام خطير بين الدول الخمس يفضى حتما الى خيبة الأمم المتحدة فيما تسعى اليه •

وقد كان من عاقبة النزاع القائم بين الدول الكبيرة ، أن تحقق أسوأ ما ذهب اليه المتخوفون على مستقبل الهيئة • وأغلب الظن أن تبعة الانقسام بين الدول الكبيرة ، هى تبعة موزعة ، ولكن معظمها حتى الآن ، واقع على عاتق روسيا ،

لحرصها على التوسع حرصا حمل الدول الغربية على اتخاذ
الخطط التى تكفل لها الدفاع عن نفسها ، ولأن روسيا أحبطت
جانبا كبيرا من عمل الهيئة بأسرافها فى الالتجاء الى حق النقض •
بيد أنه لا بد من التسليم بأن الولايات المتحدة تحمل نصيبها
من التبعة فى ضعف هيئة الأمم المتحدة ، بما سارت عليه
من خطة غير مستقيمة فى قضية فلسطين • فقد وافقت أولا على
القسمة وحثت غيرها على الأخذ بها ، فزينت لليهود آمالا عراضا
فى قيام دولتهم الصهيونية وظفرت من أصدق أصدقائها فى الشرق
العربى ومن جماعة من خيرة أبنائها بأشد الاستنكار • ثم ثابت الى
الصواب فأدركت ما للشرق الأوسط وزيته وموقعه الجغرافى
ومودة شعوبه من قيمة حربية ، فعدلت عن القسمة ، فأحفظت
الصهيونيين ومدت للعرب حبل الأمل فى العودة الى الحق • ثم
لم تكد تنقضى إحدى عشرة دقيقة على اعلان قيام دولة اسرائيل
حتى اعترف بها الرئيس ترومان ، فى نفس الوقت الذى كانت
مسائل فلسطين مطروحة للبحث فى مجلس الأمن • ولو نظرت
الحكومة الأمريكية فى قضية فلسطين من ناحية الحق والعدل
والمصلحة العالمية والمبادئ التى ولدت الديمقراطية الأمريكية
الكبيرة ، نظرة مجردة عن التأثير ببواعث السياسة المحلية واهواء
الانتخاب ، لاستطاعت أن تلقى بكل قوتها الأدبية العظيمة فى
كفة تكفل للعرب العدل ، ولليهود الأمن وأسباب النمو ، ولهيئة
الأمم مكانة تؤهلها لعلاج المشكلات العالمية التالية بثقة وطمأنينة •
ولو فعلت لجنّت ثمار ما فعلت قوة أدبية عالمية ، ومودة وصدقة ،
ولعززت الهيئة التى أرادها فرنكلن روزفلت أن تنجح حيث

أخفقت عصبية الأمم من قبلها •

وبعد فإن المحنة والامتحان مشتقان من أصل واحد • وقد جاءت محنة فلسطين امتحانا لهيئة الأمم المتحدة ، فأخفقت ، وللطائفة اليهودية العالمية ، فأبى متطرفوها أن يصغوا الى عقلائها يقولون لهم ، ان الاصرار على انشاء دولة صهيونية في فلسطين خطأ لأنه لن يستقر لها قرار ، وستبقى دائما في حاجة الى الدفاع عن كيانها بالسلاح ، والى التغلب على القطيعة الاقتصادية والعداء النفسى • وانه خير لهم وأبقى أن يكون أساس مقامهم في فلسطين قائما على التعاون مع العرب وكسب صداقتهم ومودتهم ، وتجنب سائر اليهود المقيمين في شتى أرجاء الدنيا عواقب هذا العداء المقيم • ثم أن محنة فلسطين امتحان للعرب فهذه أيام تبلو الأمة العربية بشدائدها وتصره معدنها بنارها ، فاذا هى سمت الى التحدى الموجه اليها خرجت من المحنة أصلب عودا وأصفى معدنا وأطهر • وليس هذا التحدى هو تحدى الصهيونيين وحسب ، على الرغم من سنين كثيرة أحسنوا قضاءها فى التأهب لهذا النزال ، بل هو تحد أعظم وأخطر وألصق بالنفس • وقد صبرت الأمة العربية وصابرت مؤمنة بأن الحق يعلو الى أن أصبح لا مفر لها من أن تقدم فأقدمت ، جزى الله الشدائد كل خير ، فعسى أن تكون شدائد هذه المحنة هى النار التى ما زالت اليقظة العربية فى حاجة الى اقتحامها ، حتى تخرج الأمة العربية منها ، كالحسام المثقف صلابة ولينا • فالقتال الدائر فى فلسطين ، هو الجهاد الأصغر ، وعسى أن تعود الأمة العربية من الميدان وهى على الجهاد الأكبر أقدر وأقوى •

تفسير لا يقبل عذرا

أفهم التفسير ، ولكننى لا أقبله عذرا لتسويغ ما تم •
أما التفسير فهو أن هذه السنة (١٩٤٨) هى سنة انتخابات
الرياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية • وهى أيضا سنة انتخاب
جميع أعضاء مجلس النواب ، وثلاث أعضاء مجلس الشيوخ ،
وطائفة كبيرة من حكام الولايات • فكل خطة يتبعها الحزبان
الكبيران فى التأهب لهذه الانتخابات جميعا لا تقرر مصير المرشحين
للرياسة والوكالة وحسب ، ولكنها تقرر فى أغلب الرأى ، مصير
السيطرة على مجلس النواب فى غضون السنتين التاليتين • وقد
تقرر مصير السيطرة على مجلس الشيوخ ، والى أى الحزبين ينتمى
معظم حكام الولايات الذين ينتخبون فى نوفمبر القادم • ومن
أندر النادر فى حياة أمريكا السياسية أن يخذل مرشح للرياسة دون
أن يخذل معه معظم المرشحين من حزبه فى الانتخابات النيابية ، وفى
انتخابات الولايات أيضا • فالشئ المعلق فى ميزان الانتخاب
المقبل ، ليس انتخاب الرئيس والوكيل وحسب ، بل هو مصير
الحزب من الناحية السياسية أيضا ، ولذلك ترى أعضاء الحزب
الذين يقررون ما خير خطة يسير عليها حزبهم فى الانتخابات المقبلة،
أعلى رأيا وانفذ كلمة ممن عداهم من أهل الرأى • فذلك قيل

ان القرار الذى اتخذه الرئيس ترومان فى موضوع ما يسمى دولة اسرائيل ، كان مخالفا لرأى مستشاريه المختصين فى وزارتى الخارجية والدفاع ، وموافقا لرأى مستشاريه المقربين اليه من مجلس ادارة الحزب الذين لا ينظرون فى الأغلب الأعم الا الى مستقبل الحزب فى السنوات الأربع المقبلة وضرورات الانتخاب التى تقرر ذلك المستقبل فى أوائل نوفمبر القادم .

وهذا مفهوم ، فكل حزب سياسى فى بلد ديمقراطى ، يريد أن يديم سلطانه ، فيبنى دعوته الى الناخبين لتأييده ، على ما تم فى عهد حكمه وعلى ما يعد بانجازه اذا جدد الناخبون ثقتهم به . أما اذا كان حزبا معارضا فانه يبنى دعوته على نقد الحزب القابض على زمام الحكم ، وعلى ما يعد بانجازه هو ، اذا أولاه الناخبون ثقتهم .

ولو كانت الولايات المتحدة اليوم ، كما كانت الى عهد غير بعيد ، معتزلة الدنيا ، قانعة بالاقامة فى قارتها بين محيطين عظيمين يؤمنان سلامتها ، مكتفية بأن يقيم معظم اقتصادها على سوقها الداخلية ، ولا تهتم بالأسواق العالمية الا اهتماما يسيرا ، لحق للامريكيين أن يقحموا شئون الانتخاب فيما يعالجونه من أمور السياسة ، ولظلت مصائر الناس بعد ذلك غير معلقة بما يهواه هذا المرشح أو ذاك ، من الظفر بتأييد اليهود فى نيويورك ، أو جماعات العمال المنظمة ، أو طوائف الزنوج الذين نرحوا من الجنوب الى الشمال .

أما وقد صارت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحربين العالميتين ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية ، فى طليعة دول

الأرض قوة ونفوذا ، وأضحى مصير دول كثيرة وطوائف شتى من الناس ، معلقا على ما تتخذه الولايات المتحدة من خطط سياسية وحرية واقتصادية ، فلا يعقل أن يكون تقدير هذه الخطط رهنا بالاهواء التى لابد أن يثيرها النزاع على السلطان بين الحزبين الكبيرين ، فى سنة انتخاب كهذه السنة .

فالتفسير مفهوم ، لأن النزاع على السلطان فى بلد ديمقراطى مستقر فى طبيعة الكيان السياسى نفسه ، ولكن من العسير على كثيرين من الأمريكيين وغيرهم من الأمم أن يقبلوا ذلك مسوغا لسياسة خارجية عالمية تقوم على الهوى .
وكل سياسة تقوم على الهوى ، لا يمكن الا أن تكون سياسة متقلبة .

وقد كانت سياسة البيت الأبيض فى مسائل كثيرة موسومة بهذه السمة .

وهذا رأى اتفق عليه رجال السلك السياسى الأجنبى فى واشنطن . فهؤلاء رجال ينبغى لهم أن يطلعوا حكومات الدول التى يمثلونها ، على سياسة الحكومة الأمريكية حيال مشكلات هذا العالم المضطرب ، وهو أيضا رأى المخضرمين من رجال السياسة الأمريكية الذين ينبغى لهم أن يرقبوا بعين ساهرة كل حركة على رقعة الشطرنج الدولية .

فالذى يحير هؤلاء الناس جميعا هو هذا التحول المفاجئ فى الخطط التى تتخذها الحكومة الأمريكية ، فى غير مسألة واحدة من المسائل العالمية الخطيرة .

والحكومة الأمريكية لم تزل تنكر منذ عهد ولسون «أساليب

السياسة السرية » • ولكنها تمارسها • وربما كانت ممارستها في أثناء الحرب شيئاً لا مفر منه ، لما بين السياسة والخطط الحربية من صلة وثيقة في الحرب ، ولكن الحالة لم تتبدل تبديلاً مذكوراً منذ وضعت الحرب أوزارها ، وقد روى غير واحد من الكتاب السياسيين الأمريكيين أن وزارة الخارجية الأمريكية نفسها لم تعرف شيئاً عن قرارات البيت الأبيض في مسائل كثيرة ، إلا بعد اتخاذ القرارات استناداً إلى رأى مستشارين مقربين من الرئيس ، فأسفر ذلك كله عن أن حكومات الدول التي تربطها بأمريكا أواصر الصداقة والمودة ، وفريقاً كبيراً من كبار الأمريكيين ورجال المجلسين النيابيين ، باتوا لا يعرفون ما هي سياسة الولايات المتحدة في هذه المسألة أو تلك •

ولن يفضى سلوك هذا الطريق إلا إلى زيادة الاضطراب ، وضعف الثقة بقدرة الحكومة الأمريكية على علاج مسائل ، لا يقتصر أثر علاجها على الأمة الأمريكية وحدها ، بل يشمل أهم العالم جميعاً •

والأمة الأمريكية تستطيع في لحظة من لمحات العبقريّة أن تسمو إلى المنزلة التي تتبوأها اليوم بين أمم العالم • ولعل أبلغ مثل على ذلك هو تلك العبارة التي وردت في خطبة مارشال منذ نحو سنة (٥ يونيو ١٩٤٧) فصارت أكبر وأعظم مشروع للتعمير في التاريخ — مشروع مارشال • فقد ارتفعت الأمة الأمريكية فوق النزاع الحزبي ، وأقرت المشروع في سنة انتخاب ، برغم ما يكبد الأمريكي من مشقة وبذل •

ولو أصغى البيت الأبيض لرأى مستشاريه الذين يعرفون

الشرق العربي ، ولرأى الجماعات التى لا تمارس السياسة ولكنها تفهم طبائع الشعوب العربية ، وتدرك القوى الزاخرة والمنى العظيمة التى تحرك نفوسها ، لما اشتط فى اتخاذ سياسة خيال فلسطين تتنكر لمنزلة أمريكا فى جهاد الحرية ، وتلقى ظلا قائما على رشدتها السياسى ، وتعرض مصالحها — التى تعدها مصالح العالم أيضا — للخطر . وقد أعجب الناس بقول الدكتور بنروز رئيس جامعة بيروت الأمريكية الجديد فى رسالته المنشورة حيث قال : « ولو كانت أمريكا تريد حقا أن تقضى على الرجاء الذى يعلقه العالم بقيادتها الحكيمة فى هذه الأيام العصيبة ، لما وجدت طريقا أفضل من طريق النفاق الذى شرعت تسير عليه من أجل ما يسمى أسبابا داخلية ، أو من أجل أى سبب آخر » . ولو أنصف البيت الأبيض الأمة الأمريكية ، لاستطاع بموافقة الحزبين الكبيرين ، أن يجمع بين تقاليد أمريكا الكريمة ومصلحتها ، فى سياسة واحدة ، لبابها : صداقة العرب .

ولست أعرف فى تاريخ الأمم مثلا واحدا على قيام دولة واستمرارها بالاعتماد على عون موصول يأتيها من الخارج . وقد بذل مثل هذا العون لغير دولة ناشئة من أجل غرض خاص . ففرنسا بذلت عونها للمستعمرات الأمريكية النائرة على بريطانيا ، لكى تزرع الشوك فى طريق بريطانيا يومئذ . والروس لا يتدخلون فى فلسطين من أجل خير الدولة التى تسمى دولة اسرائيل ، أكثر مما تدخلوا فى أسبانيا من أجل خير أسبانيا ذاتها . فكل غرضهم أن يصير لهم فى الشرق الأوسط ، وعلى ملتقى طرق الطيران العالمية ، وفى منطقة يزخر جوفها بالزيت ، موطئ قدم يمكنهم

من أن يزرعوا الشوك في طريق أمريكا ، خصمهم الأول في الحرب الباردة — التي قد ترتفع حرارتها يوما ما • فكيف تقبل أمريكا أن تؤازرهم على ما يريدون بمجاراتهم ومحاولة بزهم في الطريق الذي اختاروه ؟ !

قضى الأمريكيون على عزلتهم بأيديهم يوم اخترعوا الطائرة ثم يوم صنعوا القنبلة الذرية • فصار حتما عليهم أن يتخذوا لسياستهم الخارجية قواعد تعبر عن لباب تاريخهم ونظرتهم الى الحياة ، ولا تتقلب مع رياح الانتخاب •

وأهم مصلحة ينبغي لأمریکا لها أن ترعاها وتحرص عليها ، هي ثقة الناس بأنها لا تلقى بقوتها الأدبية العظيمة الا في كفة الحرية والعدالة ، وقد تستطيع الدولة القوية أن تظل زمنا ما قادرة على فرض رأيها بالقوة أو النفوذ ، ولكنها سرعان ما تتبين أن الثقة بعدالتها تؤتيها من السلطان ما لا تؤتيها اياه ألف طائرة تحجب وجه الشمس •

هكذا يقول العربي

قبلت الشعوب العربية أن تبحث حكوماتها موضوع الهدنة — ولكنها قبلت على مضض • فهي ترى أن البحث في قضية فلسطين استفاض خلال ثلاثين سنة تقريبا ، دون أن يفضى الى رأى يرضاه العرب المؤمنون بحقهم وعدالة موقفهم •

وهي ترى الآن جيوشها على أبواب تل أبيب ، وبيدها أن تحل العقدة ، كما حلها الاسكندر ، وتخشى أن يفوت عليها البحث والمناقشة ما يستطيع السيف أن يحسمه •

ولكنها فى الوقت نفسه تثق بقادتها ، وحصافتهم ، فقبلت ما قبلوه فى موضوع الهدنة ، بالشروط التى اشتروطها — ولكنها لا تزال حذرة . وهذا الحذر ينبع من فطرة أصيلة فى النفس ، ومن فطنة ولدها العقل وعززتها التجربة . فقد بلى الأمة العربية الصهيونيين ، ربع قرن أو يزيد ، فأدركت أنهم قوم ذوو طمع وغدر وحيلة . وعرفت بالتجربة أن منهم جماعة لا ترضى الا أن تقيم دولة ضخمة فى الشرق العربى ، وأن الشقة التى يزعمون أنهم رضوا بها ليست فى نظرهم سوى موطىء قدم يشون منه الى ما وراءه . فمن العبث أن تتوقع خيرا من مباحثتهم ، أو أن تنتظر اتفاقا معقولا معهم . ففى هذه اللحظة التى أشرفت فيها الجيوش العربية على أبواب حاضرتهم ، وقف ممثلهم فى مجلس الأمن يعلن فى كلام موسوم بالقحة : « انه لا يقبل مجادلة فى حقيقة دولة اسرائيل » مع أن وزير الخارجية الفرنسية بيدو قال فى اليوم نفسه : « ليس لدولة اسرائيل وجود فى القانون ولا فى الواقع » . فأية فائدة خليفة أن تجنى من وقف القتال أربعة أسابيع ؟

هذا لباب ما يدور فى ذهن الأمة العربية . واليه مرجع ما تشعر به من مضض فى قبول ما قبلته حكوماتها — حتى بالشروط التى وضعتها لقبوله .

الا أنها تدرك ، أن حقوق العرب فى فلسطين أسىء عرضها وتأويلها فى مجامع الأمم ، لأن الصهيونيين توسلوا بكل خداع وتمويه ليدركوا ذلك الغرض ، ولأنها هى قصرت فى هذا المضمار . ثم هى تدرك أن الصهيونيين وأذئابهم صنعوا للعرب صورة

فاحشة وعرضوها على عيون الناس : تنابد وتواكل واستبداد وتعصب ووحشية • فمن الخير أن يذاع ما يقوله كبير من كبار جمعية الصليب الأحمر الدولية ، ان العرب لأهل نخوة ونجدة وكرم في معاملة الأسرى والنساء والعجزة والأطفال • ومن الخير أيضا أن يطلع الكونت برنادوت بنفسه على حقائق حجبها أضاليل الصهيونيين ، وأن يودعها في مقترحاته وتقاريره • ثم من الخير أن تقبل الحكومات العربية البحث في اقرار السلام ، في الحين الذي تقف فيه جيوشها على أبواب الظفر الحاسم ضد شراذم من شذاذ الآفاق ، حتى تعلم الدنيا أننا أقوياء واننا لقوتنا نرضى أن نبحت في أفضل الوسائل لاقرار السلام •

ولكن الشعوب العربية تدرك بفطرتها وعقلها أيضا أنه بعد بيان جميع الفوائد التي ربما تجنى من حديث الهدنة ، تبقى حقيقة أصيلة هي هذه الهوة الشاسعة بين ما يطمع فيه الصهونيون وبين العرض السخي الذي جعله العرب أساسا لحل مشكلة فلسطين • واذن فلا يتوقع أبناء الأمة العربية ، أن يسفر الحديث خلال الهدنة عن حل مقبول ، وان كانوا يتمنون التوفيق للذين يسعون الى الخير والوفاق •

ولذلك يرى أبناء الأمة العربية ، انه ينبغي لزعماء الدول العربية وقادة جيوشها أن يحتفظوا ببارودهم جافا ، وأن يحذروا الوقوع في شرك قوامه حديث في الهدنة يمتد أياما ، ثم هدنة تمتد أربعة أسابيع ، ثم محاولات للتوفيق تمتد ما امتدت الهدنة ، ثم خلاف ينتهي الى استئناف القتال ، فلا يكاد القتال يستأنف حتى يروا يوم أول أغسطس ، ويومئذ يصبح ميناء حيفا حرا

في أيدي الصهيونيين يستقبلون فيه ما يشاءون أو ما يستطيعون
من السفن الموقرة بالسلاح والجند •
حذار من أن يتخذ الحديث في الهدنة ، أو البحث في أثنائها ،
وسيلة لآخاد الشعلة المتأججة في نفوس الأمة العربية ، فمسألة
الصهيونية في فلسطين ينبغي أن تحسم قبل يوم أول أغسطس •
هكذا يقول العربي •

رسالة مفتوحة إلى برنادوت

أجمع الذين عرفوك ياسيدي الكريم على أنك رجل اخلص
نفسه للخير ، وعلى أن مجلس الأمن قد أطلق يدك في اقتراح
علاج لمشكلة فلسطين ، وانك قد قلت أنك حر : حر من التقيد
بالمقترحات الكثيرة التي اقترحت فلم تف • وانا أصدق كل هذا
لأنك رجل شريف ، وأحب أن أصدق أيضا أن حريتك لا تقتصر
على أنك غير مقيد بما سبق ، بل تشمل أيضا — وهو أهم —
حرية ذهنك ورحابة صدرك في قبول الحق متى رأيته وعرفته :
« وتعرفون الحق ، والحق يحرركم » •

لذلك استأذنتك ، في أن أعرض عليك أصولا كالبديهيات ،
جهلها أو تجاهلها ، فتخطوا حتى صاروا لا يستدبرون مقترحا
خائبا حتى يستقبلوا مقترحا آخر أدنى الى الخيبة والضلال •
وليس يسعني أن أصدق أن فطنتك لم تهلك ، خلال الأسابيع
الآخيرة التي قضيتها في الشرق العربي ، الى أن مدار النزاع بين
العرب والصهيونيين وسره هو عزم الصهيونيين على أن يقيموا
دولة صهيونية عريضة في هذه الربوع • فتاريخ الصهيونية المتصل

دليل قائم على هذا العزم •

ولست أشك في أن فطنتك قد هدتك أيضا الى ما يقضى به العقل والمنطق ، من أن استمرار الهجرة وعدم انشاء دولة صهيونية ، أو استمرار الهجرة وبقاء الدولة في الحدود المحيرة التي عينها مشروع القسمة ، شيء مستحيل • فالصهيونيون لا يطلبون الهجرة لذاتها ، لأنهم يعرفون أنها لا تحل مشكلة تسعة ملايين أو عشرة ملايين من اليهود في العالم ، وانما يطلبونها لاقامة دولة صهيونية ، تشمل اليوم رقعة مفككة من فلسطين ، وتشمل غدا فلسطين كلها ، وشرق الأردن أيضا • وليس هذا وهما من الأوهام بل هو قول فريق من زعمائهم • فاعلم ياسيدى أن من يوصى بدوام الهجرة ، يوصى باحالة فلسطين دولة صهيونية خالصة •

وأنت ياسيدى الكريم ، رجل ديمقراطى ، كالشعب الذى تنتمى اليه ، فلذلك فطنت في أغلب الظن الى انه لا يعقل أن تيسر قيام دولة صهيونية في فلسطين ، وان تزعم في الوقت نفسه انك تحترم في فلسطين كما تحترم في بلادك ، مشيئة الشعب وحقوقه • فالشعب الفلسطينى العربى صاحب البلاد ، معارض أشد المعارضة ، في استمرار الهجرة وانشاء دولة صهيونية ، لأنه يؤمن بان ذلك افئات على حقوقه الطبيعية ، وخطر يهدد كيانه • واذن فعساك أن تكون قد تحققت انه من المستحيل على اليهود أن يظفروا بمودة العرب ، اذا هم أصروا على استمرار الهجرة وقيام الدولة • وقد نبههم غير واحد من عقلاء قومهم وأصدقائهم ، الى أن قيام هذه الدولة سوف يظل تحديا قائما

للأمم العربية ، وقد يفوت هذه الدول اليوم أو غدا أن تنبرى له ،
إذا تألبت عليها قوى عالمية ، ولكنها لن تنفك متربصة لتنبى
متى واتها الفرصة • فمصير فلسطين ، مرتبط أوثق ارتباط بحياة
البلاد العربية وكيانها ، وكل حل ينبغي أن يراعى فيه ، أن وراء
شعب فلسطين أربعين مليوناً من العرب ، وأن من وراء هؤلاء
ثلاثمئة مليون من المسلمين •

وعلى ذلك أرجو ، أن يكون البحث الحر قد هداك الى انك
لا تستطيع أن تنظر فى مشكلة فلسطين ، الا احدى نظرتين
متعارضتين تعارضا أصيلا ، والى انه لا مفر من اختيار هذه
النظرة أو تلك •

أما الأولى فان يقام وزن كامل لحقوق الشعب الفلسطينى
ومصالحه ورغباته وفقاً للمبادئ الديمقراطية ، التى ارتضيتموها
فى السويد ، وفى طائفة كبيرة من بلاد الله ، وأما الثانية فان تغلب
على حقوق الشعب الفلسطينى حاجة شعب غريب طارئ ،
ومطامع فئة ترنو الى السلطان ، لا لسبب سوى انهم استطاعوا
بالمال والضغط السياسى أن يؤلبوا دولاً كثيرة لتأييدهم •

ولن يكون فى وسعك ياسيدى الكريم ، أن تصل الى حل
حقيقى نهائى لمشكلة فلسطين ، الا على أساس النظرة الأولى •
فهى النظرة التى تستند الى الحق الطبيعى ، وأما الثانية فتقحم
على فلسطين أمورا طارئة لا ناقة لفلسطين فيها ولا جمل •

وهذا الحق الطبيعى ، هو حق الشعب أن يقرر شكل حكومته ،
وأن يعين موقفه من المسائل العامة التى تمهه ، ثم حقه أن يسير
سيره فى تعزيز الشعور بالتماسك الشعبى ، والحرص على أن

يعيش أبناء الأمة جميعا في جو المودة والتعاون وان اختلف الرأي .
ونمو هذا الشعور لا يمكن أن يستتب أمره ، الا متى تخلص
الصهيونيون عن مطمعهم في أن ينشئوا في فلسطين دولة ، أو جماعة
مميزة منفصلة عن الشعب الفلسطيني .

وهذا الحق لا يمكن أن يمان ، ولا أن يمهد له طريق النمو
الا بقيام دولة مستقلة موحدة ديمقراطية النظام ، تحمل حكومتها
تبعة شئون البلاد ، وتبعة تصرفها وفقا للمصلحة العامة كما تقرها
المشيئة العامة .

وهذا لا يعنى أن جماعة اليهود المقيمين في فلسطين اليوم ،
سوف تكون في هذه الدولة « أقلية » بأسوأ ما في لفظ الأقلية
من معان — فلن توصل في وجوههم أبواب المشاركة في حكم
الدولة وتنمية مواردها ، ولن يعيشوا بمعزل عن التيارات الرئيسية
في حياتها القومية ، ولن يكون وجودهم فيها قائما على تنازل
الأكثرية بالرضى عنهم ، بل يعنى أن يشاركوا في افراغ الدولة
الجديدة في قلبها المرتجى ، وأن تربطهم بالعرب روابط المصلحة
والمودة ، مودة المواطن للمواطن ، لا مودة القوى للضعيف ، وأن
تكون لهم حقوقهم الاجتماعية الخاصة .

ولكن ينبغى أن يفهم أن الدولة الفلسطينية هي دولة عربية .
وليس معنى هذا أن كل مواطن غير عربى من مواطنيها عرضة
للاضطهاد والشعور بأنه طارئ دخيل ، بل يعنى أن الحكومة
والمواطنين جميعا يسلمون بالمعاني المنطوية في الحقائق الآتية :
ان كثرة الشعب عربية . وان لغة البلاد عربية . وان في طبيعة
الأهداف التى تتوخاها الحكومة ، هدف المحافظة على طبيعة البلد

العربية ، وهدف التعاون مع الدول العربية • وليس هذا بدعة ، ففي التاريخ وفي الزمن الحاضر قام ازدهار غير دولة واحدة على تعاون عنصرين كبيرين ، ولكن الدولة أخذت أكثر مقوماتها من جماعة الكثرة من أبنائها •

وضمن جميع الحقوق والفرص لجميع المواطنين ، دون نظر الى سلالة أو دين ، كفيل على الزمن بتحقيق الاندماج الاجتماعى المرموق ، فيتعلم اليهود اللغة العربية ، كما تعلموا الانجليزية فى انجلترا وأمريكا والألمانية فى ألمانيا ، ويقبلون منزلتهم الجديدة فى الدولة الجديدة بما تنطوى عليه من حقوق وواجبات • وليس هذا الاندماج شيئاً تفرضه الأكرثية فرضاً ، ولكنه نتيجة يملها على الشعب موقع فلسطين الجغرافى ، اذ ليس أمام فلسطين يومئذ سوى طريقين ، فاما أن تعيش فى عزلة عن العالم العربى ، واما أن تصير جزءاً لا غنى عنه فى مجموعة الأمم العربية • والطريق الأول هو طريق الهلاك •

لن تجد ياسيدى الكريم ، طريقاً مختصراً الى حل ميسر ، لأن كل حل لا يستند الى هذه الأصول يثير من المشكلات أكثر مما يحل ، وعسى أن يكون الدم الذى سفك منذ ثلاثين سنة ، وفى الأسابيع الأخيرة ، قد علم القوم أن طريق التراضى والتعاون ، على ما فيه من مشقة ، اخلق بأن يسلك وأهدى الى الخير العام •

موجتان

كل حضارة وكل نهضة وكل تحول أصيل في حياة الشعوب يرتد الى أصلين رئيسيين من أصول الحياة • أما الأول فهو الفكر الذي يصور الغايات التي تحدى اليها الركائب ، ومنه تنبع القوة المحركة ، واليه ترجع الآراء الفلسفية والعلمية والاجتماعية التي تمهد طرقا كانت وعرة من قبل أو كانت غير مطروقة • فنظريات العلم الحديث في بناء المادة ، والتطور العضوى والآراء الاجتماعية الحديثة في الاشتراكية والنظم السياسية والاجتماعية هي التي أفرغت عالمنا الحديث في قلبه المعهود • وهى جميعا صدرت أولا من الذهن الانسانى ، ثم لم تلبث أن تغلغلت في حياة الناس كل يوم • وأما الثانى فهو البيئة الاقتصادية والاجتماعية التى يعيش فيها الناس — فكل ما يحدث فى هذه البيئة تغييرا أصيلا فيها ، من أساليب الصناعة والزراعة والحدق فى استغلال موارد الطبيعة ، يغير الأحوال التى يعيش فيها الناس ، فيفضى بعد زمن طويل أو قصير الى تغيير فى آرائهم وأفكارهم •

والعاملان متفاعلان ، فبحوث مكسويل الرياضية فى الأمواج الخفية التى تملأ الفضاء أفضت بعد زمن الى جميع عجائب العصر اللاسلكى ، وشيوع الراديو أخذ يفضى الى توثيق الصلة بين الناس ويفسح المجال لطغيان الدعاية خيرا كانت أو شرا • وارتقاء الصناعة الذى نشأ عن التقدم الحديث فى علوم الطبيعة أفضى الى كثير من الرخاء وارتفاع مستوى العيش فأفضى بدوره الى نظرية التفسير الاقتصادى للتاريخ والى المذاهب الاشتراكية المعتدلة والمتطرفة ،

وقيام بعض الدول وطائفة من الحكومات على قواعد تلك المذاهب .
وهذه في مذهبي توطئة لا بد منها للبحث في الكتابين اللذين أنوى
اليوم أن أنوه بهما . أما الكتاب الأول فعنوانه « ما أسداه المسلمون
الى علم الجغرافيا » ، وقد ألفه بالانجليزية عالم من علماء الهند
اسمه نفيس أحمد وطبع في مدينة لاهور بالهند ، وأما الكتاب
الثاني فعنوانه « العربية السعودية » وقد ألفه مهندس أمريكي
يدعى تويتشل وطبع في مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة
الأمريكية . والكتابان كلاهما يمثلان في رأيي هاتين القوتين
المحركتين اللتين يرجع اليهما التطور الاجتماعى : قوة الفكر ، وقوة
الارتقاء الاقتصادى .

والأمة العربية اليوم تجوز فترة من حياتها ، لعلها لم تجز فترة
أخطر منها شأنًا منذ قرون كثيرة . ففي صدرها تحتشد اليوم
ذكريات ماض مجيد ، ومنى مستقبل باهر ، أما الأولى فتتخفز
لتنبعث وأما الثانية فكالجنين يتململ في رحم أمه ، وقد أخذته
سورة الانطلاق حتى يخرج الى النور .

والأمة العربية في هذه الفترة الخطيرة من حياتها ، تحتاج الى
القوتين معا ، قوة الفكر المبدع الذى يعين الغايات ويرسم الطريق ،
وقوة الانتفاع بالموارد الاقتصادية ، حتى يستعين بها في حرب
المرض والجهل والفاقة ، فتشب الأمة في دور انبعاثها ، سليمة
البنيان . وليس ثمة ما هو أدعى الى حفز همم الشباب من دراسة
الماضى واستلهام عبره ، واستيحاء مآثر العظماء من رجاله ومن
نسائه . فقبل ألف سنة من الزمان عنى عالم عراقى مقيم في مصر
في زمن الحاكم بأمر الله ، بدراسة ظاهرة عجيبة من ظاهرات الطبيعة ،

وهى ظاهرة ما أشيعها ، ولكنها مع ذلك كالمعجزة لا يدرك سرها ،
أعنى ظاهرة الضوء ولكن أبا الحسن بن الهيثم كشف من أسرارها
ما جعله معلما من معلمى النهضة الأوروبية ، ونحن قد نقرأ كتبه
اليوم فلا تغنيا عما نجد في المطبوعات الحديثة عن علم الضوء •
ولكن لا يفوتنا ولا ينبغي أن يفوتنا أن العقل الذى صنع ما صنعه
ابن الهيثم بغير وسائل البحث الحديثة وأساليبه تستطيع عقول
كثيرة أن تجاريه اليوم ، فى القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت اذا
أتحنا لها الفرصة وأحسننا حفظها وتوجيهها •

وأنا أرى فى كتاب السيد تقيس أحمد حافرا من هذه الحوافز
الذهنية فى المقام الأول ، وإن كنت لا أغمطه قيمته العلمية ، فقد جمع
فى كتاب واحد ناحية من نواحي اهتمام العرب والمسلمين بالعلوم
وكتبها باللغة الانجليزية حتى يطلع عليها أبناء الأمم الغربية فى العصر
الحديث فيدركوا أن النهضة العربية ليست عاصفة فى فنجان كما
يقولون ، وإنما هى تجديد لحضارة قديمة عالمية تتصل الدوافع
إليها بأعمق القوى التى تحرك النفوس •

فأنا أحب مثلاً ، أن أرى طلبة المدارس فى الشرق العربى يطلعون
على ماثر العرب فى الجغرافية وهم يتدارسون فى الكتب الحديثة ،
خطوط الطول والعرض وأوصاف القارات والبحار والأنهار
ومحصولات البلدان المختلفة وطبائع سكانها ، فكم طالب من
الطلاب يعلم أن كتاب الجغرافيا الذى وضعه بطليموس ترجم
بالعربية غير مرة ، وقد كان من مترجميه حنين بن اسحق وثابت ابن
قرة الذى توفى فى أول القرن العاشر الميلادى • وإن هذا الكتاب
هو الذى حفز الخوارزمى المشهور الى وضع كتابه صورة الأرض ،

وأن هذا الكتاب كان يحتوى على خريطة للسماء صنعها هو وتسعة وستون عالما ، استجابة لطلب الخليفة المأمون وتشجيعه ، وقد ظلت رسالة الخوارزمى تؤثر فى العلماء من بعده خمسة قرون متوالية ، وما قولك فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الذى ظهرت طبعته الأولى فى أواسط القرن التاسع الميلادى وطواه صاحبه على أول وصف لخواص سطح الأرض ، فاعتمد عليه فيما بعد ابن الفقيه وابن حوقل ، والمقدسى • أما الاصطخرى فقد ألف فى أواسط القرن العاشر كتاب مسالك الممالك وهو غير المسالك والممالك لابن خرداذبة ، وصنع له خرائط بالألوان ، لكل بلد ذكره ، أما معجم البلدان لياقوت الحموى فأشهر من أن يعرف •

ولو كان الغرض أن يطيل الباحث ذكر الذين ألفوا فى الجغرافية من المسلمين وأسماء الكتب التى ألفوها لضاق الحديث عنه ، ولا نحصر فى كشف مسهب من الأعلام فى الناحيتين ، ولكن حسبنا أن نقول ان المسلمين اعتنوا كثيرا بوصف البلدان ، واستطلاع الحقائق الطبيعية اللازمة لمعرفة الجغرافية ، وتركوا فى ذلك تراثا ضخما نفيسا • وقد كان تراثهم ملهما لمن جاء بعدهم من الباحثين وبحرا غنيا حافلا بالحقائق والملاحظات ، غاص العلماء فيه واستخرجوا منه نفائسه •

وقد كان بين الكتب الجغرافية القديمة التى وضعها العرب كتابان وضعهما عالم يمنى هو الحسن بن أحمد الحمدانى المتوفى سنة ٩٥٤ ميلادية فى سجن صنعاء وهذان الكتابان هما « الاكليل » و « صفة جزيرة العرب » ويعدهما العلماء من ذخائر المعرفة عن الجزيرة العربية قبل الاسلام وفى عهده الأول •

وقد جاء اليوم مؤلف أمريكي فوضع كتابه «العربية السعودية» دون أن يهمل ذكر اليمن حتى يصح بشيء من التجاوز أن نطلق عليه «صفة جزيرة العرب في القرن العشرين» : والمؤلف مهندس يهتم بالتعدين على وجه خاص ولكن جلالة الملك عبد العزيز شرفه بصادقته وأتاح له أن يطوف في المملكة كيف شاء حيث يؤذن له ، واعتمد على التقارير التي رفعها اليه عن الموارد الطبيعية وأفضل الوسائل لاستغلالها والانتفاع بها لتحسين حال الشعب وزيادة مصادر رزقه •

والحياة في الصحراء صراع دائم في سبيل الرزق ونضال لا يفتر لرد غوائل القحط والجوع ، فلذلك عنى تويتشل أول ما عنى بدراسة موارد الماء في الصحراء وخير الأساليب للانتفاع به في الزراعة ، ثم عنى أيضا بمناجم المعادن ، واحتمال وجود الزيت قبل أن يوجد فيها ببضع سنوات ، ولكنه لم يقتصر على دراسة الموارد الطبيعية والانتفاع بها ، بل ذكر صفة الأرض وطبقاتها وطرق مواصلاتها وبقايا آثارها ، وأخلاق شعبها وتنظيم ادارتها في حكم آل سعود ، وغير ذلك من الموضوعات • وقد قسم كتابه ثلاثة أقسام : القسم الأول يشتمل على الصفات التي تميز العربية السعودية ، والثاني يصف نموها الاجتماعي والسياسي ، والثالث منزلة العربية السعودية في الاقتصاد العالمي • فلم أكن متجنبا على الحمداني حين قلت أنه يصح أن نطلق ، بشيء من التجاوز ، على كتاب تويتشل «صفة جزيرة العرب في القرن العشرين» • وأهم ما تبينه في هذا الكتاب هو تأثير المشروعات الزراعية الحديثة واستنباط الزيت في اقتصاد المملكة العربية السعودية ،

ولعل أبلغ مثل على المشروعات الزراعية مشروع الخرج المشهور .
وواحة الخرج تبعد ٥٦ ميلا عن الرياض ومعدل ارتفاعها ١٥٠٠ قدم
فوق سطح البحر ، وفيها فجوتان عظيمتان قطر كل منهما ٣٠٠ قدم
وعمقها ٤٢٠ قدما وفي الفجوتين ماء زلال يتسرب اليهما عن
ماء المطر بعد أن يتخلل الأرض ، وقد ركبت عليهما مضخات قوية
تخرج للرى ٧٠٠٠ جالون من الماء في الدقيقة ، وبنيت قناة من
الأسمنت المسلح طولها عشرة أميال فتروى ٣٠٠٠ فدان تغل اليوم
مقادير عجيبة من البرسيم والقمح والبطاطس والجزر والبصل
والبادنجان والبطيخ وغيرها .

وجلالة الملك عبد العزيز يقول : مآثم هنا يمكن أن يتم في
أماكن أخرى . فلذلك ترى أن حصر موارد الماء وانشاء المنشآت
اللازمة للانتفاع بها في طليعة برامج العمل الذي تتولاه الحكومة
السعودية .

وهذه البرامج تشمل انشاء ميناءين صالحين في جده في الغرب ،
والدمام في الشرق ، وسكة حديدية بين ساحل الخليج الفارسي
والرياض ، واقامة محطات توليد الطاقة الكهربائية للاضاءة ورفع
المياه للرى وتوريد المياه العذبة من وادى فاطمة الى جدة واعداد
المستشفيات ونشر دور التعليم . والملك عبد العزيز يريد الاصلاح
الاقتصادى فيدأب على توجيه الأمراء ورجال الدولة اليه ويعينه
في ذلك ما يتقاضاه من شركة الزيت العربية الأمريكية ، بعد أن
ثبت أن موارد المملكة العربية السعودية من الزيت تعد الآن في
المنزلة الخامسة بين امم الأرض . والشركة حريصة ، حتى بعد
تأدية الاتاوة ، على تلبية طلب جلالة الملك عبد العزيز والحكومة

فى كل مشروع من مشروعات الإصلاح ، فرجالها يحرصون أشد الحرص على احترام استقلال البلاد ومعاونة حكومة جلالته ويعتقدون أن كل عمل من هذا القبيل لا تتم له مزية النفع المتبادل ولا يسعى القائمون بأمره سعيا صادقا لكسب ثقة الشعب ومودته واحترامه ، خلى أن تعصف به عواصف الدهر ، وكذلك تتم الفائدة التى تعود على البلاد العربية من زيادة دخل أهلها واتاحة العمل الشريف لآلاف من أبناءها وما يكسبونه من ضروب جديدة من الحق فى العمل ، وتجنب الخوف من أن تصير هذه المشروعات الضخمة ضربا من ضروب الاستعمار الاقتصادى •

وفى تقدير المهندس تويتشل أن ليس لمستقبل العربية السعودية من الناحية الاقتصادية أفق معروف ينتهى عنده •
واذن فنحن نرى فى هذين الكتابين إشارة الى أصليين رئيسيين من أصول الحياة والحضارة أو موجتين دافقتين من أمواج العمران — موجة الفكر الممثل فى ما أضافه العلماء المسلمون الى الجغرافيا أو قل الى العلوم ، وموجة الموارد الاقتصادية الوفيرة فى البلاد العربية وحسن استغلالها ، فاذا أحسنا الانتفاع بما يوحى به هذان الكتابان فقد قبضنا على زمام النجاح فيما نرغب اليه من تجديد حضارة كانت فى عصرها معلمة الدنيا •

الطريق واضح

مستقبل الثروة القومية

تسير مصر المنبعثة قدما الى تثبيت دعائم الصناعة فيها ، واعلاء شأنها ، والانتفاع بها في زيادة الثروة القومية ، ومن نعمة الله أن مصر الصناعية تستطيع اليوم أن تنتفع بالعبر المستخرجة من تجارب الأمم الأخرى ، فتقيم صناعاتها على أركان سليمة . فالأمم التي سبقت الى الصناعة كان يتعين عليها أن تجرب ، وأن تنتفع بجدوى تجاربها أو خطئها ، والمشكلات الصناعية التي تعرض لنا ، عرض بعضها لغيرنا من قبل ، وحلت على وجه يطابق مصلحة البلد الذي غرقت له وحالته العامة ، فقد مهدت لنا تجربة من سبق بعض هذا الطريق الوعر . بيد أن الانتفاع بتجارب الأمم الأخرى له حد ينبغي أن لا نقف عنده . فطبيعة الأرض والجو ، وحال العامل وصحته ، وانتشار أسباب النقل أو قلة انتشارها وصلاح بعض خامات الصناعة المتاحة أو عدم صلاحها ، أو جعلها صالحة بعد علاجها ، من المسائل التي تعرض للصناعة الناشئة ، ولا بد من حلها على خير وجه يلائم البلد الذي تقوم فيه ، ويكفل للصناعة جودة المصنوع وقلة النفقة ، حتى تروج البضاعة ويزدهر العمل .

وليس ثمة ريب في أن العبرة الأولى المستخرجة من تجارب الأمم الأخرى هي ضرورة الاستعانة بالبحث العلمي ، من حيث هو وسيلة لارتقاء الصناعة والزراعة أيضا . وقد كان هذا الانتفاع في الأمم الغربية ، منذ قرن ، شيئا غير منظم ، ولكن أصحاب

الصناعة والزراعة وأهل العلم أدركوا وبخاصة منذ أوائل هذا القرن ، أن الصلة بين العلم من ناحية والصناعة والزراعة من ناحية أخرى ينبغي أن توثق وأن تنظم ، حتى يستطيع العلم أن يسدى إليها أعظم يد وأنفعها ، فمالوا الى تشجيع البحث العلمى ، فى الجامعات بمال الحكومات ومال الأفراد وفى الأقسام الفنية فى الحكومة ، وحقوق التجارب ، ثم فى معاهد البحث التى أنشأتها الصناعات الكبيرة .

ومن البحث العلمى ما يكون نظريا أصيلا يبدو أنه لا يمت الى النفع العلمى بصلة . ولكن تاريخ أثر العلم فى الصناعة والزراعة دليل قائم على أن البحوث الأصلية التى تعد نظرية ، كثيرا ما تصير الدعامة الأولى لصناعة أو لزراعة جديدة مجدية ، فصناعة الراديو كلها على تعدد نواحيها وكثرة العاملين فيها ، تترد الى بضع معادلات رياضية استخرجها مكسويل منذ نحو قرن من الزمان . والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى .

فالبحث العلمى الأصيل ينبغي أن يشجع فى الجامعات والمعاهد الفنية فى المقام الأول ، فمهمتها أن توسع آفاق العلم . وأنت تجد اليوم أن الأقسام الفنية فى الحكومة المصرية ، والجمعية الزراعية الملكية وكليات الجامعتين ، تضطلع بأبحاث علمية ، تمت الى الزراعة والصناعات الزراعية بأقوى سبب ، وقد كان لها شأن كبير فى زيادة غلة الفدان الواحد من القطن وغيره من المحصولات الزراعية . ومن رجالها اليوم من يجرى تجارب علمية دقيقة على أنواع الحيوان ، وأصناف النبات ، وضروب الآفات والحشرات ، وقد أسفر بعضها عن نتائج رائعة . ورب بحث واحد

يزيد ما يدرثه البقر من اللبن وقيمته الغذائية فيزيد الثروة القومية
لملايين من الجنيهات في كل سنة .

فالباحثون في هذه الميادين يجب أن يوفر لهم قدر كاف من
الطمأنينة والتقدير ، وأسباب العيش الكريم ووسائل البحث ،
وأن يرفع عن كواهلهم عبء العناية بأعمال الإدارة ، حتى يتوفروا
على بحوثهم ، فهم كنوز ينبغي أن لا نفرط فيها .

أما أصحاب الصناعة والزراعة ، فينبغي لهم أن يقدرُوا ما أدركه
اخوانهم في الغرب ، بعد تجربة طويلة ، من أن تجويد الصنف ،
وزيادة الانتاج ، وقلة التكلفة ، وهى أساس النجاح في الصناعة
والزراعة ، لن تنقاد لهم من نفسها ، فينبغي أن يستعينوا عليها
بالبحث العلمى . وقد سمعنا من الدكتور حافظ غيفى باشا أن
بعض الشركات في مصر لم تغفل هذا ، وأن المساعى تبذل لتنظيمه
وتعزيزه . ولكن يندر أن نجد في مصر اليوم شركة صناعية
تستطيع أن تقوم بمفردها على معمل كبير للأبحاث العلمية ، يفى
بحاجة البحث العلمى الصناعى فمن الخير أن تجتمع الشركات التى
تمارس صناعة واحدة على انشاء معمل للبحث العلمى يختص
بالمشكلات التى تواجهها ، ومن الخير أيضا أن يتبرع ذوو الثروة
الزراعية الكبيرة بالمال اللازم لانشاء معهد أو أكثر للبحوث
الزراعية ، فكل جنيه ينفقونه عليها يجدى الوفا ، عليهم وعلى
مصر ، وليس من العدل أن يعتمدوا على الحكومة وحدها فى ذلك .
ان مصر ، بشعبها وأرضها ، وافرة الموارد المادية والبشرية
فاذا أحسنّا الانتفاع بها على أفضل وجه ، زادت الثروة القومية
وارتفع مستوى العيش وصار فى الوسع محاربة الأعداء الثلاثة

والقضاء عليها • والانتفاع الصحيح بهذه الموارد رهن بأشياء كثيرة مادية وخلقية • والبحث العلمى فى مليعتها •

اقتصاد عربى متكامل

عقد اتفاق تجارى بين المملكتين المصرية والعربية السعودية ، وهو لا يختلف ، فى مبدأه ونطاقه ، عن كثير من المعاهدات التجارية التى تعقد بين بلدين • ولكنه مع ذلك ، اتفاق تجارى ذو شأن خاص ، لأنه ينطوى على مغزى ينبغى أن يكون هاديا الى سياسة عامة بين الدول العربية ، فيها خير اقتصادى وسياسى للدول العربية فى مجموعها •

ان اقتصاد المملكة العربية السعودية مكمل فى بعض نواحيه لاقتصاد المملكة المصرية ، واقتصاد المملكة المصرية مكمل فى بعض نواحيه لاقتصاد المملكة العربية السعودية • فالاعتراف بهذه الصلة وتنظيمها يعود بالخير على المملكتين •

تصدر المملكة العربية السعودية ، زيتا من ينابيعها وتتلقى ذهباً أو دولارات وتصدر أيضا ما تواضعوا على وصفه بكلمة « الخدمات » فى علم الاقتصاد ، وهذه « الخدمات » هى ما تتيحه المملكة العربية السعودية للحجاج الى بيت الله الحرام ، وتتلقى مقابلا لها جنيهاً مصرية من الحجاج المصريين ، مثله فى عرف الاقتصاد كمثل « خدمات » الاصطيف التى يصدرها لبنان ، و « خدمات » السياحة التى تصدرها مصر ، و « خدمات » الملاحة التى تصدرها بريطانيا • والمملكة العربية السعودية تستورد مقادير كبيرة من السلع التى تحتاج اليها فى حياتها القومية من زراعة

وصناعية • فإذا كان في وسع الاقتصاد المصرى أن يزود الاقتصاد العربى السعودى ، ببعض السلع التى يحتاج إليها ، كان في ذلك استغناء المملكة العربية السعودية عن بعض المصادر البعيدة التى تستورد منها ، وكان فيه تعزيز لتجارة الصادرات المصرية ، وموازنة للجنهيات التى ينفقها الحجاج المصريون فى الحجاز ، وتزويد لمصر بمبالغ نافعة من الدولارات وان كانت صغيرة ، فتضمها الى الدولارات التى تنالها من مصادر أخرى لتوفية ثمن السلع التى تحتاج الى استيرادها من بلاد العملة الصعبة •

وهذا الذى يصدق على المملكتين المصرية والعربية السعودية ، يصدق فى حدود وعلى تفاوت على الدول العربية جميعا • فالزراعة المصرية لا تنتج كل القمح الذى تستهلكه ، فلا بد لها من أن تستورد ، وقد استوردت بعض ما تحتاج اليه من روسيا ، بمقتضى صفقات المقايضة بين القطن المصرى والقمح الروسى • ولكن سوريا تنتج مقادير من القمح تفيض على ما تستهلكه ، وأرض الجزيرة فيها من أخصب أرض الشرق ، فإذا ذهبت الحكومة السورية فى زراعة القمح الى أبعد ما بلغته أساليب الزراعة الحديثة فى اختيار البذور واستعمال الآلات ، صار فى وسعها أن تصدر القمح الى مصر والمملكة العربية السعودية ، علاوة على لبنان • وفى مصر صناعة سكر بلغت شأوا بعيدا من الارتقاء ، وزراعة أرز بلغ الغاية فى الجودة ، وكلا السكر والأرز من مواد الغذاء التى تحتاج إليها البلاد العربية جميعا ، وقلما تنتج منها مقدارا يكفى • وفى سائر البلاد العربية صناعات وزراعات كثيرة ، تستطيع أن تجد أسواقا لها هنا أو هناك فى الدول العربية ،

فتشجيع هذا التبادل ، وتنظيمه ، احدى الوسائل الكثيرة التى
توثق عرى المصلحة بين الدول العربية ، وتزيد الانتاج والعمل
المتاح للعمال والصناع وهذا بدوره يفضى الى تعزيز أو اصر القربى
والتاريخ ورفع مستوى العيش وتمهيد طريق القوة •

وليس ثمة ريب فى أن رقعة الدول العربية غنية بالموارد الطبيعية
المادية ، والطبيعية الانسانية ، فتنمية الموارد فى الحالىن وفقا
لسياسة منسقة هو طريق الرخاء والارتقاء والقوة •

ولن تجد اليوم من يحتاج الى دليل ، على أن الصهيونيين
حيال الشرق العربى ، تراودهم آمال عراض ، اقتصادية وسياسية ،
فالعقل والمصلحة والكرامة ، وغريزة الدفاع عن الكيان ، تقتضى
جميعا من الدول العربية ، أن لا تقتصر على التمنى فى نشدان
الوحدة والقوة ، بل ينبغى أن تبادر الى وضع الخطط التى تكفل
نمو الموارد الطبيعية والبشرية فتحيل القوة الكامنة قوة مجدية ،
وعسى أن يكون الاتفاق التجارى الذى عقد بين المملكتين المصرية
والعربية السعودية ، بشيرا بادراك هذه الحقائق والسير على
هديها •

الاستقرار لا الجمود

يظل الجسم الحى فى صحة وعافية ما ظلت عناصر المادة الحية
التي تتألف منها الأنسجة والأعضاء فى حالة توازن واستقرار •
فاذا اختل التوازن مرض الجسم ، واذا انعدم فارقه الحياة •
ولكن الاستقرار فى الجسم الحى لا يعنى الجمود ، فالأعضاء
فى نشاط دائم ، والمواد التي تتألف منها فى حركة لا تقتر ، يطرح

الجسم قديمه الذى بلى ، و يحل محله كل جديد تقتضيه طبيعة الجسم ولا غنى عنه لسلامته • فالاستقرار فى الجسم الحى لا يعنى الجمود •

وكذلك الحال فى الجسم الاجتماعى • فالاستقرار السياسى والاجتماعى فى دولة ما ، هو أساس الصحة ، فإذا اضطرب مرضت ، وإذا انعدم صارت نهبا للعوادى والأعداء والطامعين •

ولكن الاستقرار السياسى لا يعنى الجمود السياسى أو الاجتماعى ، بل السلامة والنمو يقتضيان النشاط الدائب ، مسيرة للحاجة المتجددة ، والفكر المتطور ، وعجلة الزمان التى لا تكف عن الدوران •

فإذا بين أهل رأى جدوى الاستقرار فى الشرق العربى ، وطالبوا به ، فانما يفعلون ، ليتيح الاستقرار فرصة يزخر فيها النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى ، ويشمر • فالتربية فى المنازل والمدارس والجامعات ، لا يسعها أن تطرد بغير هذا الاستقرار ، وإن كانت التربية نفسها حركة دائبة لا تقتر ، بين تلقين وتدريب وطرح لما صار لا يصلح ، وأخذ بالنافع من كل جديد • والنمو الاقتصادى ، فى الزراعة والصناعة والتجارة ، لا يمكن أن يستتب إن لم يشق القائمون على المشروعات ، والمخاطرون بالمال ، بأن الاستقرار السياسى يتيح لهم أن يمضوا فيما أقدموا عليه ، وأن يجنوا ثمرة ما قدموا • والاصلاح الاجتماعى ، هو بطبيعته نزوع الى الخير وتعميمه ، ولكنه عمل طويل المدى متصل الجهد ، لن يسفر عما يرام منه الا على الأيام ، فلا غنى له عن الاستقرار ، بيد أن الاصلاح الاجتماعى ينبغى

أن يساير الحاجة المتغيرة والأفكار المجارية لسير الزمن ، فالجمود كالأضطراب ، كلاهما يعصف به .

لذلك قل أن تجد بين الذين أطلوا التفكير في شئون الدول العربية ، من يغلب عليه التشاؤم ، من هذه الفورة التي تتسم بها نفوس الشعوب العربية في هذا العهد ، فهي ان دلت على شيء فانما تدل على النزوع الى ما هو أفضل في نظم الحكم ، ومستوى المعيشة ، وانتشار العدالة الاجتماعية ، وتعميم وسائل التربية وفرضها ، وهذه أشياء لا تخشى ولا تبعث على التشاؤم .

ولكن هذا النزوع الى ما هو أفضل ، مكتوما كان أو صاخبا ، يفضى في الحين بعد الحين الى رجات عنيفة تخشى عاقبتها في زلزلة التوازن اللازم لسلامة الجسم الاجتماعى وصحته ، ان لم تستتب له الحال — حال الاستقرار — التي تتيح أن ينقلب النزوع نشاطا مفرغا في صور وأعمال يرجى لها أن تثمر .

فالنشاط الزاخر في نطاق الاستقرار شيء يطلب . اما أن يكون الاستقرار والجمود وجهين لشيء واحد ، فسييل الى علة في الجسم الاجتماعى ، كعلة تصلب الشرايين في الجسم الحى .

فالتبعة الأولى التي تقع على كواهل الساسة والحكام ، هي أن يهيئوا الاستقرار الذى يزخر فى ظله النشاط الاجتماعى الصالح من أى لون كان ، ثم أن يوجهوا بمعونة أهل القلم والصحافة والتربية هذا النشاط بالارشاد والدراسة والمعاونة وأن يحشوا عليه وأن يشاركوا فيما لا غنى لهم عن المشاركة فيه ، وهى تبعة خطيرة حيال هذا الجيل والأجيال التى تليه ، فهم معقد الأمل ، وعسى أن يقبلوا هذا التحدى فى سبيل الوطن والخير العام .

حكم القوة ومنطق النفع

تواجه الأمم الغربية اليوم مشكلتين خطيرتين، أحدهما المشكلة الاقتصادية التي يعد حلها على وجه مرض ، أساسا لنجاح سياستها الخارجية ، حيال الكتلة الشرقية لأنه اذا تداعت أركان الثقة وطغت النزعة القومية في علاج المسائل الاقتصادية ، فيغلب على الرأي أن ينكمش مقدار التجارة بين الدول الغربية ، فيظل العسر برأسه ، وتلك هي فرصة يترقبها الشيوعيون ، ليجددوا مساعيهم ، التي ردها على أعقابها بعض الشيء ، طلائع رخاء جاءت في أثر مشروع مارشال .

وأما المشكلة الثانية ، فهي مشكلة الموقف الذي ينبغي أن تتخذه هذه الدول حيال الشيوعية في الشرق الأقصى . فقد أخفقت سياسة الولايات المتحدة التي كانت قائمة على مظاهرة الوطنيين فغلبهم الشيوعيون الصينيون على أمرهم . وليس ثمة ريب في أن الوطنيين لا يزال فيهم رمق من حياة وقوة ، وأن الشيوعيين يعانون مشكلات ظفرهم السريع ، ولكن الدلائل تدل على أن كفة الشيوعيين أرجح . وقد كان هناك أمل يخالج الأمريكيين ، في أن يكون « ماوتسى تنغ » وأتباعه أميل الى الاستقلال عن موسكو والى الاقتصاد على الإصلاح الزراعى ، وأن تقصرهم مشكلات التعمير والانشاء في الصين على طلب معونة الدول الغربية ، فيخفف ذلك من غلواء شيوعيتهم ، ولكن « ماوتسى تنغ » خيب أمل الذين كانوا يتعلقون بأهداب هذا الأمل . فصار لابد للدول الغربية من سياسة تحد من توسع الشيوعيين في الصين وما يلي حدودها الجنوبية في

المنطقة المعروفة بجنوب آسيا الشرقى الى الهند ، فان لم يفعلوا ،
فالعاقبة على الدول الغربية من ناحية الصراع العالمى تدعو الى القلق .
والشرق الأوسط ، يحتل فى هاتين المشكلتين اللتين تواجهان
الدول الغربية ، مكانا خاصا .

أما المشكلة الاقتصادية ، فقد تبتكر لها حلول قصيرة الأجل ،
أو متوسطته كخفض قيمة الجنيه أو مبادرة أمريكا الى شراء خامات
حربية بالدولار من منطقة الاسترلىنى أو غير ذلك ، ولكن من
الواضح أن حلها الأساسى على المدى البعيد هو تمهيد الأسباب
لزيادة مقدار التجارة العالمية ، ونمو المناطق الغنية فى مواردها
والتي لم تبلغ مبلغا كبيرا من التقدم الاقتصادى حتى تزداد قدرتها
على الاستيراد والاصدار . وليس ثمة ريب فى أن منطقة
الشرق الأوسط هى احدى المناطق العالمية التى تدخل فى هذا الباب .
وأما مشكلة الشرق الأقصى واتساع نفوذ الشيوعيين فيها
فتجعل لمنطقة الشرق الأوسط ، منزلة حربية لا تدانى فى كل صراع
عالمى نرجو أن لا ينشب ولكن لا بد أن يدخل نشوبه فى كل حساب .
فاذا قضى الأمر وكان لا مفر من الصدام فالغالب أن تبني الدول
الغربية حسابها بعد الذى حدث فى الصين ، على جعل الغرب ميدان
الحسم ، وهذا يجعل للشرق الأوسط منزلة خاصة فى الميزان الدولى
الجديد .

واذن فالمشكلتان جميعا تفرضان على الدول الغربية أن تتوسل
بكل وسيلة الى الظفر بصدقة الشعوب التى تقطن هذه الرقعة
التاريخية وما يحف بها من تركيا شمالا الى باكستان والهند شرقا
فى جنوب . وهى لن تظفر بها ان لم تقم لهذه الشعوب الدليل

القوى على رغبتها الصادقة في هذا التعاون ، بأن تفرض الحل الذى يرتضيه العرب في مشكلات منطقة القدس واللاجئين وحدود اسرائيل ، وبأن تجعل جميع المشروعات المقترحة لتنمية موارد الشرق الأوسط خالصة من كل اثاره لفكرة الأثرة والتحكم القديمة ، وتقيمها على مبدأ التعاون الصحيح والنفع المتبادل الذى لا تشوبه شائبة •

ان شعوب هذه الرقعة قد خابت أملا فيما التمسته من اعتبارات الحق والعدل والتاريخ في حل قضية فلسطين فينبغى لها اليوم أن تتأزر على ابراز ما يطويه الشرق الأوسط من عوامل القوة والنفع ، في صلتها بالدول الغربية فلعلها تكون أرجح في الميزان •

قطيعة ضد الطبيعة

المنتج والمستهلك وحدة تقيمها المصلحة والحقيقة الواقعة قبل أن يقيما القانون ، فالمنتج يحتاج الى سوق يبيع فيها ما ينتجه ، ليستورد بثمن ما يبيع الأشياء التى يحتاج اليها ولا يستطيع أن ينتجها • والمستهلك يحتاج الى موارد يستطيع أن يشتري منها ما يحتاج اليه ، فان لم يكن يملك موارد يصدرها ، وجب عليه أن يصدر خدماته ، كخدمات الاصطياف والاشتاء في لبنان وسويسرا ، وخدمات استقبال السياح في مصر وايطاليا وفرنسا ، وخدمات الصيرفي والتاجر الذى يستورد البضائع لبيعها ويكسب من بيعها شيئا يستطيع أن يشتري به ما يحتاج اليه •

فاذا كان المنتج والمستهلك في أرض واحدة ، وان كان بين جزئها حدود سياسية ، فالوحدة الاقتصادية بينهما قائمة ، بقانون

أو بغير قانون ، لأن المصلحة والحقيقة تقيمانها • فخير للمنتج أن يبيع جاره المستهلك ، وخير للمستهلك أن يشتري من جاره المنتج ، لأن تفقات النقل في هذه الحالة تكون أقل ما تكون ، وبذلك يظل سعر السلعة عند المستهلك أقل ما يكون ، وتظل الثقة بتصريفه السلعة عند المنتج أعظم ما تكون ، فتتم المصلحة والفائدة من الناحيتين •

وهذا هو وضع سوريا ولبنان في أصوله الاقتصادية • سوريا تزرع القمح وتربي الأنعام وتنتج الألبان وما يصنع منها ، ولبنان يحتاج الى مقادير كبيرة من القمح والأنعام والألبان لتقييم أوده • فان لم تبع سوريا في لبنان ما تنتجه في هذه الأبواب ، وجب أن تبيعه لغيره ، وان لم يشتري لبنان ما يحتاج اليه من هذه المنتجات من سوريا ، فلا غنى له عن أن يشتريها من غيرها • وفي الحالين خسارة على سوريا ولبنان جميعا • ذلك بأن سوريا تضطر أن تدخل في حسابها جميع مسائل التعبئة والنقل ، في البر أو البحر أو كليهما ، فيزداد ثمن سلعتها التي تريد أن تصدرها الى غير لبنان ، وقد تصبح بعد هذه الزيادة غير قادرة على منافسة مثيلاتها في الأسواق العالمية • ولبنان اذا اشترى من غير سوريا ، وجب عليه أن يدخل في حسابها ، أنه اذا تساوى ثمن القمح مثلا في سوريا وكندا ، فعليه أن يدفع اضافة الى الثمن الأصلي فرق أجور النقل من كندا والتأمين على الشحن ، وأن يضيف الى ذلك وجوب التوفية بالقطع النادر وهو ليس بالشئ الذي لا يحسب له حساب •

وقد كان اللبناني منذ عهد الفينيقيين تاجرا ، في المقام الأول ، في العرف الاقتصادي ، لأن أرضه الجبلية قلما تنتج ما يكفيه ،

فهو يستورد السلع ويبيعها فيكسب منها ما يمكنه من أن يتناع ما يحتاج اليه من القمح واللبن والجبن واللحم • وأرضه تصلح للاصطياف ، وللإشتاء أيضا في حدود ضيقة ، فهو يصدر خدمات الاصطياف والإشتاء ، ويضيف ما يصيبه منها الى ما يكسبه من عمله كتاجر مستورد ليشتري به ما يحتاج اليه • ومن الخير له أن يشتري من سوريا ما تستطيع سوريا أن تصدره ، ومن الخير لسوريا أن تبيعه ما تستطيع أن تصدره • فان لم يفعل فربما أرهقه استيراد ما يحتاج اليه من الخارج ، وان لم تفعل سوريا فربما بارت سلعها ، أو تعقدت الوسائل التي تمهد لها المنافسة في الأسواق العالمية • بل من هذه المنتجات ما لا يسهل بيعه في الأسواق العالمية لأنه قد يكون مما يسرع اليه الفساد •

فاذا وضحت هذه الحقيقة الأصلية في اقتصاد البلدين ، وجب أن يهون الاتفاق على كل تفصيل من شأنه أن ينظم هذه العلاقة • بيد أن المسألة ليست اقتصادية وكفى ، بل لها ناحيتها السياسية التي لا يجوز أن تغيب عن الأذهان • كيف تستطيع الدول العربية أن تجمع شملها السياسي ، في حين أن شملها الاقتصادي شتيت ؟ والقوة الاقتصادية في الدول العربية لا تزال بكرا على الأكثر ، وليس في الوسع تنميتها وتعزيزها ، ان مال الرأي الى تنمية اقتصاد كل دولة على حدة وبمعزل عن اقتصاد كل دولة أخرى • فالتفكير ينبغي أن ينصرف الى تنمية اقتصاد الدول العربية ، على أنها رقعة واحدة ، يكمل بعضها البعض الآخر ، في الإنتاج والاستهلاك ، فتتوثق الأواصر بتوثق المصالح ، وتغز جميعها يدا في ميداني السياسة والاقتصاد العالميين • وكيف تأمل الرقعة العربية أن تواجه

مشكلات اليوم الجديد ، واسرائيل تبذل ما تبذل لتكون مركز الصناعة والتوزيع في الشرق الأوسط ، ان لم يكن اقتصاد الرقعة العربية متكاملا ؟ أليس من التخلف عن اتجاه العصر ، أن نجد دول أوروبا الغربية ، تسعى الى ضرب من التنسيق الاقتصادي لتغلب على مشكلاتها ، وبينها ما بينها من فوارق التاريخ واللغة والثقافة والمنافسة ، على حين نرى بعض الدول العربية يميل الى القطيعة مع ما بينها من وشائج التاريخ واللغة والتكامل الاقتصادي الطبيعي ؟

وليس في الدنيا دولة تستطيع أن تستكفي مهما تكثر مواردها وتترامى رقعتها وتتسع أسواقها • وهذا على الدول الصغيرة أصدق •

هذا هو قضاء العقل والمنطق ، بل هو قضاء الطبيعة ، وما جمعتها الطبيعة حرام أن يفرقه انسان •

منابع الإلهام

جاء على زمن ظننت فيه أن العلم أسلوبا وثمرا ، هو الحقيقة الأصيلة في العمران الحديث ، التي ينبغي أن يتعلق بها رجاء الانسان • فالارتفاع به يقلل الكدح ، ويهون أسباب العيش ، فيفضي على طول الزمن ، الى رفع مستوى الحياة بين الناس ، والى زيادة ساعات الفراغ ، فينفقها الناس في مطالب العقل والروح العليا ، وأسلوبه هو الأسلوب الذي يتوخى الحقيقة في ميدان التجربة • فالعلماء — الذين يصدق عليهم وصف العلماء — هم أهل صدق وإخلاص وإخاء ، وهم لا يقعد بها اخفاق ، ولا يقل

من حديدها أن لا يظهر صاحبها بالشهرة وذيوع الصيت ...
فخلق العلماء هو صفوة الفضائل في الحياة . ثم ان العلم لا يعترف
بحدود قائمة بين أهل دولة ودولة ، ولا بين أهل جنس وجنس ،
ولا بين أهل مذهب ومذهب ، فالكينا تنفع المصاب بالمalaria سواء
أكان زنجيا أم أبيض ، ومسيحيا أم مسلما ، وشيوعيا أم رأسماليا ،
والقنبلة الذرية تقضى عليهم ولا تستثنى .

ولكننى لم ألبث حتى تبينت أمرين . أما الأول فهو أن كل
تحول أصيل في حياة الاجتماع البشرى ، يحتاج الى قوة دافعة
تتصل بغريزة الحياة وحفظ الكيان وتؤثر في ملكات النفس —
التي تحركها الارادة بعض الشيء ، ولكنها تتحرك بغير الارادة
على الأكثر . والعلم كما درجنا على فهمه في العصر الحديث ، شيء
جديد طارئ على العقل ، فقوته النفسية الدافعة قليلة . ولا سيما
في نفوس الجماهير ...

وأما الثاني ، فهو أن المشكلة التي تعانيها الحضارة في عهدنا
هذا ليست قلة القوة التي بين أيدينا ، بل كيف ننتفع بها ، وما هو
غرض الارتفاع . ان المشكلة ليست مشكلة علمية وحسب ،
أو صناعية وكفى ، بل هي مشكلة خلقية تتصل بقيم الأشياء .
وقد أفرغها صديق لى في كلمة مختصرة عن حياته هو ، قال :
تخرجت مهندسا ، ولكننى ما لبثت أن تبينت أن مشكلة العالم
ليست مشكلة معرفة ، بل هي مشكلة قيمة المعرفة من الناحية
الخلقية . فانصرف صاحبي من عمل في ميدان الهندسة كان يبشر
بمستقبل باهر وكسب جزيل ، وعاد الى الدراسة يتوفر على
الفلسفة والأخلاق . وهذا الرجل الآن رئيس معهد للتربية ، وهو

في رأيي من أحسن رؤساء المعاهد تأهبا لعمله ، وأعظمهم توفيقا فيه • وتفسير ذلك واضح • ان بين القوة العظيمة التي أبدعها العلم ، وتقصير الحكمة البشرية في تثقيف نوازع الناس المتأصلة في فطرتهم ، هوة كالهواية ، هي سر الخطر الذي يحيق بالحضارة • فاذا أفلست الحكمة البشرية وعجزت عن النهوض بعبء التثقيف كما ينبغي أن يكون ، أفلتت القوى الهائلة التي وضعت مقاليدها في أيدي الناس ، فيحقق عليهم القول ، فتدمرهم تدميرا •

فالعلم الذي صهر في بوتقة الحرب يجوز مرحلة انقلاب خطيرة ، ويتصل بأعمق جذور الحياة ، ونحن في بلاد الشرق العربي نعاني أثر هذا الانقلاب كما تعانيه سائر بلاد الناس ، على تفاوت بيننا وبينها • • • ولكننا نعاني في الوقت نفسه ، مشكلة خاصة بنا ، وان كانت جزءا من مشكلة الانسانية العامة • • •

اننا نرى بأعيننا بعثا عربيا يمتد من شمال سورية الى خليج ايران ، ومن سواحل البحر المتوسط الشرقية الى أعالي النيل وما وراء الفرات • فأمورنا بأيدينا اليوم ، أو تكاد تكون ، أو ستصير حتما بعد زمن قصير ، فماذا ننوي أن نصنع بهذه الفرصة التي لم تسنح لنا فرصة مثلها منذ قرون كثيرة ؟ أنرخي العنان للأمور تنطلق بنا كالجواد الجامح ، فلا نفيق الا ونحن على جرف الهاوية ، واذا فعلنا فماذا نقول حين تأتي ساعة الحساب • • ؟ أيقبل أحد في الدنيا أو في التاريخ من بعد ، عذر من يعتذر بأنه لم يعلم أو أنه لم يبال • • ؟ وما هو الغرض الذي نريد أن نسير اليه ، وما هي القوة الدافعة التي ينبغي أن تتذرع بها ، لنقوى على مشاق السير الطويل في هذا الطريق الوعر • • •

هذه أسئلة تتردد أصدائها في جنبات النفوس ، وهي تنزل في الصميم من حياتنا كل يوم ، ولست أزعم أن عندي جوابا شافيا عنها جميعا أو عن أحدها ، ولكن بعض الجواب وان يكن خاطئا خير من عدم الجواب ، فالحياة لن تتجمد وان تتجمد فكر بعض الناس ..

فأول خطيئة ينبغي لنا أن نتجنبها ونحن في هذا المخاض القومي ، هي خطيئة الاستهتار وعدم المبالاة . ان في الدول العربية جميعا عشرات الألوف من الشباب لا نستطيع أن نتهمهم بهذه الخطيئة . ولكنهم في حيرة من أمرهم ، يسألون صباح مساء ماذا نستطيع أن نفعل ، لكي نرتفع الى مستوى الأمجاد التاريخية ، التي أشرقت على الدنيا من أرجاء هذه الأرض ... ؟

أما ما نستطيع أن نفعله فهو أولا في نظري ، أن نؤمن ايمانا صادقا بقدرتنا على أن نفعل ، والايمان بقدرة المرء ، تنزل على بعضهم نعمة من نعم الله ، ولكنها في الأغلب الأعم تربية ومرونة . فنحن نعلم أن المصريين والفينيقيين والأشوريين والبابليين منذ ألوف السنين ، شقوا الضباب الذي كان يغشى آفاق المعرفة في فجر الفكر الانساني ، ونحن نعلم أيضا أن العرب منذ ألف سنة حفظوا بما فطروا عليه من الشوق الى المعرفة جملة صالحة من تراث الفكر الانساني ، وأضافوا اليه وأبدعوا فيه ، ثم نقل بعض ما صنعوه الى الغرب ، فكان بعض النواة التي تملكت فيها حياة النهضة الأوروبية . فلماذا لا ندرس هذا التاريخ ، لا على أنه جزء من التاريخ العام وحسب ، بل أيضا على أنه جزء من التيار الجارى في عروقتنا ، وعلى أنه قوة تحرك نفوس الشباب الى الايمان بقدرتهم .

فأنا أعلم مثلاً أن ما أثر عن ابن الهيثم في علم الضوء ، لا يصلح أساساً لدراسة علم الضوء المفصلة في العصر الحديث • ولكنني أعلم أيضاً أنني حين أقرأ ما صنعه ابن الهيثم منذ ألف سنة ، بغير أدوات البحث التي توافرت توافراً مطرداً على الزمن لمن أتى بعده من العلماء ، وحين أعلم أن ما صنعه كان له أثر غير يسير في بحوث كبلر وكوبرنيكوس وغيرهما من بناء العوالم ، وطلائع العصر الجديد ، أشعر أولاً بشيء كثير من الفخر ، وثانياً بغبطة عظيمة أننا تقدمنا الى هيكल العلم العام مع سائر الشعوب وفي أيدينا حجارة وضعناها في أساسه ، وثالثاً بأن ما كان يدخل في طوق ابن الهيثم وعشرات غيره منذ ألف سنة يدخل في طوقنا نحن الآن — في بيروت ، والقاهرة ، ودمشق وبغداد ، وفي كل بلد عربي ، تتاح فيه فرصة لكل عقل أن يكشف عما فيه من خير •••

فهذا الايمان بأننا نستطيع ، هو الذي ينبغي أن يكون حجر الزاوية في منهج كل معهد من معاهد التعليم ، وكل وسيلة من وسائل التربية العامة ، من صحافة وإذاعة ومحاضرة • وقد نختلف ألف مرة كل يوم على عشرات من مسائل الحكم ، وقد نكتب ملايين من الألفاظ في التأييد والمعارضة ، فيزول ذلك كله على الأيام ، ولا يبقى الا ما نعمله من عمل نافع يزكى في نفوس الشباب ايمانهم الصادق بأنهم يستطيعون كل شيء ، اذا اجتمعت لهم أسباب المعرفة وفضائل الهمة والمثابرة وأعظمهن العزيمة •••

بيد أن استلهام التاريخ لهذا الغرض لا يعنى أنه ينبغي لنا أن ننحصر في نطاق هذا التاريخ • فكل حضارة ركبت وانحطت ، يوم انعزلت عن سائر الدنيا وقنعت بأن ترى تيارات الحياة الزاخرة

تمر بها دون أن تعباً بها • ولا يسعنا أيضاً أن نعالج المشكلات
 بالارجاء والمساومة مع الحق ، بل ينبغي لنا أن نأخذ وأن نعطي ،
 وأن نتذرع بالفكر السديد والعلم الواسع والهمة العالية ووحدة
 القصد في علاج المشكلات • وليس لنا من سبيل الى ذلك كله ،
 الا أن نتخذ من استلهام تاريخنا كله حافزاً للإيمان بالنفس ومورياً
 لنار العزيمة ، ومن استشراف العالم كله وما عند العالم من ثمار
 العلم والتجربة سلاحاً ماضياً للعمل • فهذان هما جوهر الشخصية
 التي نريد أن نصوغها ، لكي تتواءم من ناحية مع فطرتنا وتاريخنا
 وخاصة أمورنا ، ولكي تتواءم من ناحية أخرى مع سائر العالم
 السائر قدماً الى أمام • وهذا الغرض العظيم تصغر في جنبه جميع
 الأغراض الأخرى • وينبغي أن يظل أمامنا كالمنازة نهتدى بنورها •
 منذ عهد قريب كنت أقلب أوراقاً طال عليها القدم في أحد
 أدراجي ، فوقعت عيني على صورتين تمثلان غرق الباخرة
 « تيتانيك » عروس البحار في يومها • أما الصورة الأولى فتمثل
 الباخرة ، وقد شققها جبل الجليد ، فمالت الى الغرق وأخذت اللجة
 تحتويها • وقد كتبت تحت الصورة « ضعف الانسان — قوة
 الطبيعة » • وأما الأخرى فتمثل قارباً تدلى على جنب الباخرة
 الغارقة ، وأمام القارب المزدحم بالركاب رجل يهم بالنزول ليجلس
 في آخر مكان فيه لينجو مع الناجين ، ثم تراه وقد ارتد ليخلى
 المكان الأخير في القارب لسيدة وراءه تحمل طفلاً بين يديها ، وهو
 يعلم أنه شارب كأس الموت لا محالة • وقد كتبت تحت الصورة
 « ضعف الطبيعة — قوة الانسان » • فهذا مثل صغير يضرب
 للناس على القوة العظيمة في قلب الانسان ان هو أحسن استعمالها •

وقد زعم علماء الطاقة الذرية ورجال الحرب أن العقل البشرى لا يدرك اليوم ولا فى المستقبل القريب وسيلة حرية أو علمية لدرء خطر القنبلة الذرية • واذن فينبغى للناس أن يلتمسوا الدفاع فى غير الوسائل العلمية والفنية — فى ميدان السياسة — أو قل وأنت أصدق قولاً فى ميدان التربية • فعلى الناس أن يتعلموا أن يفهم بعضهم بعضاً ، وأن يحسن بعضهم معاشرة بعض وأن يستأصلوا من بيئاتهم تلك البواعث التى تمهد للحرب : « الجهل والفاقة والمرض » ، وأن يشنوا عليها حرباً لا هوادة فيها فهذه حرب كما قالها جلالة الملك فاروق — يجب أن تشن ، وهى أنبل الحروب وأنفعها وأعظمها شأنًا

أيها الشباب — هذا تاريخكم من ورائكم فاستلهموه • وهذه ينابيع علم العالم من أمامكم فأنهلوا منها ، ثم اجمعوا بعقريه عقولكم وقلوبكم بين القوتين ، وسيروا فى طليعة جيل جديد ، يقول للناس •• « هذه قوة الطبيعة قد خضعت لقوة الانسان فى سبيل الخير العام » •••

فرصة الجامعة

تتجه أنظار العرب اليوم الى الاسكندرية ، حيث يجتمع مجلس الجامعة العربية • وقد جاءت فترة ، منذ شهور ، خيل فيها الى بعض الناس ، أن الجامعة العربية قد ذهبت مع الريح ، وأن الهوى وتقديم المصلحة الخاصة ، قد غلبا على التيارات العميقة فى حياة الأمم العربية ، التى أفضت الى قيام الجامعة وتوقيع دستورها فى سنة ١٩٤٥ ، ولكن الذين نظروا الى نهضة العرب منذ أوائل القرن

الماضى ، أدركوا أنها ترجع الى قوى تاريخية تضافرت على خلقها ،
فهى ليست كالوردة عمرها يوم وكفى • ففى نفوس العرب ذكرى
دولة عريضة امتدت فى أوجها من قلب آسيا الى جبال البرانس ،
وذكرى ثقافة عالمية اعترف لها العلماء بأنها حملت مشعال الثقافة
القديمة زمنا طويلا حتى استضاء به الاحياء الأوربي ، وأن القرن
التاسع عشر شهد بوادر اليقظة السياسية العربية استجابة للأفكار
السياسية الحرة فى الغرب ، واستنكارا للاستعمار الغربى ، وتطلعا
الى الاستقلال والحكم الديمقراطى ، وقد جارى اليقظة السياسية
انبعاث فكرى فى التعليم والصحافة والأدب والعلم والتأليف
والنشر ، فاجتمعت ثلاث قوى هى التى تحرك الشعوب ، لأنها تنبع
من أغوار النفوس وأعماق التاريخ فكل من ظن ، هنا أو هناك ،
أن عارضا ما خليق بأن يعصف بفكرة الجامعة ، قد أخطأ الظن •
وقد يستبد بك الشك فى قدرة الجامعة على معالجة المشكلات
التي تصدت لعلاجها فى مستهل حياتها ، ولكن لن يسع أحدا أن
يشك فى ضرورتها دون أن يشك فى الأمة العربية ومنطق نهضتها •
ونحن لا نكاد نرتاب فى أن أقطاب الأمم العربية قد استخرجوا العبرة
مما كان، ولم يغفلوا النظرة الى التاريخ الذى جعل الجامعة ضرورة
لا غنى عنها ، أو الى المستقبل الذى يتحدى الغزيمة بما يطويه من
مخاوف كالحلة وفرص لا عداد لها للعمل النافع ، فى آن واحد •
فان كانوا قد فعلوا ، فليس ثمة ريب فى قدرتهم على أن يرتفعوا
فوق أسباب الضعف والفرقة ، فيروها ضئيلة اذا قيست بأسباب
القوة وجدوى الاتحاد ، ويومئذ يوطنون النفس على تغليب قوتهم
على ضعفهم • قال ابن حزم : كل مصيبة تصيننى فى مدرسة الدهر،

ان لم تقتلنى فهمى لى قوة جديدة •

وعناصر القوة بين أيديهم ، عشرات الملايين من الناس فى نفوسهم طيوف من الماضى المجيد وآمال تسبح فى آفاق مستقبل أمجد ، وفى عقولهم ذكاء ومضاء شقا الحجب عن المعرفة الانسانية فى مهدها ، وبنيأ أركان الحضارات الأولى ، وملايين من الأميال المربعة من أرض غنية بموارد الزراعة والصناعة ، وموقع جغرافى لا يكاد يدانيه موقع رقعة أخرى فى العالم كله اليوم •

وقد تتباين الآراء فى خير الوسائل للنهوض باقتصاد الشرق العربى ، ولكنها مجتمعة على أننا نملك مادة النهوض ، وأن الحاجة اليوم ، فى هذا الميدان ، انما هى الى صقل المواهب وتدريبها ، واستكشاف الموارد تمهيدا لتنميتها ، وأن كل معونة ترام سواء كانت فنية أو مالية لا جناح فى طلبها ولا غضاضة ، على أن تكون منزهة عن شوائب التدخل السياسى •

ومنذ عهد قريب نقلت الينا أنباء عن مناقشة مجلس الاقتصاد والاجتماع فى المشروعات المقترحة لتنفيذ خطة المعونة الفنية التى يطلبها أعضاء الأمم المتحدة عن طريق الهيئات الخاصة ، وأخرى عن مناقشة الكونجرس الأمريكى فى مبلغ ٤٥ مليوناً من الدولارات طلبها ترومان لتيسير المعونة الفنية للدول التى ترغب فيها وفقاً لبرنامج النقطة الرابعة • أفقبل الدول العربية هذا الضرب من المعونة أم تضرب عنه صفحا ؟ واذا رأت أن تقبله أقبله فرادى ، أم تقدم فى قبوله مصلحة الجماعة أو المنطقة ، وهو أجدى ؟

ولا يقتصر الأمر على هذا ، فاققتصاد الدول العربية مكمل يعضه بعضا فى طائفة من نواحيه ، فكيف السبيل الى تعزيز هذا

التكامل ؟ وهو اقتصاد سوف يتعرض في مجمله لخطر حقيقى من قبل اسرائيل ، فهمى لن تستطيع البقاء اعتمادا على الهبات ، ولا هى تملك خامات الصناعة الثقيلة ، فيغلب أن تعتمد الى انشاء صناعات تنافس صناعاتنا وأن تتوسل بكل حيلة لغزو أسواقنا ، فما هى الوسيلة المجدية لاحباط هذه المحاولة ؟

وليس فى العالم العربى ، من لا يرى أن الاجتماع السليم هو التربة التى ينبت فيها التقدم وتترعرع القوة • وسلامة المجتمع تستمد من صحة الناس وحسن تربيتهم ورضاهم عن أحوال عملهم وجدواهم ، ومن ايمانهم بالمعاني الخلقية التى ينبغى أن يكون لها المقام الأول فى حياة الأمة ، أفلا يصح أن تكون الجامعة العربية مقرا لدراسة هذه المشكلات دراسة وافية ، ووسيلة لتنسيق العمل على علاجها فيما بين الدول العربية أولا ثم فيما بينها وبين الهيئات الدولية التى تستطيع أن تنتفع بعلمها وتجربتها ، وأداة للتربية الشعبية بكل وسيلة عرفت وجربت من وسائل تلك التربية ؟

ثم ان الشرق الأوسط فى جملته ، عربيا وغير عربى ، صار له اليوم من المنزلة فى ميزان القوة العالمية وميزان الاقتصاد العالمى ، ما يفرض على حكوماته جميعا أن تلم قوتها المتفرقة وتنسق خططها ، ولا تكنفى بتعاون تعتمد اليه فى الحين بعد الحين ، يوم تجتمع الجمعية العمومية للأمم المتحدة أو تهتم بالاجتماع •

هذه طائفة وحسب من المهام الخطيرة التى ينبغى أن تعيرها الجامعة قسطا وافرا من اهتمامها وأن تعد نفسها لتكون أداة صالحة للنهوض بها • وليس ثمة ريب فى أن شئون السياسة العربية وتنسيقها ستظل ، وينبغى أن تظل ، فى الطليعة بين مهامها • ولكن

كل ظفر ناله في ميادين النمو الاقتصادي والاجتماعي والتنسيق الاقليمي ، يجعل كلمتنا وكلمتها أقوى وأعلى ، فهذه لغة العصر • وسوف تتاح الفرصة للجامعة في الأيام المقبلة ، أن تكتب صفحة جديدة • والأمم العربية تريد أقطابها أن يتوسلوا بالشجاعة وبالصرامة مهما تكن مؤلمة • فليقل كل ما في نفسه لوجه الله وخير العرب ، وليكن ما يقولونه بين أربعة جدران ، فالأمم العربية لا يهمها أن تعرف ما يقال ، ولكن يهمها أن ترى النفوس وقد صفت ، والعزائم وقد عقدت ، والعمل وقد بدأ • وهو عمل ينبغي أن يتصل على الأيام ، بعد أن ينفذ الاجتماع ويعود الأقطاب الى حمل أعبائهم الكثيرة ، وحسب العاملين فخرا ورضى ، انهم يلمسون بأيديهم الحجارة التي توضع في أساس صرح قد لا يكمل بناؤه في عشرين سنة أو خمسين ، بل لن يكمل له بناء ما دام في النفس شوق الى ما هو خير وأفضل •

نعيش في واجهة

لسنا ندري أيهما أوقع في نفس المرء أو نفس الأمة ، أو أيهما أشد حفزا للهمة ودفعاً للعمل : أهو الخوف أم هو الأمل ؟ أما الخوف فيستحث غريزة الدفاع عن النفس ، وإذا الغدد تفرز في دم الرجل مادة تنشط القلب والعضل فتراه والخطر يحرق به قد صار أسرع تفكيراً وأشد مراساً ، وإذا الصفوف في الأمة ، أو الأمم في الجماعة ، قد تدانت آراؤها واتحد عزمها فتصير التضحية عندها في سبيل الدفاع عن الكيان أيسر وأحلى • وأما الأمل فيستحث الركب — ركب الرجل وركب الأمة — الى الغايات

البعيدة وقد يكون أبطأ أثراً في النفس ، ولكن تتيجه على الزمن
أبقى وأجدى في أغلب الحين • والخوف اذا استحثك الى عمل
فقد يمكنك من أن تتفادى خطراً أو أن تكون لك الغلبة على
خصم وأما الأمل اذا استحثك الى غاية بعيدة نافعة ومضيت فأنت
في عداد المنشئين لنفسك وللآجيال التي تلي •

واذا اجتمع الخوف والأمل معا فقد اجتمعت — للفرد أو للأمة
أو للجماعة من الأمم — القوتان اللتان تحركان النفس وتدفعان
الى العمل •

وهاتان القوتان تفعلان منذ حين فعلهما في الجماعة الغربية من
الدول • أما الخوف فهو الخوف من قوة الكتلة الشيوعية ،
وأما الأمل فهو الأمل المعقود على حشد موارد الجماعة وتوحيدها
حتى تصير بما تبنيه من قوة للدفاع وما ترفعه من مستوى للعيش
وما توثقه من صلات الفكر والثقافة ، ركننا لصرح لم تزل تشيده
الآمال وتهدمه المطامع — صرح عالم يسوده السلام والرخاء ،
فقد قضى العلم وقضت الصناعة بأنه عالم لا يتجزأ فيه الرخاء
ولا يتجزأ السلام •

ففي شعور الخوف وسورة الأمل نبت ميثاق الوحدة الغربية
ومشروع مارشال وميثاق الدفاع الأطلسي ومجلس أوروبا وفي كل
من هذه الهيئات دلائل تدل على وقع الخوف من السوفيت وخطتهم
في نفوس الجماعة الأوروبية من الدول ، فهي تتكثل لتدفع مجتمعة
ملا قبل لها بدفعه فرادى • وفي كل منها أيضاً دلائل على أنها أنشأت
ما أنشأت يحدوها أمل لم يزل يتردد على ألسنة الشعراء وأهل
الفكر والسياسة منذ عهد دانتى في القرن الرابع عشر عسى أن

تمحى أسباب الخصام والنزاع فتسترد أوروبا الغربية عافيتها وقوتها بالوحدة ، وتقيم عليها الفكر الانسانى الذى أبدع فى العصور الماضية ما أبدع فى الأدب والعلم والفلسفة ، وتجعله مرشدا للقوة المتجددة يدفعها نحو غاياته البعيدة •

ولسنا ندرى ان كان الخوف له من المنزلة فى تحريك نفوس الشعوب العربية كمثل منزلته فى تحريك نفوس الشعوب الغربية ، فان لم يكن فمن الواجب أن تثيره مطامع الصهيونيين ومساعى الشيوعيين وأثر الفاقة المر فى النفوس ، ولكن أثره يظل أثرا سلبيا حتى ينضم اليه الأمل محركا ودافعا الى العمل المنشئ • فنحن نسعى فى ثلاثة ميادين واسعة لتحقيق الآمال والمنى التى تعلق بها اليقظة العربية منذ أواخر القرن الماضى • أما الميدان الأول فهو الظفر بالاستقلال والقيام بما يقتضيه من تبعات الحكم الدستورى والتقدم الاقتصادى والاجتماعى • وأما الثانى فتوثيق ما بيننا حتى نصير يدا واحدة فنظفر فى مجالس الدول بمكانة تنفق وما لنا من مكانة فى تاريخ البشر على الأرض من ناحية وفى ميزان القوى العالمية اليوم من جهة أخرى • وأما الثالث فأن نشارك مشاركة الحر للحر والند للند جميع الدول التى تسعى الى توطيد أركان السلام والرخاء فى ظل الأمم المتحدة •

ولن يتحقق لنا أمل فى الميدان الثالث ان لم نبني بناء راسيا فى الميدانين الأولين • فالعالم — كما قال لنا مصرى كبير فى الأمم المتحدة — « يعيش فى واجهة » ولا يغنى عن الحقيقة قول مهما يكن بليغا ففى وسع من أراد أن يستقصى من فوره حقيقة كل قول ، واذن فالبناء فى داخل كل أمة عربية وفى منطقة الأمم العربية

جميعا هو التبعة الأولى التى يملئها الخوف والأمل جميعا وان كان الاهتمام بها لا يعنى قط اهمال الصلات العالمية وتوثيقها • والبناء الداخلى عناصره بين أيدينا وطوع ارادتنا — ان أردنا • أرض واسعة فيها خيرات كثيرة جلها لا يزال مستكنا لم يفض ختمه ، وشعوب ذوات ذكاء أثبتت فى غابر التاريخ وحاضره أنها تستطيع بالفكر والمرانة والهمة ، أن تكون أمما تحسن البناء، وأواصر طبيعية واجتماعية تجمع فيما بيننا على وجه قل أن يتوافر لجماعة أخرى من الناس • فالحاجة الأولى اليوم انما هى الى خطة تنسق جميع هذه المزايا وتسير بنا الى هذه الغاية ، والى صوت مدو صادر من الأعماق يوقظ النفوس ويحفز الهمم الى العمل النافع والى شجاعة ينبوعها الثقة بالنفس ، لا يثنيها ثان عن التوسل بكل وسيلة عربية أو غربية من شأنها أن تخرج ذخائر النفوس وخيرات الأرض وتبنى على التقدم الاقتصادى والاجتماعى شعورا بالقوة والعزة والولاء — فقد قيل فى جدوى مشروع مارشال انه ساعد على انشاء حالة يهم كل وطنى أوربى أن يحمى حماها •

ان العالم يرقب اليوم كتلة الدول الغربية ليرى ، أتنوى حقا أن تتوسل بالخوف والأمل لتسدل ستارا على أسباب الفارقة القديمة والنزاع التاريخى بينها ؟ وهو يرقب أيضا كتلة الدول العربية ليرى أتنوى حقا أن تبنى على مبادئ حضارتها القديمة وآمال نهضتها الحديثة أمما سليمة البنيان موثقة الأواصر ؟

ان نجاحنا فى البنيان السليم رهن بارادتنا ، ونجاحنا فى توثيق الأواصر بيننا ينبغى أن يكون أدنى من نجاح دول مجلس أوربا • فالأواصر بيننا أقوى وأسباب الخصام أقل ، والتكافل فى الحالين

لا غنى عنه لحفظ الكيان ، ولتحقيق الأمل المنشود • فان لم يفعلوا
وان لم تفعل فالمصير لا تحمد عقباه — القوة مكشرة عن أنيابها ،
والفاقة لا ترحم ومستغلوها لا يغمض لهم جفن والفرقة لا تجدى
سوى الضعف ، والعلاج بين فيما أرى وان كان طريقه طويلا
وعرا ، ولكن الوصول الى الغاية يقتضى أن نبدأ السير وأن نواصله
وان أثخن الشوك والحصى أخامص الأقدام •

موعد مع التاريخ

بين صور الماضى المجيد ، ومنى المستقبل المأمول ولدت النهضة
العربية الحديثة منذ قرن من الزمان ، ومضت قدما نحو أهدافها ،
تضعف حيناً وتشتد حيناً ، ولكنها أبداً تسير الى أمام • فالجامعة
العربية التى وقع ميثاقها فى ربيع سنة ١٩٤٥ ، هى نتيجة طبيعية
منطقية لقوى التاريخ العربى ، التى ظلت مستكنة حتى أتيح لها
أن تنبثق • فالجامعة ليست تدبيرا سياسيا دفعت اليه اشارة
وزير أجنبى ، أو قضت به أحوال الحرب العالمية الثانية بل هى
مرحلة بلغها تيار تاريخى قوى • وقد كان جهل الدول الغربية
لهذه الحقيقة واغضاؤها عن قوة الحركة العربية وتأصلها فى النفوس ،
هو الذى باعد ما بيننا وبينهم فى الحين الذى كان أهل الخير فى
الناحيتين قد عقدوا رجاءهم على التعاون فى سبيل الخير والتقدم
والسلام •

ان تاريخنا حافل بآيات الأواصر الطبيعية القوية التى ينبغى
أن تجتمع لأمة أو لطائفة من الأمم حتى يتمهد أمامها طريق الاجتماع
حول غرض عام • وفى طليعتها اللغة العربية الغنية المرنة المتجددة على

الزمن الحافل أدبها بذخائر العقل والقلب • فهذه اللغة تراث يزهى به العربى أينما كان : البدوى فى الصحراء والفلاح فى الحقل والحضرى فى المدن الآهلة • وقد يكون السواد من هؤلاء جميعا فى عداد الأميين ولكن احساسهم الفطرى باللغة واستجابة نفوسهم لايقاعها شىء يندر أن تجد له مثيلا فى الجماعات الغربية المتعلمة •

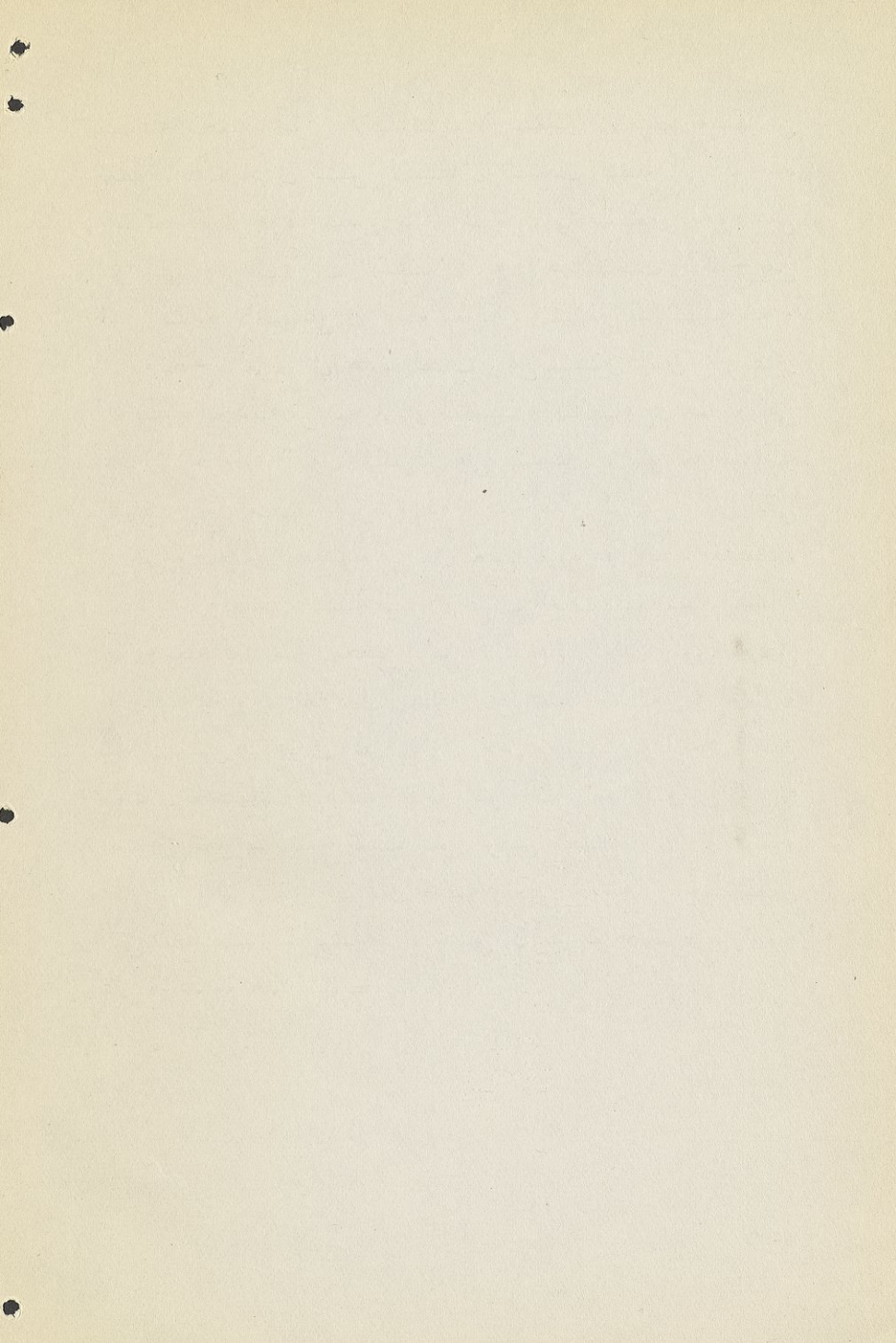
ثم هذه المشاركة الطويلة فى تجربة تاريخية لهم تزل متصلة منذ أقدم العصور • فالأمة العربية اليوم هى ما أسفر عنه اندماج سلالات كثيرة قوية ، عاشت على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى أراضى الشرق الأوسط ، وليس ثمة من ينكر أن أهل البلاد التى تنطق بالعربية ، قد تعرضت خلال عصور متطاولة لمؤثرات خارجية وداخلية مختلفة فقامت بينها فوارق • وقد يقيم خصوم الوحدة لهذه الفوارق وزنا أكثر مما تستحق ، وقد يستخف بها غلاة الوحدة فلا يقيمون لها الوزن الكافى ، ولكنها قلما تضعف ذلك الشعور العميق بالقربى والولاء لأصول تاريخية واحدة ، فمن هذه القوى التاريخية نبتت ارادة اجتماع الشمل حول غرض عام • وقد تعاقبت على العرب أزمان ظلت فيها هذه القوى راقدة ، فلما بدأوا يتصلون بتراثهم القديم ، وبالينابيع التى تفجر منها تاريخهم فى أزهى عصوره ، جعلوا يستوحون الماضى ويتطلعون الى المستقبل ، وإذا أمامهم غرض يستأثر بالقوة الدافعة فى النفس فتفرض الولاء الصادق له ، وتجعله عزيمة لا تنشى • وقد وجدوا فى القرن التاسع عشر الأحوال التى تحول الأمنية الهائمة الى قوة جائية — وجدوا رجال الحكم فى الدولة العثمانية يمارسون

سلطانهم بمعزل من العرب ، وعلى رغم منهم ، ووجدوا السيطرة الأوروبية تتغلغل فيما بينهم ، والتقت في نفوسهم ذكرى الدولة العربية بالنزعات القومية التي هبت ريحها من الغرب • فاذا النهضة العربية تسير نحو التحرر واثبات النفس • وقد جاءت الصهيونية بأنكر ما يعرف من ضروب الاستعمار فجعلت رد الفعل في النفس العربية كالقوة الطبيعية لأنه يتصل بحفظ الكيان ، وان ما نشاهده في مجلس الأمن اليوم من تألب على اهمال حقوق العرب ، شهدنا أكثر منه فيما مضى ، وقد غلبناه على أمره ، وليس يضيرنا اليوم أن نشهد ما نشهد ، فهو الذي يشحذ العزم على السير في ركاب بعث تاريخي لن يستطيع مجلس الأمن أن يرد تياره المتدفق على أعقابهِ ، الا اذا مهدنا له بالتخاذل والونى •

فالأمم العربية اليوم على موعد مع تاريخها • انها تقف أمام العالم وعلى وجهها الكريم سمات العزم ، تسعى الى تحقيق ثلاثة أهداف : أن تنجز استقلالها ، وأن تجعل وحدة قصدها حقيقة لا مرأى فيها ، وأن تسير قدما في طريق التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي • فهي تشن حربا في ثلاثة ميادين ، ولا يضيرها أن تنكص مضطرة في أحدها ، ان هي عاهدت نفسها على أن تتخذ من النكصة فرصة تتحفز فيها للوثوب • والجامعة العربية هي الاعراب عن وحدة القصد في هذه الحرب ، فمن يفهمها من أمم الغرب ، على أنها وسيلة سياسية عابرة لتحقيق أغراض معينة ، يجهل المعنى العميق السارى في تاريخ العرب ، كالجبل الذي ينتظم درر العقد •

وهذه الأغراض التي يسعون اليها ، متصل بعضها ببعض ،

متفاعلة كجميع القوى الانسانية ، لا يسعك أن تغزلها بعضها عن بعض ، فالجهاد فى سبيل الاستقلال يستحث التطلع الى الوحدة وما تجديه من قوة ومقدار ما يدرك من الوحدة يعين بدوره على نيل ظفر آخر فى حرب الاستقلال ، وكلاهما يتطلب الكفاح من أجل التقدم الاجتماعى فى أوسع معانيه ، ويستعين بما يتم لنا منه • ونجاح العرب فى هذه الحرب رهن بشيئين اثنين : بمصير الحضارة الحديثة من ناحية ، وبعزيمتهم وإيمانهم من ناحية • ففى عالم تتناحر فيه الدول الكبرى على السلطان ، متوسلة بسياسة القوة ، يقع العرب — بل كل دولة صغيرة أو كبيرة — بين شقى الرحى • فمصير الجهاد العربى ، فى بعض مغزاه هو تحد للحضارة الحديثة ، وللقوى المنشئة فيها • وحسب العرب أنهم نبهوا الدنيا ، فى الجمعية العمومية ومجلس الأمن الى الخطر العظيم الذى يتعرض له الناس بعزوف الغلاة فى الهيئتين عن اعتبارات الحق والعدل • بيد أن مصيرهم هو فى المقام الأول تحد لعزيمتهم ، ولرجال الذين يتولون توجيههم وقيادتهم • فاذا كانوا أكفاء لهذا التحدى فقضية فلسطين تحل من تلقاء نفسها سواء رضى مجلس الأمن أو كره • فهم يدركون أن تاريخهم ، فى قديمه وبعض حديثه ، زاخر بالقوى التى تمهد للظفر بما ينشدون ، وعسى أن يدركوا أيضا أنهم اليوم على موعد مع هذا التاريخ !



نحن شعوب العالم

نحن شعوب العالم

- ١ — روح الميثاق أكتوبر ١٩٤٩
- ٢ — قوة تحرّك الأرض ٣١ يناير ١٩٤٩
- ٣ — مشروع جديد جرىء يوليو ١٩٤٩
- ٤ — معنى النقطة الرابعة ١٤ يوليو ١٩٤٩
- ٥ — المساعدات الفنية أكتوبر ١٩٤٩
- ٦ — أزمة الطعام العالمية سبتمبر ١٩٤٩
- ٧ — عودة الى العقل نوفمبر ١٩٤٩
- ٨ — مصير الأمم المتحدة ٢٧ ديسمبر ١٩٤٧
- ٩ — فى قصر شايبو ٤ نوفمبر ١٩٤٨
- ١٠ — الأمم المتحدة — ما نفعها؟ ٢ نوفمبر ١٩٤٨
- ١١ — مقعد الصين ٣١ مارس ١٩٥٠
- ١٢ — موقف مصر ٢٢ سبتمبر ١٩٥٠
- ١٣ — الوسيلة وحدها لا تكفى ١٥ نوفمبر ١٩٥٠

روح الميثاق

روح الميثاق هي عبارته الأولى : « نحن شعوب العالم » ♦
بهذه الكلمات الثلاث تستهل الأمم المتحدة ميثاقها ♦
وفي اختيار اللفظين — لفظ « الشعوب » في مستهل الميثاق ،
ولفظ « الأمم » في اسم الهيئة العالمية ، مغزى لا يكاد يخفى
على أحد ، ولكن الحرص على توكيده ، وتفسيره ، يوما بعد
يوم ، شيء لا غنى عنه ، لتستكمل الأمم المتحدة المعنى الأول ،
الذى من أجله أنشئت واليه تسير ♦

نعم ، ان حكومات الدول التسع والخمسين ، التى انتظمت
أعضاء فى الأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو ، أو قبلت أعضاء فيها
بعد انشائها ، هى التى توفد كل سنة وفودها الى الجمعية العمومية ،
وهى التى ينتخب مندوبوها كل سنة ، أو كل سنتين ، أو كل ثلاث
سنوات ، أعضاء فى مجلس الامن ، أو مجلس الاقتصاد والاجتماع
أو مجلس الوصاية ، أو غيرها ♦

نعم ، ان حكومات هذه الدول ، الأعضاء ، هى التى تملك
أن توافق أو لا توافق ، عن طريق ممثلها على القرارات التى تطرح
للاقتراع ، وهى التى تكفل تنفيذ تلك القرارات متى تم الاتفاق

عليها بالأكثرية المطلوبة أو تنهاون في تنفيذها .

نعم ، ان مبدأ الاجماع بين الدول الكبيرة الخمس في مجلس الامن يحدد من سلطان الدول الأخرى ويخضع طائفة من أعظم المسائل شأنا وأعلقها بحفظ الامن الدولي ، وصون السلام ، لحق الاعتراض أو الفيتو ، الذى هو نتيجة منطقية لمبدأ الاجماع الذى تقدم ذكره .

كل هذا ، وغيره كثير ، يوحى بأن الأمم المتحدة ميدان لا شأن فيه لشعوب الدول التى انتظمت أعضاء فيها . ولكن ينبغى أن لا ننسى أن الأركان الثلاثة التى قامت عليها الأمم المتحدة ، هى أولا صون السلام ، وهذه المهمة هى فى المقام الأول مهمة مجلس الأمن ، وثانيا انشاء الأحوال التى يتاح فيها السلام أن يستتب ، وللرخاء أن يترعرع ، وهذه المهمة هى فى المقام الأول مهمة مجلس الاقتصاد والاجتماع ، والوكالات المختصة التابعة له ، وثالثا الاعراب عن الضمير العالمى ، وهذا يتم بغير قيد سوى قيد اللائحة الداخلية ، فى الجمعية العمومية ولجانها .

أما مجلس الاقتصاد والاجتماع ، ووكالاته المختصة ، فلا هم له أو لها ، سوى التمهيد للسلام عن طريق الرخاء . وهذا المعنى هو شعاره وان لم يتخذ شعارا رسميا ، وهو أيضا شعار كل شعب من الشعوب . فليس فى العالم اليوم أمة لا تريد أن تكون أحسن صحة وأفضل عيشا وأوفر تربية وثقافة وضمانا اجتماعيا لجميع أبنائها على السواء . وليس فى العالم اليوم ، أمة تستطيع أن تزعم أنها فى غنى عن سائر العالم ، وكل من يقول أن الاستكفاء الاقتصادى أو الثقافى مستطاع ، يقوله بدافع من العاطفة ، وبمعزل

عن الحقيقة ويسلك فى قوله طريق الرجعى والعزلة والجمود •
حتى الولايات المتحدة ، أو الاتحاد السوفيتى ، وكلاهما يملك قدرا
وافرا من الموارد الطبيعية والانسانية ، لا يتأتى له أن يستكفى
لو أراد •

فاذا كان العالم كله موصول الأواصر ، كما يدل كل استطلاع
اقتصادى منزه عن الهوى ، فالنهوض الاقتصادى فى بعضه ،
والتخلف عن النمو الاقتصادى فى بعضه الآخر ، يفضى الى اختلال
التوازن ، أى أن الرخاء البشرى ، هو كالحرية ، شىء لا يتجزأ •
وقد قال لنكلن ، الرئيس الأمريكى العظيم : « ليس فى وسع بلد
أن يعيش نصفه حر ، ونصفه عبد » ، وكذلك عالم اليوم •

فمجلس الاقتصاد والاجتماع أقر هذا المبدأ ، وهو اقرار خطير ،
ثم اتبع به اقرار مبدأ آخر ، وهو أن الأمم المتحدة تحمل على كاهلها
تبعة بذل المعونة للأمم المتخلفة فى نموها الاقتصادى ، وهو
فى سعيه ، الى تحقيق المبدأين ، مبدأ أن الرخاء لا يتجزأ ، ومبدأ
تبعة الأمم المتحدة فى اقامة الرخاء ، انما يسعى جاهدا لتحقيق
الركن الثانى من الأركان الثلاثة التى قامت عليها الأمم المتحدة ،
أى توفير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التى يتاح فيها للسلام
أن يستتب ، وللرخاء أن يتزعرع •

وهذا عمل مبدأه ومعاذه خير الشعوب ، والحكومات ليست فيه
سوى وسيلة أو أداة • ممن تستمد هيئة الصحة العالمية وحيتها ،
ولمن تدبر مشروعاتها ، حين تسعى الى قهر الأوبئة ، أو حصر نطاقها ،
أو منع انتقالها ؟ أليست صحة الفرد ، وصحة الجماعة ، هى الركن
الذى لا غنى عنه فى بناء صرح الرخاء ؟ وممن تستمد هيئة الطعام

والزراعة وحيها ، ولمن تدبر مشروعاتها ، حين تسعى بالنصح والارشاد ، الى التوصل بأحدث الوسائل التى فتحتها حيلة العلم وأرستها التجربة ، لزيادة معدل الانتاج الزراعى ، ورفع مقدار المتاح من الطعام لكل فرد من الناس ؟ أليست الكفاية من الطعام هى الركن الذى لا غنى عنه فى بناء الكرامة والطمأنينة وتعزيز القدرة على الانتاج ؟ ممن استوحى مجلس الاقتصاد والاجتماع ، واللجنة الاجتماعية العامة فى الجمعية العمومية ، حين حرصا على وضع ميثاق حقوق الانسان ، الذى وافقت عليه الجمعية العمومية فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر ١٩٤٨ والذى جاء فى صدره أن الاعتراف بالكرامة الأصيلة فى أبناء الأسرة الانسانية جميعا ، وبتساويهم فى حقوق ملازمة لهم ، هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم ؟ أليس استمتاع كل فرد بهذه الحقوق ، فى حدود القانون ، هو المثل الذى لم تزل الانسانية تصبو اليه منذ فجرها الأول ؟

أما الجمعية العمومية ولجانها ، فقل فيها ما تشاء — قل ان الخطب فى المناقشة العامة التى تسبق العمل فى اللجان الرئيسية ، يغلب أن تكون طويلة ، مملة ، فيها كلام معاد ، أو اتهام مثير من هنا أو هناك ، ينافى الحقيقة حيناً ، والذوق أحيانا — أو قل ان العمل فى اللجان يثبّر أمره فى الأروقة والاجتماعات الخاصة ، وان الضعيف فيها مهمل حتى يقوى بنفسه أو بأصدقائه ، قل ذلك ، فلا تعدو حقيقة الواقع ، ولكن الذى لا يسعك الا أن تعترف به ، هو أن منبر الجمعية العمومية هو أعلى منابر العالم وأجهرها صوتا ، وليس فيها أو فى احدى لجانها من قيد يفرض على رأى أو القول ، سوى قيد اللائحة الداخلية ، فالضعيف يستطيع على الأقل أن يقول

كلمته وليس فى وسع القوى أن يمنع هذه الكلمة أو أن يطمسها •
فكل ما يقال ، ان لم تعن به الصحف ، فان محطة اذاعة الأمم المتحدة ،
تذيعه فى أربعة أقطار المعمورة ، وقسم الصحافة فى الأمم المتحدة ،
يعنى بطبع نسخ كثيرة من كل بيان يلقى ، اذا طلب اليه الوفد الذى
يلقيه أن يفعل • وستظل الجمعية العمومية ولجانها مترنحة بين العدل
المجرد والواقع ، بين الضعيف الذى عدله بين ، والقوى الذى ينحاز
اليه الناس لأنه قوى ، حتى نصير ، « نحن شعوب الأرض » أصح
ادراكا ، وأقوى شعورا ، وأوثق آصرة ، ويومئذ لا يسع القوى
مهما علا وقوى ، الا أن يصغى الى هذه المهمة الهادئة الصادرة
من أعماق النفوس البشرية ، ويقيم لها وزنها الصحيح فى ميزانه
العالمى •

نعم ان تاريخ الأمم المتحدة ، كما يتمثل فى مجلس الأمن على
الأكثر ، وفى الجمعية العمومية ، لا يرضى كل من تطلع منذ اليوم
الأول ، الى هيئة لا تنهج الا نهج الحق والعدالة فى اقرار كل مسألة
تطرح للبحث أمامها • وقد حضرت طائفة من اجتماعاتها فى سنتين
متتاليتين فهالنى ما رأيت وما سمعت ، من كر وفر على صغائر
الأمر ، وثرثرة وتجهّم ومناورة فى كبارها • وقد عرفت فى شعوبنا
العربية ، غير واحد من أهل الرأى يدعو الى الخروج منها ، وهو رأى
اذا قارنته بالمثل الأعلى الذى رنونا اليه من خلال غياهب الحرب ،
كان له عندى أعظم التقدير ، ولكننى مع ذلك لا أنسى أن انقسام
الدول الكبيرة كتلتين متنافستين قد ترك أثره فى أعمال الأمم
المتحدة ، وبخاصة ما كان منها منصبا على المسائل التى تمت الى
السياسة والامن بصلة وثيقة ، وانه برغم هذا الانقسام لا تزال

وفود الأمم ، تجتمع وتتنافس وتختلف على الأكثر ، وتتفق على الأقل ، ولكنها تجتمع وتناقش على كل حال ، فأقول ان كان هذا شر ، فهو أهون كثيرا من أن تمتنع عن الاجتماع • ثم لا أنسى أن الشعوب العربية ، وحكوماتها ، لم تكن من عضويتها في الأمم المتحدة أقصى الجدوى • نعم خذلتنا الجمعية العمومية في فلسطين ، ولم ينصفنا مجلس الأمن في مصر ، وكلاهما غير معصوم عن الخطأ ، كما سمعت بنديت نهرو يقول اليوم ، وهو قول فيه رفق ومجاملة • ولكن متى عنيت الدول العربية بتوحيد كلمتها ، وانشاء وفود دائمة لدى الهيئة كما فعلت مصر فيتمرس رجالها بجميع وسائل الهيئة وأساليبها ، ويبدلون سعيهم الدائم في الأمور التي تهمهم على وجه خاص ، فانها تصير نواة لكتلة يخطب ودها ومدرسة لطائفة من الشباب العربي يتدربون في أكبر معهد سياسى فى العالم ، حتى اذا عادوا الى أوطانهم كانوا ، فى الداخل أو فى الخارج ، أئقع له وأجدى عليه • وأخيرا لا أنسى أن شئون السياسة والحرب ، التى كثر عليها النزاع ، واشتدت من أجلها خيبة الأمل ، هى فى الواقع بعض عمل الأمم المتحدة ، وأما البعض الآخر ، فهو ذلك العمل المنشئ ، على بعد مجناه ، فى مجلس الاقتصاد والاجتماع ووكالاته المختصة • فأبناء المشكلات الخاصة بالسياسة والحرب والسلم ، هى التى تحتل المقام الأول فى الصحف ، وهى التى توحى بأن الأمم المتحدة — برغم توفيقها بعض التوفيق فى مشكلات سياسية كمشكلة أندونيسيا — سائرة قدما الى حتفها كما فعلت عصبة الأمم من قبلها • وأما التغلب على المرض ، وتحسين أسباب الانتاج الزراعى ، وتوفير خيرة كتب الأدب فى أهم لغات الأمم ، وضمان

حسن الأحوال التى يعمل فيها العامل الصناعى ، وما كان على غرارها ، فلا تلقى سوى عناية قليلة من الصحف ان لقيتها •
فنحن شعوب الأرض ، ينبغي لنا أن نحرص ، أولاً على فهم عمل الأمم المتحدة ، وضرورتها ، وثانياً على تأييدها دون اغماض العين عن مواطن النقد فيها — حتى تسير الى الهدف الذى نصبو اليه ، فهى وحدها الوسيلة العالمية التى تعبر عما يجول فى نفوسنا من توق الى السلام والطمأنينة ، وشوق الى حسن الحال التى لا قيام للسلام الحقيقى الا فيها ، فان كانت هذه الوسيلة غير مجدية حتى اليوم ، أفضل الجدوى ، فليس النقص فيها ، بل فينا « نحن شعوب العالم » •

قوة تحرك الأرض

فى أساطير القدماء أن رباً جباراً من آلهة اليونان ، قال : « اعطونى موطناً لقدمى خارج كرة الأرض وعصا متينة ، فأحرك بها الأرض كما أريد » • أفنجد فى حياة الأمم فى هذا العصر المضطرب قوة كالقوة التى زعمها أطلس لنفسه ، تتيح لقادة البشر قدرة على تحريك الانسانية ودفعها فى طريق الخير والرخاء والطمأنينة ؟
تختلف الأجوبة عن هذا السؤال باختلاف المذهب • وقد يقول لك أحدهم : ارفع عنا خطر الشيوعية تنعم الدنيا بما ترجو • وقد يقول لك آخر ، دمر القنابل الذرية ، بل ألغ الطاقة الذرية الغاء حتى يأمن الناس شرها ، تنعم الدنيا بما ترجو • وقد يقول لك ثالث : كيف السبيل الى الطمأنينة والشعوب يستبد بعضها ببعض ، أزل من وسائل التعامل بين الأمم أساليب الاستعمار البالية ، تنعم

الدنيا بما ترجو • وقد يقول لك رابع : امح الفوارق بين الدول القائمة ، وأقم ببيان دولة عالمية واحدة لها سلطة القانون تنعم الدنيا بما ترجو • والأول هو جواب الأمريكي الذى يخشى الشيوعية أن تتغلغل فى أرجاء الدنيا حتى تأتية فى عقر داره فتسلبه ثمر ما كدح من أجله وتحكمه بقوة البوليس السرى المستبد • والثانى جواب الروسى السوفيتى الذى يخشى أن تكون القنبلة الذرية أداة تتوسل بها الدول الرأسمالية لتقويض الدولة الاشتراكية والقضاء على مبادئها • والثالث هو جواب الاندونيسى وغيره من أبناء آسيا وأفريقية الذين بلوا مساوىء الاستعمار • والرابع هو جواب المفكر الذى يرنو الى المثل الأعلى ويستخرج الحجة التى تقنعه من عبر التاريخ ومنطق العلم الحديث • ولست تجد فى أحد هذه الأجوبة وحسب ، حلا شافيا لهذه المشكلات التى يعانيتها الناس ، وانما الحل ينبغى أن يضم طرفا من هذه الحلول جميعا ، أو طبعات منقحة منها ، وأن يضاف اليه الانتفاع بقدرة العلم والصناعة فى العصر الحديث على توفير أسباب العيش الرخى للناس ، بل ربما كان هذا الانتفاع وهذا التوفير هما المقدمة التى تمهد لغيرها ، فان لم تستطع القوى السياسية المتنافرة أن تجتمع على هذا ، فلعل القوى السياسية المتشابهة فى المبدأ والغاية تستطيع ، فتقيم الحجة المقنعة وتضرب مثلا يحتذى •

وقد مضت ثلاث سنوات أو تزيد منذ وضعت الحرب العالمية أوزارها ، قرأنا فى خلالها شيئا كثيرا عن أزمة الطعام فى أوروبا ، ولكن الناس قلما يذكرون ، لطول ما ألفوا ، ان البؤس جاثم على نصف البشر أو أكثر من النصف • فالطعام بينهم قليل لا يكاد يقيم الأود ،

والمرض فاش فلا يقدر للوليد ساعة يولد أن يبلغ من العمر ما يتجاوز
عشرين ربيعاً أو أكثر قليلاً ، والمأوى قليل وحقير لا يوائم كرامة
الإنسان الذى تفخ الله فيه من روحه ، والقدرة على العمل وهنائة
واهية فكأن الرجل شبح يلهث • فهذه الفاقة السوداء ، هى التربة
الخصبة ، التى تنبت فيها البغضاء ، ويتزعزع فيها الاضطراب
الاجتماعى ، وتومئ لمن تحدثه النفس بالتدخل أو الاثارة أو التغلغل
أو الاعتداء ، أن أقدم ، وربما كانت فى آخر الأمر ، هى الطريق
الذى ينحدر عليه البشر الى ذلك اليوم الذى تهب فيه على الشرق
والغرب سواء بسواء ، زعازع الطاقة الذرية ، وغيوم الجرائم
فلا تبقى ولا تذر •

فمن الواضح أن الضرورة تقضى بوضع برنامج عالمى ، محكم
التدبير والتنسيق ، غرضه — مثلاً — أن تلجم قوة الأنهار الكبيرة
فى شتى أقطار الأرض ، كما صنعنا بالنيل ، وكما صنعوا فى نهر
التنيسى فى أمريكا ، فبنى السدود ونولد من مائها المتدفق طاقة
توفر أسباب صنع الأشياء التى تشتد الحاجة إليها ، ويتحكم
المهندسون فى توزيع مياهها حتى اذا أضيفت الأسمدة وأتقن العمل
ازدادت الثروة المنتزعة من الأرض وهى الثروة التى تتجدد
ولا تنفذ ، وتكثر الآلات التى تزود كل رجل بقدر كبير من القوة
المنتجة • فيومئذ يزداد الطعام ويرتفع مستوى العيش وتصح
الأبدان ويقل عدد الناس الذين تهلكهم الأوبئة والمجاعات ، وتسترد
العقول والنفوس التى تسكن الهياكل المتهمة اليوم ، ما فطرت
عليه ، أو ما أراد لها ربها من أن تفطر عليه من ذكاء وهمة وكرامة ،
وتتاح الفرصة للعمل المضمون وتربية الأولاد والاطمئنان على

مستقبلهم • ويومئذ نجد أن غير قليل من بواعث الاضطراب في حياة معظم شعوب الأرض قد زال ، أما البقية فربما تيسر علاجها بعد ذلك ، ففي أحضان الفاقة تتأصل القوى الهدامة التي تمهد للقلق الاجتماعي أو تمهد للحرب •

هذا الرأي ، هو الخلق اذا تحقق بأن يكون القوة المحركة التي ترفع البشرية من أعماق الهوة التي تردت فيها • وقد رأينا قبساً منه في خطبة مارشال التي ألقاها في جامعة هارفرد سنة ١٩٤٧ فصارت مشروع مارشال في ست عشرة دولة في أوروبا الغربية • ومنذ عشرة أيام وقف الرئيس ترومان يجدد العهد أمام قومه ، وعلى مسمع من العالم بقوله : « ينبغي لنا أن تؤيد بكل قدرتنا مشروع انعاش أوروبا ، ونحن على ثقة بنجاح هذه المغامرة العظيمة في سبيل الانتعاش العالمي » • ولكنه أدرك أيضاً أن الرخاء ، كالسلام وكالحرية ، لا يتجزأ تجزئة جغرافية أو تجزئة اجتماعية ، وأن مشروع مارشال قاصر على رقعة محدودة من سطح الأرض ، فأضاف إليه عهداً آخر ، يتلخص في قوله : « وينبغي لنا أن نقدم على برنامج جديد جرىء غرضه أن تتاح منافع التقدم العلمي والصناعي ، لتحسين أحوال المناطق المتخلقة في نموها • ان أكثر من نصف سكان الأرض يعيشون في أحوال أدنى الى الفاقة ، فطعامهم غير واف ، والمرض منتشر بينهم ، وحياتهم الاقتصادية أقرب الى الفطرة وفقرهم يعوقهم عن التقدم ويهدد المناطق التي بلغت شأواً أبعد من الارتقاء • • • والانسانية اليوم تملك لأول مرة في تاريخها المعرفة والحنق اللذين يكفلان معونة هذه الشعوب • وأنا أعتقد أنه ينبغي لنا أن نتيح للشعوب المسالمة ذخائر معرفتنا الفنية

وما نقدر عليه من مواردنا حتى نعينا على تحقيق ما تصبو اليه من حياة أفضل ، وينبغي لنا أن نسير ، بمعاونة الأمم الأخرى ، على توفير المال اللازم لتحسين الحال في تلك المناطق » • وقد أشار بيفن في خطبته الأخيرة في مجلس النواب الى مثل هذا ، وعالج دولة رئيس الوزارة المصرية هذا الموضوع من ناحيته المصرية معالجة تبشر بالخير •

والحقيقة أن الصورة التي رسمتها هي الصورة المثالية للموضوع من الناحية الاقتصادية ، فاذا توافرت النية الطيبة والهمة العالية والرغبة الصادقة في النفع المتبادل دون الطمع في الاستغلال ، ففي طاقة العلم والصناعة اليوم أن يحيل الصورة المثالية ، والأسطورة القديمة حقيقة في منال اليدين •

مشروع جديد جرىء

بين المبادئ التي لا يختلف فيها اثنان ، أن بناء السلام العالمي ، هو في المقام الأول ، عمل انشائي ، أو هو جهاد في سبيل الانشاء ، ينبغي أن يتصل يوما بعد يوم ، وسنة بعد أخرى ، ولن تنتهي في هذا الجهاد معركة حتى تشب معركة أخرى • فمكافحة الملاربا التي تسل العافية من أبدان ملايين من الناس ، معركة حقيقية ، كأعظم معارك الحروب التي طالعت أخبارها وهي لن تنتهي حتى يسيطر العلم على البعوض الناقل لطفيليات الداء ، وحتى يتعلم الناس كيف يتقونه ، وكيف يعالجونه • ومثل الملاربا عشرات من الأمراض التي تنهك الأبدان أو تهلكها ، والجهاد في سبيل لجم الأنهار المتدفقة للانتفاع بمياهها في زيادة الانتاج الزراعى ، وتوليد

الطاقة المحركة ، معركة أيضا لا يقل ما تحتاج اليه من المجهود والنظام والبذل والعمل الدائب ، عما يحتاج اليه التأهب لأى قتال • والغرض اللامع الذى يرمى الى أهل العمل والخير والفكر الصائب ويغريهم بالأقدام ، هو تحرير أبدان الناس من العلل ، ومن الجوع ، وتحرير عقولهم من عبودية الضعف والتردد ، ففى أحضان الفاقة والسقم ، تتأصل القوى الهدامة التى تمهد للقلق الاجتماعى ، فتمهد للحرب • والرءاء كالسلام والحرية ، لا يتجزأ تجزئة جغرافية ، أو تجزئة اجتماعية ، فلن تتجاوز أمتان احدهما تنعم بالرءاء والأخرى ترتع فى البؤس ، دون أن تتأثر احدهما بالأخرى ، ولن تجد فى أمة واحدة طبقة من الناس تنعم بالرءاء والأخرى ترتع فى البؤس دون أن تضطرب حياة تلك الأمة وتسودها النقمة والسخط ، وتصير عرضة لكل خطر سياسى واجتماعى •

وان تعجب ، فاعجب لأهم هذا العصر ، وطبقاتها ، التى جعلها العلم قادرة على أن تزيل طائفة من هذه العلل القديمة ، بما أتاحه العلم من أسباب لزيادة الثروة ، وتوزيعها ، وكفاح السقم ، وجعل الصحة والعافية حقا فى متناول جميع الناس ، ولكنها لم تكدهم بما تستطيع ، ولم تكدهم تنتفع فى معركة السلام هذه ، بنفس القدرة وحسن التنظيم اللذين تنتفع بهما فى الحرب ساعة ينفخون فى بوقها •

ولذلك شاع الرضى فى دوائر كثيرة ، يوم أعلن الرئيس الأمريكى فى خطبة الرئاسة منذ ستة أشهر أو نحوها ، مشروعا عالميا خطيرا وصفه فى قوله : « ينبغى لنا أن نقدم على برنامج جديد جريء »

غرضه أن تتاح منافع التقدم العلمى والصناعى لتحسين أحوال المناطق التى لم تزل متخلفة فى نموها الاقتصادى • أن نصف سكان الأرض أو أكثر من النصف ، يعيشون فى أحوال أدنى الى الفاقة ، فطعامهم غير واف ، والمرض منتشر بينهم ، وحياتهم الاقتصادية أقرب الى الفطرة ، وفقروهم يعوقهم عن التقدم ، ويهدد المناطق التى بلغت شأوا من الارتقاء • • • والانسانية اليوم ، تملك لأول مرة فى تاريخها أسباب المعرفة والحدق اللذين يكفلان هذه المعرفة ، على أوفى وجه وأجداه •

وقد قوبل هذا القول فى أول الأمر بشيء من الحيرة فى أمريكا ، لأن الناس هناك ظنوا أن هذا طريق آخر لاتفاق مال جزيل يجمع من دافعى الضرائب فى أمريكا ، كما قوبل بكثير من الحماسة فى أقطار كثيرة لا يكتنفها الستار الحديدى ، لأن الناس ظنوا أن هذا مشروع آخر على غرار مشروع مارشال ، ولكنه أوسع نطاقا ، ولن تلبث هذه الأقطار أن تنال من أمريكا مبالغ كبيرة من المال ، ومقادير وافرة من الغذاء ومعدات الزراعة والصناعة ، بغير مقابل ، أو بمقابل لا يكاد يذكر •

ولكن الفريقين لم يلبثا ، حتى أدركا بعض الحقيقة من وراء المشروع ، وخلصا الى رأى متزن فيه ، وفى نفعه وهدفه البعيد ، فأمریکا على غناها يعجزها أن تواصل جميع الأمم التى فى حاجة ، برفد من مال ومواد ، ولكن أمريكا والدول التى تجاريها فى هذا الجهاد ، تستطيع أن تعين أمما كثيرة معونة فنية وصناعية على تنمية مواردها وزيادة انتاجها ورفع مستوى العيش بين أبنائها • والمال اللازم لهذه المعونة ، يجىء بعضه من الهيئات الدولية المختصة فى

الأمم المتحدة ، ومن الشركات الخاصة ، ويجيء بعضه من الأمم التي تنظم لها وفيها هذه المشروعات ، ويعود عليها خيرها الأول ♦
والفلسفة المجدية التي تقوم من وراء المشروع ، تنهض على أساسين : أما الأول فهو أن أسباب العلم الحديث وأساليب الصناعة والزراعة ، وضروب الحذق في الانشاء والادارة ، كفيلا اذا هي اجتمعت الى المال الكافي المثمر في المشروعات النافعة البعيدة المدى ، بتنمية الموارد الطبيعية الوافرة في مناطق شتى على سطح الأرض ، و برفع مستوى العيش بين أهلها . وأما الثاني فهو أن هذا النمو الاقتصادي والاجتماعي ، كفيلا بأن يزيل طائفة كبيرة من أسباب الفاقة والبؤس والبرم التي تمهد لتقبل الدعوة الشيوعية التي تزين للناس آمال الوفرة والغنى وبسطة العيش ♦

وليست الفكرة البسيطة التي قام عليها هذا المشروع ، بالفكرة الجديدة ♦ ففي كل بلد من بلاد العالم ، الذي يعنى بتنمية موارده الطبيعية ، من زراعية وصناعية ، تجد عددا غير يسير من الخبراء الأجانب في الهندسة أو الصناعة أو الزراعة أو الصحة العامة ، من أمريكيين أو بريطانيين أو بلجيكيين أو سويسريين أو غيرهم . يذلون للحكومات والشركات المحلية ، ثمار تجربتهم وحذقهم ، وتجد أيضا قدرا كبيرا من معدات الزراعة والصناعة التي أنتجتها مصانع أمريكا أو بريطانيا أو بلجيكا أو غيرها ، ينتفع بها في ترقية الزراعة والصناعة أو مكافحة المرض ، وتجد علاوة على هذا وذلك ، شركات الهندسة والبناء الكبيرة ، في أمريكا أو بريطانيا أو بلجيكا أو غيرها ، تتولى بالتعاقد مع الحكومات أو الشركات المحلية ، انشاء السدود والمصانع أو المطارات والمرافئ أو غيرها ♦

أضرب لكم مثلاً على ذلك بأحد حفدة روكفلر المشهور • فقد اتجه الى بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية ، فدرس العوائق التي تحول دون تقدم الزراعة والصناعة فيها مستعينا بأكفاء الخبراء ، وعمد الى تذليلها ، فهياً للزراعة آلات للزراعة وصوامع لتخزين الحبوب ، وحقناً مضادة للكوليرا تحقق بها الأنعام • وقد فعل ذلك على أنه عمل لا بد أن يدر عليه ربحاً في آخر الأمر ، متى ثبت لأهل الزراعة أنه يزيد انتاجهم ودخلهم أيضاً • وقد تبين أن سبب سوء التغذية عند معظم أهل فنزويلا يعود الى غلاء السمك • والسمك الذي يصاد كثير ، ولكنه غال في السوق ، لسوء ما هناك من وسائل لنقله وحفظه دون أن يفسد ، فرود المشتغلين بصيد السمك وتجارته ، بصناديق ، ومركبات سكة الحديد مجهزة بوسائل التبريد ، فصار في الوسع بيع السمك الجديد الجيد بأقل مما يباع السمك الفاسد ، فازداد الاقبال عليه ، فصار يجنى ربحاً ، وحسنت تغذية الناس هناك •

بين مشروع مارشال ومشروع ترومان الجديد الجريء ، فرق في المبدأ • فالأول ينطبق على بلاد بلغت من الارتقاء الاقتصادي مبلغاً عظيماً ، ولكن يد الحرب القاسية هوت عليها ، فدمرت ما دمرت ، وقطعت من أوصال اقتصادها ما قطعت ، فالغرض من مشروع مارشال هو بذل العون لها حتى تنهض من عثرتها ، وينتعش اقتصادها بما فيه من زراعة وصناعة ومواصلات • وأما الثاني ، فغرضه تنمية الموارد الطبيعية في المناطق التي لم تزل فيها تلك الموارد غير نامية • فهو اذن ليس مشروعاً لارسال المأكول والمأوى لهذه الشعوب ، ولكنه مشروع غرضه أن ييذل لهذه الشعوب الحذق الفني والمال اللازم ، لتنمية هذه الموارد حتى تستتب لها أسباب الصحة

الاقتصادية والاجتماعية ويطرد سيرها في طريق الرخاء •
المغزى الأول المستخرج من قول الرئيس ترومان في خطبته
هو أن مصير أغنى وأقوى أمة على الأرض لا يمكن أن يفصل
عن مصير أضعف الأمم وأفقرها •

والقاعدتان اللتان يقوم عليهما كل عمل من هذا القبيل ، هما أن
يكون العمل منتجا حتى يؤدي الغرض الذى أنشئ من أجله ،
وأن يسفر عن ربح معقول حتى يجتذب اليه المال الخاص اللازم
للسير فيه • أى أن المال الذى يثمر فى هذه المشروعات لا ينبغى أن
ينفق فى انشاء المباني الفخمة والملاعب الفاخرة ، كما أنفقت مال
القروض الخصوصية بين الحربين العالميتين فى أوروبا ، فهذا الانشاء
ليس منتجا ، بل ينبغى أن ينفق فى المنشآت التى تقضى الى تنمية
الموارد الطبيعية ، فتقضى تنميتها الى زيادة العمل بين أبناء البلاد ،
والى زيادة دخل الحكومة ، والى تدريب أبناء البلاد على ضروب
جديدة من الحذق الفنى المنتج •

وأريك جونستون يقترح أن يشترك المال الأجنبى الخاص
مع مال أبناء البلاد التى توضع المشروعات لتنمية مواردها، وأن يكون
المال الأجنبى هو الأقلية ، ومال أبناء البلاد هو الأكثرية فى أية شركة
تنشأ لهذا الغرض • ومن الخير فى رأى ، أن يجتمع أهل الرأى فى
الاقتصاد الزراعى والاقتصاد الصناعى ، وخبراء الصحة والاجتماع
على دراسة الموضوعات الخاصة برقعة الشرق العربى ، ويضعوا
مشروعا مخصصاً لنوع المعونة التى يحتاجون اليها لتنمية مواردهم،
وذكر النصيب الذى تستطيع بلاد هذه الرقعة أن تساهم به فى تنفيذ
المشروع والسير به الى تمامه •

هل تجد وراء هذا المشروع خطة مفصلة محكمة لتنفيذه ؟
كلا حتى الآن ، لم يكن وراءه يوم أعلن خطة كهذه الخطة •
فالأمم المتحدة مهما تشدد في نقدها وذكر ضعفها وتحكمها ، لم تنشأ
دفعة واحدة بميثاقها المفصل • ومشروع مارشال لم يكن خطة محكمة
يوم أعلن مارشال مبدأه في خطبة جامعة هارفرد • وكذلك قول
ترومان في هذا الصدد ، لا يعد سوى اعراب عن نية وتحديد لهدف ،
ولكن العناية بالأسلوب والوسائل التي تكفل تنفيذه ، هي عناية
صادقة لا ريب فيها • وقد انتقل بحث هذا المشروع الى مجلس
الاقتصاد والاجتماع في هيئة الأمم المتحدة ، وألقيت فيه خطب كثيرة ،
وطرحت أسئلة ، ودارت مناقشات ، وقد أرسل الى صديقي الكبير
الدكتور شارل مالك ، وزير لبنان المفوض في واشنطن ، ومندوبه في
هيئة الأمم المتحدة ، والرئيس السابق لمجلس الاقتصاد والاجتماع ،
وثائق الجلسات التي دارت فيها هذه المناقشات ، وكتب بخط يده
على الورقة الأولى : « هذا اتجاه قد يخرج منه خير كثير » •

معنى النقطة الرابعة

أطلقوا عليها وصف « النقطة الرابعة » أو « الفقرة الرابعة »
لأنها جاءت في المقام الرابع بين المبادئ الأربعة التي ذكرها ترومان
في خطبة رياسته ، وقال انها مبادئ السياسة الخارجية التي تنوى
حكومته أن تسعى الى تحقيقها • ووصفوها أيضا بقوله : نريد
« خطة جريئة جديدة » لمساعدة المناطق التي لم تزال متخلفة في
نموها الاقتصادي •

كانت الخطة أو النقطة يومئذ تعبيراً عن أمل يحرك النفوس ،

وقد أذيعت من أعلى منبر في أمريكا — منبر تنصيب الرئيس — قبل أن يفحصها الخبراء فحفا دقيقا ويستشفوا جميع المعانى التى تتضمنها ، أو يتبينوا ما يقتضيه تنفيذها من وسائل • ولعل ترومان أراد يومئذ أن يظفر برضى الناس فى مناطق واسعة من سطح الأرض ، لتتجاز الى صنفه فى كفاح الشيوعية والمذاهب الاجتماعية الهدامة ، ومن يراجع خطبة رياسته يجد فيها فقرات كثيرة توحى بذلك •

وقد عاد الى المعنى نفسه منذ أسابيع قليلة ، يوم أرسل رسالته الى الكونجرس ، يطلب فيها ارساد مبلغ من المال للمرحلة الأولى فى تنفيذ هذه الخطة • ثم انه أدرك أن معظم هذه المناطق عانت استعمار دول هى حليفة له فى كفاح الشيوعية • فقال ما يفيد أن أمريكا لم تخرج من عزلتها لتساعد على دوام سياسة الاستعمار ، وصرح : « ليس للنزعة الاستعمارية القديمة — الاستغلال من أجل الربح — مكان ما فى خطتنا » •

وقد يختلف الرأى فى قيمة هذه الأقوال من حيث هى سلاح سياسى فى كفاح الشيوعية • بيد أن قيمة المبدأ من حيث هو ركن خطة اقتصادية نافعة ، قد ازدادت على الدرس والفحص فى الأشهر الأخيرة ، اذ تبين فيه أهل الرأى منجاة من العلل المتأصلة فى الاقتصاد العالمى •

وليس المبدأ الذى تقوم عليه الخطة بالشىء الجديد ، ولكن علماء الاقتصاد استوضحوه وأيدوه بالأرقام فى العهد الأخير • درسوا ثلاثا وخمسين أمة تضم ٨٥ فى المائة من سكان الأرض ، فجعلوها ثلاث درجات فى سلم النمو الاقتصادى فالأولى هى التى

بلغت درجة عالية من النمو ، والثانية درجة متوسطة ، والثالثة لم تنزل متخلفة في نموها هذا .

وقد نظروا في حالة هذه الطوائف الثلاث من ناحية الاقتصاد الأمريكي ، فوجدوا أن الولايات المتحدة قد أصدرت كل سنة في الفترة بين ١٩٣٦ - ١٩٤٠ ، ما قيمته ٨٠ دولار لكل فرد في الطائفة الأولى ، وما قيمته ١٢٥ لكل فرد من الطائفة الثانية ، و ٧٠ دولار لكل فرد من الطائفة الثالثة . ووجدوا أيضا أن معدل دخل الفرد في السنة في الطائفة الأولى يبلغ ٣٨٩ دولارا ، وأما الطائفة الثانية فالمعدل يبلغ ١٥٤ دولارا ، وفي الثالثة لا يزيد على ٤١ دولارا . وبحثوا حالة الصحة والتعليم ومعدل العمر في الطوائف الثلاث ، فوجدوا أن هناك صلة مطردة بين الدخل من ناحية ومستوى الصحة والتعليم ومعدل العمر من ناحية أخرى .

واذن فالسعى الى تحسين الصحة وزيادة معدل العمر ونشر التعليم ، يفضى الى تحسين حال هذه البلاد نفسها ، وزيادة قدرتها على تنمية مواردها ، ورفع مستوى المعيشة بين أهلها ، كما يفضى الى زيادة قدرتها على زيادة ما تنتج واصداره ، وزيادة ما تستورد ، فهذا عمل يوسع أفق الاقتصاد العالمى ، فيجدى على البلد الذى تنمى موارده وعلى البلاد الأخرى التى تبحث عن موارد تشتترى منها واسواق تصدر اليها . فاذا ازداد مقدار الاقتصاد العالمى ، ازداد نصيب كل منتج منه . وهذا هو العلاج الناجع الطويل المدى لمشكلة الاقتصاد العالمى .

فلذلك جعل ترومان مدار «النقطة الرابعة» ، الدعوة الى «خطة

جديدة جريئة» لبذل العون للمناطق المتخلفة في نموها الاقتصادي . فلم تكذب تنقل أنباؤها حتى ظن كثيرون من رجال السياسة والاقتصاد ، وأخطأوا الظن ، انها تطوى وراءها تدفق مئات الملايين من الدولارات لتنمية هذه الموارد على غرار مشروع مارشال ، فلما عرضت المسألة على مجلس الاقتصاد والاجتماع منذ أشهر ، وحصر البحث في حدود « المساعدة الفنية » قال مندوب الهند ساخرا : « ليست جديدة ، ولا جريئة ، ولا هي خطة » .

ولكن البحث أسفر عن توضيح الغرض والوسيلة . أما الغرض فليس رفدا يبذل ، ولكنه كالشرارة التي تشعل النار . ففي كثير من هذه المناطق التي وصفت بعبارة « المتخلفة في نموها الاقتصادي » موارد عظيمة طبيعية وبشرية كامنة ، فهي تحتاج الى معونة فنية لتنميتها والانتفاع بها أوفى انتفاع وتقتضى مجهودا كبيرا تبذله حكوماتها وشعوبها ، وأموالا ضخمة تثمر في المشروعات التي يعدها الفنيون حتى تؤتى خيرها . وأما الوسائل فثلاث : مبالغ تخصصها الولايات المتحدة كل سنة فتنفقها وحدها أو بالاشتراك مع الأمم المتحدة ، على الخبراء الفنيين الذين تطلب معوتتهم في هذه المناطق ، فيتولون مع خبراء البلد نفسه استطلاع الموارد ، ودراسة المشروعات ، ثم يعاونون اذا طلب منهم ذلك ، في حسن تنفيذها . وقد طلب ترومان من الكونجرس أن يرصد للمعونة الفنية ٤٥ مليون دولار في السنة الأولى ، وهو مبلغ ضئيل ، اذا قيس بمئات الملايين التي تطلع اليها بعضهم ، وقد وصفه أحدهم في نيويورك تايمز بقوله : « تمخض الجبل فولد فأرا » . وأما الوسيلة الثانية فهي المال الذي ترصده الأمم المتحدة

لهيئاتها الخاصة ، كهيئة الطعام والزراعة ، وهيئة الصحة العالمية وغيرهما • وقد وضع تقرير منذ عهد قريب فأوصى بتخصيص ٨٥ مليون دولار تنفق في بحر سنتين ، ففتيح لهذه الهيئات الفنية أن تعاون الحكومات المحلية في كفاح الأمراض وزيادة الانتاج الزراعي وهكذا •

ولكن ذلك كله لا يغنى عن الاستعانة بمبالغ كبيرة من المال ، ومقادير كبيرة من المعدات الزراعية والصناعية ، لتنفيذ المشروعات العمرانية ، فالاعتماد في هذا الباب يكون على الهيئات الدولية مثل بنك التعمير ، والشركات الخاصة القادرة ، ثم على الحكومات والجماعات المالية المحلية •

بيد أن الأموال الخاصة — أى أموال الشركات — لا يعريها أن تقدم الا اذا ضمن لأصحابها سلامة مالهم وتحويل ربحهم المعتول الى نقد بلادهم ، ومن أجل ذلك يقترح ترومان أن يفاوض في عقد معاهدات لهذا الغرض وأن يوصى بنك الاصدار والاستيراد بضمان المال الخاص الذى يثمر في مشروعات سليمة لقاء جعل صغير . فاذا أحسن تطبيق هذه الخطة ومضت قدما دون تلهف على الثمر العاجل ، فانها تجدى على الزمن في رأى كثيرين ، في علاج المشكلة الاقتصادية العالمية من أصولها ، بتوسيع آفاق الاقتصاد العالمى ، انتاجا وتبادلا ، وبزيادة قدرة الملايين على الانتاج والشراء في المناطق التى تعد اليوم متخلفة في نموها الاقتصادى •

كان مشروع مارشال علاجاً لحالة طارئة ، ولكن خطة النقطة الرابعة تنظر الى ما وراء الطارئ ، عسى أن تقيم ركنا اقتصاديا سليما لعالم ينعم بالحرية والرخاء •

المساعدات الفنية

في العصور المتلاحقة منذ فجر التاريخ ، كان الأئمة من رجال الفكر ، يخرجون في الحين بعد الحين بآراء جديدة ، أو مذاهب جديدة ، في الأخلاق ، أو في العلم ، أو في الاجتماع ، فلا يلبث بعضها حتى يصير كالمصباح يكشف الطريق فيهدى به الناس ولكن سير الفكرة الجديدة من دماغ صاحبها ، الى أن تصبح منبثة متغلغلة في طوايا الاجتماع البشرى ، تؤثر في حياة الناس يوما بعد يوم ، لم يكن في عهد ما ، منذ فجر التاريخ سيرا هينا ، فهي كثيرا ما تلقى المعارضة والمقاومة وكثيرا ما يئمنى صاحبها ، وأنصارها من بعده ، بالاضطهاد ، وقد تثار الحروب من أجلها ، الحروب التي يتقاتل فيها البشر ، والحروب التي عدتها البيان والدليل . وهذا الوصف ينطبق أكثر ما ينطبق على رسل الدين ، ومصلحي الاجتماع وأئمة العلماء .

ويقابل هذا التيار ، في النهوض بالاجتماع البشرى ، تيار آخر ، يرتد الى ابتكار الوسائل التي تغير بطبيعتها ، وبمجرد الاقبال عليها من البيئة الاقتصادية والاجتماعية ، التي تعيش فيها جماعات البشر . فكشف النار واختراع العجلة في فجر التاريخ صنعا ذلك ، واختراع محرك الاحتراق الداخلى ، واثاحة الوقود السائل المستخرج من النفط ، صنعا ذلك أيضا في عصرنا هذا . فقد برحت القاهرة في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت ، وحطت بى الطائرة في مطار نيويورك في الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد . ولولا محرك الاحتراق الداخلى ، ووقود الطيران المصفى لكان اجتياز

خمسـة آلاف أو ستة آلاف من الأميال بهذه السرعة ، ضربا من ضروب الخيال . وهأنذا الساعة واقف أمام مذياع — وهو وسيلة جديدة — أحدث العالم العربى ، من دار الأمم المتحدة هنا فى ليك سكسيس فلا أكاد أنبس بكلمة حتى تقع فى مسمع من يتفضل من اخوانى فى العالم العربى ، بالاستماع الى :

جميع هذه الخواطر ، وكثير على غرارها ، جالت فى ذهنى ، حين خرجت من اجتماع اللجنة الاقتصادية العامة فى ليك سكسيس ، منذ أيام ، على أثر اتخاذها ، قرارا عسى أن يثبت الزمن انه من أخطر القرارات التى اتخذت فى هذه الدار وأجداها على الناس . وهذه اللجنة لم تزل ، منذ افتتحت هذه الدورة ، تتناقش فى موضوع النهوض الاقتصادى فى الأمم التى لم تزل متخلفة فى نموها الاقتصادى . والقرار الذى اتخذته ، يقضى بعقد مؤتمر تدعى اليه جميع حكومات الدول المتمتعة بعضوية الأمم المتحدة ، أو احدى هيئاتها الخاصة لتنظيم برنامج المعونة الفنية التى ينبغى أن تسدى الى الأمم التى تحتاج اليها . وقد اتخذ هذا القرار بالاجماع ، ولعل لجنة عامة من لجان الجمعية العمومية ، لم تتخذ من قبل قرارا فى موضوع خطير الشأن كهذا الموضوع ، بالاجماع . فقد أيدته جميع الدول على اختلاف نزعاتها السياسية ونظمها الاقتصادية ولم تشذ عن الموافقة عليه دول الكتلة السوفيتية نفسها ، التى دأبت على معارضته متهمة الدول التى اقترحته ، وسارت فى طليعة الدعوة اليه ، بأنها انما تفعل ما تفعل ، لكى تقبض بأيديها على اقتصاد هذه الأمم المتخلفة فى نموها الاقتصادى ، وتشر فيه استعمارها . وفى هذا الاجماع شىء غير قليل من الرجاء .

ويلوح لى أن فكرة بذل المعونة الفنية ، للأمم المتخلفة فى نموها الاقتصادى ، والتمهيد بذلك الى نهوضها الاقتصادى ورفع مستوى الحياة فيها ؛ هى فكرة تجمع فى حدود تعريفها البسيط ، بين التيارين ، اللذين يدفعان العمران البشرى ، دفعا الى أمام ، وهما التياران اللذان أشرت اليهما فى مستهل الحديث •

أما فكرة التكافل الاقتصادى العمرانى على هذا النطاق الواسع بين الدول التى بلغت شأوا بعيدا من التقدم الاقتصادى ، وبين الأمم التى لم تزال متخلفة فى نهوضها الاقتصادى ، فتكاد تكون جديدة فى الاجتماع البشرى ، وان كان التكافل بين الناس من أصول الرسائل الدينية العلوية التى تهدى الناس الى الخير • وأما فكرة اصلاح البيئة الاقتصادية ، فقد صارت بعضا من عقيدة راسخة فى أذهان المصلحين فى هذا العصر ، ومبدأها أن العالم لا يستطيع أن يعيش فى سلام ورخاء ، ما دام بعضه راسفا فى قيود القلة والفاقة والمرض • ولذلك حرص ميثاق الأمم المتحدة ، فى مستهله ، على التنويه بأن تعزيز الأحوال التى تتيح التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، من أهدافه الأولى ، كما حرص على انشاء مجلس الاقتصاد والاجتماع ، وجميع الوكالات المختصة التابعة له ، لتبذل كل سعى فى طوقها ، لتحقيق هذا الهدف • ولعل أحدا لا ينسى عمل وكاليتين من هذه الوكالات ، وكالة الصحة العالمية ، ووكالة الطعام والزراعة ، فعملهما حتى اليوم برغم جدة العهد بهما ، وقلة المال المتاح لهما ، هو مثال باهر على هذا الاتجاه العالمى الجديد ، الذى يرجى له أن يجدى أحسن الجدوى ، اذا مضى فى سبيله •

وقد اشتهرت فكرة المعونة الفنية ، التى يراد بذلها ، للأمم المتخلفة فى نموها الاقتصادى ، بعد أن حرص الرئيس ترومان على أن يخصصها بالذكر ، ويدعو إليها فى خطبة رياسته التى ألقاها فى اليوم العشرين من شهر يناير ١٩٤٩ ، ولسنا نريد أن نغض من فضل ترومان فى هذا الباب ، إذ أفرغ الرغبة العامة فى مقترح واضح المعالم ولكن الفضل الأول فى ذلك يعود الى الأمم المتحدة ، التى جعلت « التعاون الدولى فى حل المشكلات الدولية ، الاقتصادية والثقافية والانسانية » غرضاً من أوائل أغراضها . وفى الدورة الأولى التى عقدتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، اتخذت الجمعية قراراً قالت فيه : ان بعض الدول الأعضاء يحتاج الى مشورة الخبراء فى ميادين النهوض الاقتصادى ، والاجتماعى والثقافى ، وان الأمم المتحدة تعترف بتبعتها فى بذل العون لهذه الدول ، وتعترف أيضاً بأن هذا النهوض لا غنى عنه للسلام والرخاء فى العالم ، وان الوكالات المختصة التابعة لمجلس الاقتصاد والاجتماع ، هى الأداة المختصة فى هذا الباب ، فهى لذلك تعهد الى مجلس الاقتصاد والاجتماع بدراسة خير الوسائل وأجداها للقيام بهذه التبعة .

فهذا القرار الذى اتخذته الجمعية العمومية فى شهر ديسمبر ١٩٤٦ هو الأصل ؛ الذى تحدثت منه النقطة الرابعة ، وجميع المباحثات والمناقشات التى دارت فى الأمم المتحدة وغيرها ، وأخذت تتكشف اليوم عن خطة عالمية يزداد وضوحها شيئاً فشيئاً . فالنهوض الاقتصادى والاجتماعى فى الأمم المتخلفة ، هو فى الواقع مهمة الأمم المتحدة فى المقام الأول ، لا برنامج أمة واحدة ، هى الأمة التى تكلم الرئيس ترومان بلسانها .

نعم ان الولايات المتحدة تنوى وفقا لبيان رئيسها ، أن تمضى فى القيام بما تراه تبعة واقعة على كاهلها ، وقد طلب الرئيس ترومان من الكونجرس الأمريكى ، أن يخصص لبرنامج المعونة الفنية فى السنة الأولى ، مبلغ ٤٥ مليون دولار ، يباح بعضها الى النصف فيما أذكر ، للأمم المتحدة لتنفقها مع ما تخصصه الأمم المتحدة لهذا الغرض ، عن طريق وكالاتها الخاصة ، وتنفق الحكومة الأمريكية البعض الآخر فى هذا السبيل لهذا الغرض •

والطريق الذى يحتمل أن تسير عليه الولايات المتحدة لتحقيق هذا الغرض بين من المثل التالى : فى واشنطن العاصمة الأمريكية ، معهد اسمه معهد الشؤون الخاصة بالأمم الأمريكية ، وهو وكالة تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية ، كما ترى وكالة الصحة العالمية تابعة لمجلس الاقتصاد والاجتماع فى الأمم المتحدة • وهناك أيضا لجنة حكومية مختصة بشؤون المعونة الفنية • فالمعهد — ونطاق اختصاصه أمريكا اللاتينية — لم يزل منذ عشر سنوات أو نحوها يرسل خبراء فى الصحة العامة والزراعة والتربية الى دول أمريكا اللاتينية التى تطلب هؤلاء الخبراء ، فيعاونونها على دراسة مشكلاتها الخاصة بالصحة أو الزراعة أو التربية ، ويشيرون عليها بحلول لهذه المشكلات • وأما اللجنة فتبذل من المال المخصص فى ميزانيتها ما يعينها على اختيار الشبان النجباء ، بالاتفاق مع الحكومات أو الهيئات القومية ، فيتاح لهم أن ينفقوا فى الولايات المتحدة سنة أو أكثر أو أقل ، يتدربون فى خلالها على أحدث الأساليب الفنية فى نطاق اختصاصهم •

ومن قبل ذلك أنشأت جماعة من الأمريكيين ، شركات فى دول

أمريكا اللاتينية ، وجعلوا رأس مالها مشاركة بينهم وبين الجماعات المالية المحلية ، وجعلوا يطبقون الوسائل الفنية الحديثة في الزراعة والنقل وصناعة الألبان وغيرها ، ويدربون أبناء البلاد التي يعملون فيها ، على هذه الأساليب ، ويعلمونهم ضروبا نافعة من الحذق ، في الوقت الذي يتيحون لهم أبوابا شريفة للرزق ، وقد قطعوا على أنفسهم عهدا بأن يبيعوا نصيبهم في هذه الشركات في خلال عشر سنوات للجماعات المحلية التي تريد أن تبتاعه * وعلى غرار هذه الشركة شركات أخرى .

ومنطقة الشرق العربي هي من المناطق التي اجتمع لها لوانان من الموارد — الموارد الطبيعية ، والموارد الانسانية ، فتنمية الموارد الطبيعية ، وفقا لخطة موضوعة ، وتنمية الموارد الانسانية بتحسين الصحة ، والنهوض بالزراعة والصناعة ، وتوسيع آفاق التربية ، تكفلان للشرق العربي عودته الى المكانة التي كانت له في التاريخ ، يوم كانت الحضارة العربية معلمة الدنيا .

والوسائل التي تمهد لتحقيق الغرض كثيرة متنوعة ، وقد أبانت المناقشات التي دارت في الأمم المتحدة في الأسابيع الأخيرة ، أن هناك اجماعا على ضرورة السير في هذا الطريق ، طريق الخير العام ، وعسى أن يسفر المؤتمر الذي تقرر عقده عن برنامج واضح المعالم منسق الأجزاء ، وعسى أن لا تتخلف الدول العربية عن الاشتراك فيه والاستفادة منه بما يمهد للعمل النافع .

وقد بين لى أعضاء الوفد المصرى ، الذين توفروا على هذه الناحية من بحوث الأمم المتحدة أن المعونة الفنية ستفرغ في قوالب شتى — كإيفاد الخبراء لاستشارتهم ، أو تمهيد الطريق في الخارج

أو في الداخل لتدريب خبراء البلد الذي يطلب المعونة ، أو انشاء مراكز لايضاح أفضل الوسائل الفنية المتبعة في باب ما ، أو بناء مصانع للتجربة ، تصير بعد الامتحان والانتقان نماذج تحتذى • قالوا : وهذه المعونة فنية ، ولن تسدى الا تلبية لطلب دولة ، ولن تفرغ الا في القالب الذي تريده تلك الدولة ، ولن تجرّ في ذيولها عواقب سياسية أو حربية ، ولا غرض لها سوى انشاء اقتصاد متزن الجوانب قوامه ضروب من الصناعة والزراعة تجود في هذ البلد أو ذاك •

واتماماً للبحث سألت كبيراً في شركة تصنع المعدات الزراعية ، ما الفائدة التي تجنونها من اشتراككم مع هيئة مالية محلية ، في تنمية موارد الزراعة في بلد ما ، فقال : نحن رجال انتاج ، فكل ما يمهّد لنا في حدود معقولة من المخاطرة التي لا مفرّ منها في عالم الأعمال ، أن نزيد ما نبيعه من منتجاتنا ، نقبل عليه • فاذا كانت الأرض التي تشير اليها ، تحتاج الى عشرة ملايين دولار ، لتنمية مواردها ، اشتركنا بما قيمته خمسة ملايين من معداتنا وخبرائنا ، أو أكثر أو أقل ، واشتركت الهيئات المحلية بالباقي • فاذا تمت أعمال الاستصلاح وازداد الانتاج ، ارتفعت قيمة الأرض ، فتجنى رؤوس الأموال المحلية التي اشتركت في هذا العمل فائدها ، وأما نحن فنقسّط مالنا مع الفائدة المعقولة ، على أقساط بعيدة الآجال — عشر سنوات أو عشرين ، وهذه الأقساط تنيسّر توفيتها بازدياد النشاط الاقتصادي والدخل القومي وارتفاع مستوى العيش •

ولقيت صديقي الدكتور شارل مالك فسألته في كل هذا

فقال : ان العالم العربى لا يريد أن يقيم فى عزلة عن تيارات الرأى والعمل النافع ، أما أن يظن أن التحسن الاقتصادى والاجتماعى يمكن أن يكون بديلا من الحلول السياسية ، أو أن الحقوق يمكن أن تشرى وتباع ، فشئ مختلف الاختلاف كله .

فليس ثمة غضاضة فى الاقبال على كل مشروع اقتصادى سليم يعين على النهوض بهذه الرقعة ، نهوضا يتكافأ مع مواردها الطبيعية والانسانية ، من ناحية ، ومع مكائتها فى التاريخ وفى العصر الحديث من ناحية أخرى ، ولكن لا غنى مطلقا عن الحرص واليقظة حتى يظل « مال قيصر لقيصر » .

أزمة الطعام العالمية

فى كل صباح وكل مساء ، تتيح لنا أنباء الأمم المتحدة ، أن نبرم بها ، وننحى باللائمة عليها ، فالشقاق بين الدول الكبيرة ، يجعل مجلس الأمن عاجزا عن أن يعالج أية مشكلة ، عظمت أو دقت ، علاجا حاسما . أما أن يعالجهما على أصول من الحق والعدالة ، فأمل قد توارى ، وراء ضباب الخطب الطويلة المملة ، وأساليب سياسة القوة ، التى تمارس فى الجهر أو فى الخفاء . وأكثر برمنا منصباً على مجلس الأمن فعلى الجمعية العمومية . فهما الهيئتان اللتان تعالجان شئون السياسة ، وشئون السياسة لم تزل توزن منذ كان البشر بميزان المصلحة ، والمصالح متضاربة .

بيد أن الأمم المتحدة أنشأت هيئات فنية خاصة ، وعهدت اليها بمعالجة طائفة من المشكلات ، فى وسع الناس أن يتحرروا فى علاجها ، من نزعاتهم السياسية المتضاربة ، أو من أكثرها . وفى

طليعة هذه الهيئات هيئة الصحة العالمية ، وهيئة الطعام والزراعة .
فالأولى تعنى بصحة الناس ، والثانية تعنى بغذائهم ، وكلاهما ،
أى الصحة والغذاء ، يكفل أحدهما الآخر ، ويسند أحدهما الآخر ،
فى إقامة الصحة الاجتماعية ، وتحرير الناس من خوف المرض
وخوف الجوع .

تقرر الهيئة الأولى ، أن الصحة هى « حالة العافية الكاملة ،
بدنا وعقلا واجتماعا ، وليست مجرد انتفاء المرض والضعف ، وهى
أىضا حق أساسى لجميع البشر بغير تمييز بين جنس وجنس ،
أو دين ودين ، أو اعتقاد سياسى ، أو حالة اقتصادية أو اجتماعية » .
وتقرر الهيئة الثانية ، أن توفير المقدار الكافى من الطعام الجيد
وبالأسعار التى لا ترهق المنتج ولا المستهلك ، هو مثل لم تزل
الانسانية تصبو اليه ، وترجو الهيئة أن تدركه أو تعين على إدراكه
بالانتفاع بما أتيح للناس فى هذا العصر من معارف ومعدات .

وكلتا الهيئتين تقرر ، أن صحة جميع الشعوب ، ووفاء التغذية
فى جميع الشعوب ، شئ " لا غنى عنه فى إدراك الأمن والسلام ،
وهو رهن بالتعاون الكامل بين الدول والأفراد .

وإذا استثنينا السعى الى منع الحرب ، فلعل أخطر مشكلة
تعانيها الأمم اليوم ، هى أزمة الطعام وموارده وما له من أثر فى
صحة الناس واستقرار اجتماعهم أو اضطرابه .

يعانى البشر اليوم مشكلتين خطيرتين احدهما سياسية ، يدور
عليها البحث فى المؤتمرات العالمية ، وفى جلسات مجلس الأمن
والجمعية العمومية ولجانها السياسية ، وتكاد أنبأؤها تستأثر
بالجانب الأكبر من صفحات الصحف ، وبالقسط الأوفر من أحاديث

الناس في مجالسهم • ومدار هذه الأزمة ، هو النضال في سبيل
السلطان وأسباب القوة التي تتيح للناس — في آخر المطاف —
أن يفنوا بعضهم بعضا • وأما المشكلة الثانية فهي مشكلة الصلة بين
ازدياد سكان الأرض ، والموارد التي يخرجون منها ما يقيم الأود
ويسبغ العافية ، وقلما تستغرق أنباؤها أكثر من أسطر قليلة في
الصحف، حيناً بعد حين، وقد ينعقد لها مؤتمر ولكن يندر أن يسير
ذكره في الخافقين • ومع ذلك ليس من الغلو في التقدير ، أن نقول
ان الأزمة الثانية ليس أقل شأناً من الأولى ، بل في الوسع أن نقول،
ان مشكلات الأزمة الأولى ، لن يرجى لها حل مرضى ، ان لم تحل
مشكلات الأزمة الثانية • فاذا أهملت مشكلات الأزمة الثانية ،
لم يكن بدّ من أن تتفاقم مشكلات الأزمة الأولى وتستفحل •

وأساس هذه المشكلة في نظر فريق من العلماء ، وفي طليعتهم
جولييان هكسلي ، أن موارد الأرض لا تكفي سكانها • ولو أردنا
أن نرفع مستوى التغذية لجميع سكان الأرض ، الى معدل مقبول ،
خلال ربع القرن المقبل ، لوجب أن يضاعف مقدار الطعام الذي
كان ينتج في السنة السابقة لنشوب الحرب العالمية الثانية وهذا
شيء لا يمكن أن يتم في سنة أو سنتين ، وفي خلال ذلك يزداد عدد
سكان العالم نحو مئتي مليون كل عشر سنوات • أى أن سكان
العالم، يزدادون ازديادا يفوق ازدياد موارد الطعام • وفي الوقت الذي
يزداد فيه سكان العالم ، نحو عشرين مليونا كل سنة ، ترى الانسان
الحديث قد أقتن سلاحين لتدمير الحضارة ، أحدهما الأسلحة
الذرية ، والثاني تفتت تربة الأرض وانجرافها • والسلاح الثاني
أشد خطراً على الحضارة من الأول • فالحرب ، والتقاتل بالأسلحة

الذرية ، يدمّر البيئة الاجتماعية التى تنبت فيها الحضارة • وأمّا
تقتت التربة وانجرافها وما يلحق ذلك من قلة الأرض المنتجة ، فيدمر
البيئة الطبيعية التى تنبت فيها الحياة نفسها •

هذا مجمل رأى هكسلى ومن يجاريه • ولكن رأيه لا يسلم
من النقد ، والذين يسددون اليه سهامه ، ليسوا أقلّ منه رسوخا
فى علوم الأحياء ، بل هم أعلى منه كعبا فى علوم الزراعة ، وفى
طليعتهم السير جون رسل ، رئيس المجمع البريطانى لتقدم العلوم
وكبير علماء الزراعة فى بريطانيا •

ورسل لا ينكر حدة أزمة الطعام التى يعانىها العالم • والناذر
الذى طلع به جوليان هكسلى فى العهد الأخير ، طلع بمثله على العالم
من قبل ، مالثوس فى سنة ١٧٩٨ ، والسير وليم كروكس فى
سنة ١٨٩٨ ، ومن أقوال كروكس ، أن سكان العالم الذين يزداد
عددهم ازدياداً مطّرداً ، سوف يواجهون مجاعة فى سنة ١٩٣٠ ان
لم يزد معدل المحاصيل التى تنتجها الأرض المزروعة ازديادا كبيرا •
ولكن العهد الذى تلا نذير السير وليم كروكس ، شهد فيما شهد
صنع الأسمدة الكيماوية ، بعد أن ابتكرت طريقة لتثبيت نتروجين
الهواء ، كما شهد وجوها مختلفة فى تقدم فى أسباب الزراعة ،
العلمية والعملية ، وتحسين أصناف النبات وزيادة انتاجها بالتأصيل ،
فجاءت سنة ١٩٣٠ ومرت ولم يمن العالم بالمجاعة التى توقعها
كروكس ، والعلماء الذين يجارون رسل فى رأيه ، يذهبون الى أن
الاتقاع بالمعارف العلمية الحديثة فى الزراعة ، والتعاون الدولى
على تطبيقها ، ينبغى أن يزيد موارد الطعام زيادة كافية • وقد طلع
على الناس منذ عهد قريب عالم يقول ان الكيمااء كفيلة بتحويل

مادة السلولوس الخشبية الى ضروب من موارد الطعام ، فان صح ما يقول كان في ذلك وسيلة جديدة لزيادة موارد الطعام ، تضاف الى غيرها • وحجة هذا الرجل أن معدة الانسان لا تستطيع أن تهضم السلولوس ، وأن تحويل السلولوس مع مواد غذائية أخرى ، الى لحم في الأنعام كالضأن والبقر وغيرها ، ليس عملاً مجدياً جدوى كافية ، فالعجل لا يحول الى لحم سوى ١٢ في المائة مما يأكل ، ان حسن أكله والى أقل من ذلك ان لم يحسن ، وأن تحويل السلولوس بالكيماء الى مواد غذائية كالسكر والبروتين وغيرهما أجدى كثيراً • وهذا مستطاع • والرجل يرى أنه اذا انتفعنا بعلوم الكيماء كان في وسع الأرض أن تكفل غذاء ١٥ ألف مليون من الناس بدلاً من ألفى مليون وربع مليون •

وعلى كل حال فان هيئة الطعام والزراعة التابعة للأمم المتحدة قد أعلنت في دستورها أن أغراضها تتلخص في رفع مستوى التغذية ومستوى المعيشة لجميع شعوب الأرض ، والسعى الى زيادة الكفاية في انتاج الطعام وسائر المحصولات الزراعية وتوزيعها ، وتحسين حال الجماعات الكبيرة التي تسكن الريف ، فتسدى بذلك كله يدا الى انتعاش الاقتصاد العالمى واطراد اتساعه •

وقد ولدت هذه الهيئة من مؤتمر عقد في أثناء الحرب ، للبحث في أجدى الوسائل التي تكفل للناس احدى الحريات الأربع — التحرر من العوز • ثم وضع نظامها في مؤتمر تال ، وكان بين الأمور التي اتفق عليها أعضاؤه أن ثلثى سكان العالم ، ينالون ما هو دون الكفاية من الغذاء ، وأن صحتهم خليقة أن تتحسن ، وعافيتهم أن ترتد ، اذا نالوا قدرا وافيا من الغذاء الملائم ، وأن فلاحى العالم ،

هم ثلثا سكانه ، وأنهم يستطيعون أن ينتجوا الكفاية من مواد الطعام اذا استعانوا بمعارف العلم الحديث وأساليبه ، وأن ازدياد الانتاج وتحسين وسائل التوزيع ، يكفلان عملا لجميع الناس ، فاذا نحن في رأس تيار اقتصادى اجتماعى زاهر ينتهى الى القضاء على الفاقة والعوز ، وأن تحقيق هذه الأغراض لن يتم الا عن طريق التعاون بين الدول ونشر المعارف والتنظيم الاقليمى ، وهذا هو أسلوب الهيئة فى عملها •

وعلى ذكر المساعى التى تبذلها هيئة الطعام والزراعة لتحقيق هذه الأغراض ، أحب أن أعرض بالذكر لنصيب الشرق الأدنى ، من هذه المساعى ، وما يستطيع أن يسديه لنفسه وسائر العالم فى هذا الميدان النافع •

ان منطقة الشرق الأدنى هى احدى المناطق ذات الشأن العظيم فى العالم اليوم ، لما فيها من موارد زراعية وافرة تستطاع تنميتها ، فاذا طبقت فيها المعارف الفنية والعلمية أفضى ذلك الى منافع دائمة • ففى الوسع زيادة الانتاج الزراعى فيها حتى يصير كافيا لسد الحاجة ، وربما كان هناك فائض للاصدار •

فأولا — فى الوسع زيادة مساحة الأرض التى تصلح للزراعة ، وهذا يتم فى المقام الأول بتوسيع نطاق نظام الرى المتبع • فموارد المياه غزيرة ، والأرض التى تصير صالحة للزراعة بالرى واسعة ، فالمشكلة هى كيف يتم الانتفاع بالأساليب الحديثة فى ضم هذين الموردين — الماء والأرض — ضما يفضى الى النفع العام •

ان ضغط السكان على الأرض فى مصر ، هو أعلى ما يعرف من هذا القبيل فى العالم • والانتفاع أحسن الانتفاع بالأرض الصالحة

للزراعة فيها عن طريق الري لم يزل معروفا مشهورا منذ زمن •
ولكن المساحة الصالحة للزراعة يمكن زيادتها من خمسة ملايين
ونصف مليون فدان الى سبعة ملايين فدان • وهذه الزيادة لها
خطرها العظيم ، لوفرة انتاج الفدان الواحد في السنة •

وسوريا قليلة السكان ، لا يزيد عددهم على ثلاثة ملايين
ونصف مليون ، والأرض التي تزرع في السنة لا تزيد على أربعة
ملايين فدان ، ولكن في الوسع زيادتها الى عشرة ملايين فدان ، منها
ثلاثة ملايين الى خمسة ملايين فدان تنتفع بنظام الري ، بدلا من
نصف مليون فدان تروى الآن •

أما العراق ففيها قدرة على الانتاج الزراعى تجعلها في طليعة
بلاد العالم من هذه الناحية • فوادى دجلة والفرات ينطوى ثراه
على تحد عظيم لعزائم رجال الفن والعلم ، وعلى أمل عريض
لعالم لا يزال يحتاج الى زيادة كبيرة في موارد طعامه • والرأى أن
هذا البلد كان فيما مضى يكفى عشرة ملايين من الناس
يسكنونه ، وأما سكانه اليوم فأقل من خمسة ملايين ، والمساحة
المزروعة أقل من ستة ملايين فدان ، وقد عمل غير تقدير واحد
لزيادة الأرض الصالحة للزراعة بالري في العراق ، فاذا أقلها أن
الستة ملايين فدان أو أقل يمكن أن تصير عشرين مليوناً •

وثانياً — يضاف الى زيادة المساحة الصالحة للزراعة ، الانتفاع
بالأساليب الحديثة في الانتاج • وهذا تحد أيضا موجه الى رجال
العلم الزراعى الحديث •

ان تحسين البذور المستعملة في الزراعة وتأصيلها وتحسين
أصناف النبات من المسائل التي لم تزل في الشرق الأدنى عملا

لا يجارى التقدم الحديث على العموم • وقد أحسن تطبيق هذه الأساليب على بعض المحصولات كالقطن ، والموالح ، والبلح ، ولكن المجال فسيح ، ولا سيما فى تطبيق هذه الأساليب على محاصيل المواد الغذائية كالقمح والشعير والذرة والخضر والفاكهة وغيرها •

وتحسين الماشية والأنعام هو أيضا ميدان فيه مجال واسع للعمل المجدى • فوزارة الزراعة المصرية لم تزل منذ سنوات تعمل على تحقيق مشروع عظيم نافع غرضه مضاعفة مقدار اللبن الذى يدره الجاموس •

وإذا قسنا مقدار اللبن الذى يدره البقر أو الجاموس أو الماعز أو غيرها فى الشرق الأدنى بما يدره أمثالها فى بلاد أخرى وجدناه قليلا • ومقدار اللبن الذى تدره هذه الحيوانات أقل كثيرا مما يحتاج اليه سكان هذه المنطقة فى مجملها •

أما آفات الزراعة والأمراض التى تصيب النبات والحيوان فى الشرق الأدنى فكثيرة ، فصدأ القمح وذباب الفاكهة والجراد والحمى القلاعية والطفيليات وغيرها ، آفات تقتضى أن ينتفع فى كفاحها بعلوم الباثولوجيا والحشرات والبيطرة والكيمياء وغيرها •

وقد زاد استعمال الآلات الزراعية وينبغى للزيادة أن تطرد ، ولكن مجرد زيادتها لا يكفى ، بل ينبغى أن يلاءم بينها وبين الأحوال المحلية التى تستعمل فيها ، حتى تؤتى أعظم نفعها •

وثالثا — تلوح من وراء هذا كله مسألة خطيرة : أينتفع بتحسين أساليب الزراعة وزيادة الانتاج والايراد ، لرفع مستوى العيش بين جماهير الفلاحين ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يقتضى بحثا

وعملا في ميادين شتى ولكنها مترابطة ، كتنوع المحاصيل ، وغذاء
الفلاح ، والاعتمادات الزراعية ، وعلم الاجتماع الريفي والاقتصاد
الزراعي ، وتعديل توزيع الأملاك الزراعية •

ورابعا — كان الشرق الأدنى المنبت الأول في التاريخ لطائفة
كبيرة من أهم النباتات التي استأنسها الانسان ثم زرعها واستغلها ،
والأمثلة على ذلك كثيرة ، مثل القمح والشعير والذرة والزيتون
والبن وغيرها • وهذا يشير بالاستنتاج الى أن أرض الشرق الأدنى
غنية بالمادة الحية التي يتولد منها النبات • والملاحظات العلمية
الحديثة تؤيد هذا الفرض ، فهذا الموضوع ينبغي أن يكون ميدانا
واسعا للبحث المنظم والاستقصاء الدقيق • والشرق الأوسط لم
يزل منذ أقدم العصور ينتفع بالرى في أودية الأنهر العظيمة : النيل
والفرات والدجلة ، وقد أنشئت نظم عجيبة للرى في العصور
القديمة في الجزيرة العربية ، وليس ثمة ريب في أن استطلاع هذه
النظم القديمة يفضى الى حقائق ينفع تطبيقها في العصر الحديث
أعظم نفع •

فهذا الموضوع ، موضوع تحسين الزراعة في الشرق الأدنى ،
بفروعه المتعددة ، النظرى منها والعملى ، هو ميدان للتعاون بين
شعوب الشرق الأدنى وحكوماتها من ناحية ، ثم بينها وبين خبراء
العلوم الزراعية الحديثة من ناحية ، سواء أخذناهم بحكم برنامج
النقطة الرابعة أو خطة المعاونة الفنية التي وضعتها الأمم المتحدة •

عودة إلى العقل

قال الشاعر العربي : والعقل خير مشير ضمّه النادى •
قد يقتتل الناس فى سبيل النفط والفحم ، لأن الصناعة لا تستغنى
عن أحدهما الآن ، لتدير الآلات المتحركة فى المصانع ، أو السيارات
والطائرات والسفن المتحركة على الأرض أو فى الهواء والماء • وقد
يكون توزيع النفط والفحم فى جوف الأرض توزيعا لا تعادل فيه
بين الأمم ، ان أخذنا بالحدود الجغرافية القائمة الآن ، ولكن العقل
يستطيع أن ينشئ النظام الذى يتاح فيه لكل أمة ما يكفى
حاجتها المشروعة • على أن العقل لا يقف عند هذا الحد ، بل هو
يسعى ، من طريق الأداة التى اخترعها — أداة العلم — الى بلوغ
اليوم الذى تصبح فيه موارد الطاقة المحركة ميسورة للجميع
كالهواء فى جو الأرض ، أو كالخضرة على سطحها ، أو كالأشعة
التي تملأ رحاب الكون •

فالطاقة المستخرجة من الذرات أو من ضوء الشمس خليفة
أن تكون الأداة المرموقة لقلب أساليب العيش فى المستقبل رأسا
على عقب • فإذا تمكن العلماء بعد اطلاق الطاقة الكامنة فى الذرات
من الانتفاع بها فى توليد الطاقة المحركة الرخيصة الميسورة ، أو اذا
استطاعوا أن ينفذوا الى سر الأوراق الخضراء فى التقاط طاقة الشمس
و تخزينها ، فقد يكون العصر المقبل عصرا تتوافر فيه الطاقة المحركة
توافر الهواء الذى تتنفسه أو الماء الذى نروى ظمأنا به •
فالناس يعتمدون الآن على الفحم أو على النفط ومشتقاته ،
أو على الطاقة المولدة من الماء المنحدر • والمصدران الأولان من

والنبات الأخضر هو أعظم أداة وأدق أداة لتحويل طاقة الشمس الى أشياء تنفع الناس • وطريقته في هذا التحويل يطلق عليها وصف « التركيب الضوئي » • أما سرّها فلم يبيح تماماً للعلماء حتى الآن • فالنفوذ الى هذا السر في طبيعة مشكلات العلم ، بل في طبيعة مشكلات الحضارة • فعلى السياسة التى تبيح لمعدات الحرب ألوف الملايين من الجنيهات ، أن تبيح للباحثين فى هذا الموضوع ما يكفيهم من المال للبحث ، فاذا وفقوا الى حل المشكلة كان ذلك خطوة كبيرة نحو تحقيق احدى الحريات الأربع التى يريدها الناس أركاناً للعالم المرتجى ، وهى التحرر من العوز والفاقة •

وهذه المشكلة تعالج من ناحيتين • أما الأولى فدراسة أسرار النمو فى النبات ، وهذا يتيح للعلماء والزراع متعاونين ، زرع نبات يفوق مئات الأضعاف النبات الذى يزرع الآن فى جميع أنحاء الأرض ، فيحوّل جانب كبير منه الى مصادر تستخرج منها الطاقة بأساليب جديدة •

وأما الثانية فالبحث الكيمائى الأصيل فى التفاعلات التى تمكن العلماء من تقليد الورق الأخضر ، أو مجاراته فى تركيب الكربون (المنتزع من ثانى أكسيد الكربون) والايديروجين (المنتزع من الماء) فى مركبات تشبه المثلين (غاز المستنقعات) أو البنزين ، ثم اضافة الأكسجين الى هذه المركبات للحصول على السكر والخشب والفحم ، ثم اضافة النتروجين للحصول على البروتين • ومن هذه المركبات الأساسية تصنع مركبات أخرى متعددة تعد جزئياتها مخازن للطاقة •

ومتى حل العلماء مشكلة التركيب الضوئى وأنشأوا طريقتهم

الخاصة لآزن طاقة الشمس المشعة ، فقد تكون هذه الطريقة مماثلة فى أصولها لطريقة الأوراق الخضر ، وقد تكون أجدى منها وأكفاً • فالناس بوجه عام يعتمدون ، بغير اهتمام بالمستقبل ، على قدرتهم أن يتناولوا الطاقة من الفحم والنفط وما أشبه • ولكن مثلهم فى ذلك كمثل التاجر الذى ينفق رأس ماله أو يبعثه رويدا رويدا • ولذلك يذهب العلماء الى أن البحث فى هذا الموضوع ، ليس بحثا نظريا وحسب ، بل هو بحث نظرى فتان وعملى خطير فى آن • وإذا لم ينتبه أقطاب الحكومات والشعوب الى هذا البحث حالا ، ويرصدوا المال الوافى للعلماء ، ليشرعوا فى دراسته دراسة عميقة واسعة ، فقد يواجه البشر المشكلة ، وليس بين أيديهم الأدوات اللازمة أو المعرفة الكافية لحلها • وقد يصاب الناس من جراء ذلك بنقص فى الطاقة المتاحة لهم اذا أهمل هذا البحث •

مهما تكن وجوه التحول السياسى والاجتماعى التى يحتمل أن تطرأ على حياة البشر فلا مفر من اطراد اعتمادهم فى الحرب والسلم على الموارد المعدنية ، أو ما يحل محلها • ومهما تكن قواعد النظام العالمى الذى يكافح فى سبيله ملايين من الرجال والنساء ، فلن يصبح هذا النظام حقيقة واقعة الا اذا كان ملائما لخصائص الطبيعة البشرية ، وأوصاف الموارد المتاحة لهم فى الأرض أو فى طبقات الأرض •

وقد دل البحث الدقيق المحكم فى موارد القارات جميعا على أن فيها موارد وافية من المعادن الأساسية ، أى أن الطبيعة تتيح فرصا متساوية للناس أو تكاد تتساوى ، ولكن الناس اختلف شأنهم حتى الآن فى اغتنام هذه الفرص واستغلالها • الا أن الطبيعة لا تميل

الى انزال كل قارة عن الأخرى واستكفائها • والقول بأن كل قارة
تحتوى فى طبقات ثراها موارد معدنية وافية ، ليس صحيحا على
اطلاقه ، حتى اذا سلمنا بأن بعض المعادن يصلح للاستعمال محل
بعض آخر — كاستعمال النفط المستقطر من الفحم بدلا من النفط
الطبيعى فى قارة أوربة — وجدنا شذوذا على القاعدة العامة •
ففى معظم المناطق التى ارتقت فيها الصناعة وازدحمت منشآتها ،
نجد قلة ظاهرة فى موارد القصدير ، فلا يكاد يكون فى ثرى القارة
الأمريكية الشمالية ركاز قصدير ، وفى قارة أوربة موارد قصدير
يسيرة ، لا تزود تلك القارة بأكثر من خمسة فى المائة مما تستهلكه
من هذا العنصر • وكذلك قل — على تفاوت — فى النيكل
والراديوم واليورانيوم وغيرها •

فاستغلال موارد الأرض المعدنية المتاحة استغلالا كاملا يقتضى
تنظيم حياة الأمم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، على أساس
عالمى ، يضع العقل أركانه على أساس البحث العلمى • ويقول
مايذر أستاذ علم طبقات الأرض فى جامعة هارفرد : ان اكتفاء كل
قارة وعزلتها أمر لا يقره علم طبقات الأرض • فليست هناك قارة
ما تستطيع أن تزود الشعوب التى تقطنها بالمقادير الكافية من
جميع المعادن اللازمة للحضارة ، وأن تكفى حاجات جميع الناس •
فالاستغلال التام لموارد الأرض لا يتم الا اذا ساهمت كل قارة
بنصيب فى سبيل الخير العام ، ولا مفر للعالم الجولوجى — على
قول مايذر — من القول بأن تنظيم هذا الاستغلال على أساس
عالمى أدنى الى تحقيق الخير العام •

على أن العقل العلمى استهل فى العهد الأخير فصلا جديدا

وكتب فيه آيات تبشر بتخفيف ضغط الحضارة الحديثة على موارد الأرض التى تنفذ مهما تكن عظيمة ، وذلك باستحداث موارد كثيرة تحل محل المعادن ، ولا تنفذ . فموارد الطبيعة طائفتان بوجه عام ، احدهما طائفة المعادن التى تكونت فى جوف الأرض فى أحوال جولوجية خاصة عريقة فى القدم ، وهذه الموارد مصيرها الى القلة والنفاذ . والثانية طائفة المواد التى تتجدد كل سنة ، لأن التراب والماء والهواء وضوء الشمس تتعاون على تجديدها ، فهى لن تنفذ الا اذا انصرف الناس عن الزراعة . والعلم الحديث أثبت أننا نستطيع أن نصنع من موارد الطبيعة التى تخرجها تربة الأرض طاقة كبيرة من المواد التى كنا نعتمد فيها على المناجم والآبار . فمئات من اللدائن الكيميائية تحل الآن محل عشرات من الفلزات فى مئات من وجوه الاستعمال .

ولنضرب على ذلك مثلا واحدا ، هو حبة من فول الصويا ، الذى أصبح نفعه فى نظر العلماء لا يقتصر على كونه طعاما مغذيا ، بل صار يُعَدُّ مخزنا لا ينفد ما فيه من العناصر التى تصلح لاستخراج كثير من مواد الصناعة .

أقبلت شعوب الشرق الأقصى ، ولا سيما سكان الصين ومنشوريا ، منذ قرون على زراعة فول الصويا ، فغدت حبوبه موردا لطعام سكان آسيا الغربية فى منزلة موارد الخبز واللحم والدهن جميعا . أما فى أوروبا وأمريكا ففضل الناس الحنطة والذرة والشعير ، فى المقام الأول . وفى مستهل القرن التاسع عشر بدأ الأمريكيون فى الولايات المتحدة يزرعون فول الصويا ، ولكنهم لم يصنعوا منه طعاما بل صنعوا منه علفا للمواشى ، أو حرثوه فى الأرض لتسميدها

به • وقد بلغت المساحة المزروعة « فول الصويا » فى الولايات المتحدة الأمريكية بحسب الاحصاء الأخير الذى اطلعت عليه أربعة عشر مليون فدان •

ولكن أصحاب العلم الجديد — على « الكيمرجى » أى استخراج مواد للصناعة من منتجات الحقول — وجهوا النظر الى أن فى حبوب هذا الفول ذخيرة لا تكاد تنفذ • ففيها طاقة يزود بها من يأكلها ، وفيها مواد كثيرة تصلح لشتى الصناعات • وإذا كان الكيميائى الزراعى والصناعى فى هذا العصر ، لا يحيط عمله كالكيميائى القديم ، بألوان السحر وضروب الخفاء ولا يحاول أن يحول المعادن السخيفة الى معادن ثمينة ، فانه عندما يستخرج حريرا من خشب الشجر ويصنع أبوابا وصوفا ومطاطا وزيتا يحل محل النفط فى محركات ديزل ، ودهانا يدهن به الخشب والحديد من حبوب فول الصويا ، فذلك عمل يصغر فى جنبه عمل جميع الكيميائيين الأقدمين • وهذا مثل واحد وحسب على ما يستطيعه هذا العلم وغيره من العلوم •

والنتائج التى يسفر عنها بحث الباحثين فى هذا الميدان العلمى الجديد ، فى فترة قصيرة ، لا تبدو سريعة الجدوى ولا تستوقف النظر • ولكن اذا أحصى ما تحقق منها خلال السنوات العشر الأخيرة ، ثبت أنها خطوة عمرانية عظيمة الشأن لا تقوم بمال ، لأنها سبيل جديد الى استعمال الموارد الطبيعية المتجددة سنة بعد سنة ، واحلال منتجاتها محل بعض الموارد التى لا تتجدد اذا نفدت • فتأثيرها فى العمران مزدوج ، فهى تتيح للناس ما لم يكن متاحا لهم من قبل ، وهى تغنى عن معادن آخذة فى النفاد ، فتضعف من

حدة التنافس بين الدول على حيازتها •
لا يزال هذا التطور العمراني في المستهل ، فإذا قال رجال
السياسة والاجتماع ، « الرخاء » و « القضاء على العوز والفاقة »
قال رجال العلم « ليكم ، عبد بين أيديكم » ولو كان مستقبل العالم
مرتبطا بموارد الأرض ، وقدرة العلم ، وحسب ، لما كان هناك
شكّ في كونه مستقبلا باهرا ، ولكن هذا المستقبل مرتبط أيضا
بتحكيم العقل في صلات الأمم بعضها ببعض ، وبالخضوع لمنطق
المعرفة والحق • « وتعرفون الحق والحق يحرركم » فالعقل مناط
الأمّل • وهو ، كما قال الشاعر العربي ، « خير مشير ضمه النادي » •

مصير الأمم المتحدة

كان بحث مسائل اليونان ومصر واندونيسيا في مجلس الأمن ،
ومسألة فلسطين في الجمعية العمومية ، والطاقة الذرية في لجنّتها ،
وما تبدى في بحثها جميعا ، من وجوه الخلاف ، (وهى أغلب)
أو الاتفاق بين الأمم ، ولا سيما الكبيرة ، باعثا على التساؤل :
ترى ما هو مستقبل هيئة الأمم المتحدة ، وما هى القوى الرئيسية
التي تؤثر في الهيئة الدولية التي أنشئت لتكون أداة لتوطيد سلام
العالم والمحافظة عليه ؟ وما هى العقبات التي تحول دون توفيقها
في المهمة العظيمة التي أقيمت على كاهلها ؟ فمسألة مستقبل هيئة
الأمم المتحدة هى أخطر مسألة تستبد بنفوس ملايين من الناس
في جميع أقطار الأرض ، بعد ما لمسوا في سنة كاملة من النقاش
العقيم عجزها عن التقدم بحل مجد لمعظم المسائل التي تختلف فيها
الدول الكبيرة ، حتى بات الناس يسألون أنفسهم ، أفى وسع

هذه الهيئة أن تستمر بعد أن أحالها العجز عن الاتفاق أداة
مثلومة الحد؟

ونحن اذا نظرنا فى تاريخ الهيئة منذ قيامها فى أواسط
سنة ١٩٤٥ تبينا ثلاث قوى كبيرة تؤثر فيها وتوجهها • أما القوة
الأولى ، فهى ما لأعضائها الذين يقرب عددهم اليوم من ستين
دولة ، من قوة أدبية ، فقد اجتمعت هذه الدول يحدوها الأمل
أن تجعل الهيئة قوة لا ترد فى توطيد أركان الأمن والسلام ،
وتعزيز المساعى التى تسير بالانسانية قدما فى طريق الارتقاء المادى
والأدبى ، وهذه القوة غامضة غير مبلورة ، ولكنها أبدا قائمة
من وراء أعمال الهيئة وفروعها المختلفة ، وليس من الحكمة ولا من
الحقيقة أن تزدري وان سخرت أحيانا للضغط والهوى •

وأما القوة الثانية فهى وجوه الخلاف الأصلية ، بين آراء
الدول الكبيرة ومصالحها من ناحية ، وآراء الدول المتوسطة
والصغيرة ومصالحها من ناحية أخرى • فهذه هوة عظيمة بين مبدأ
تساوى الأمم الأعضاء فى الهيئة ، وحقيقة عدم المساواة فى
الواقع بينها • وأهم مظهر ظهر فيه هذا الفرق ، تنكر الدول
المتوسطة والصغيرة لحق الاعتراض فى مجلس الأمن ، فهو فى
نظرها وسيلة لتحكم الدول الكبيرة ، وقد كانت الجمعية العمومية
مجالا أعرب فيه ممثلو الدول الصغيرة على استنكارهم هذا •

وأما القوة الثالثة ، فهى العجز عن الاتفاق بين روسيا من ناحية
وجماعة الدول غير السوفيتية من ناحية أخرى ، ولا سيما
الولايات المتحدة وبريطانيا ، أو اذا شئت أن تفرغ القول فى
أبسط قوالبه ، فقل انها العجز عن الاتفاق فى معظم الأمور بين

روسيا وأمريكا ، وهذا العجز بين في معظم مراحل الهيئة منذ نشأتها حتى اليوم ، وقد برز بروزا خطيرا في جميع المباحثات الخاصة بالقوة الحربية التابعة لمجلس الامن ، وبالهيمنة على الطاقة الذرية ، وتقييد الأسلحة المعروفة ، ثم تراه بينا في مشكلات ايران واليونان وكوريا والمساومة على ضم دول جديدة الى الهيئة أو انتخاب أعضاء جدد في مجلس الامن .

وقد فرغت الدول التي مثلت في سان فرانسيسكو من وضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة في شهر يونيو من سنة ١٩٤٥ ، وأصبحت هيئة الأمم المتحدة ، هيئة قائمة في شهر أكتوبر من تلك السنة ، يوم بلغ عدد الدول التي أبرمت الميثاق تسعا وعشرين دولة ، ومن غرائب الاتفاق أن روسيا السوفيتية كانت الدولة التاسعة والعشرين ، وعقدت الجمعية العمومية اجتماعها الأول في لندن في يناير ١٩٤٦ ، فعنيت هذه الجمعية العمومية بتنظيم العمل في مجلس الأمن والجمعية العمومية وسائر فروع الهيئة ، ما عدا مجلس الاقتصاد والاجتماع ، ثم انتقلت الهيئة الى نيويورك ، حيث أقيم لها مقر مؤقت ، الى أن يتم تشييد مقرها الدائم في قلب مدينة نيويورك نفسها .

واذا راجعنا أعمال الهيئة في جميع فروعها ، منذ نحو سنتين ، تبينا شيئا يبشر بالخير ، وان كنا في الوقت نفسه نبرم أشد البرم ، بما نسمعه ونقرأه عن الخلاف المتمكن في مجلس الأمن ، وقصور رجاله عن الارتقاء الى مستوى المنى التي عقدتها الشعوب عليهم ، قبيل النصر في الحرب وغداته ، ويقلقنا أن يكون النظر في معظم المسائل التي تعرض عليه ، من ناحية الأغراض والمصالح السياسية

الخاصة ، لا من ناحية الحق والعدل ، على قدر ما يستطيع البشر أن يتبينوا وجه العدل والحق • ومهمة مجلس الأمن في منع الحرب أو قمعها ، هي على خطرهما احدى المهمتين اللتين ألقيتا على عاتق الأمم المتحدة ، وأما الثانية فهي ازالة الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي تمهد للحروب ، وتعزيز قوى الاخاء والتبادل والتفاهم التي تتيح للسلام والرخاء بيئة يترعرعان فيها ، وثانية المهمتين ألقى أمرها الى فروع الهيئة الأخرى المختصة بالاقتصاد والزراعة والطعام والصحة والتربية وما كان على غرارها •

ولم تكد تنظم هيئة الأمم المتحدة وفروعها ، حتى اصطدمت بعقبات خطيرة ، فمن المسائل الجوهرية التي نص عليها الميثاق انشاء قوة حربية تكون متاحة لمجلس الأمن ، وقد عهد الى لجنة أركان الحرب أن تعد ، على « أسرع وجه مستطاع » الاتفاقات التي تجعل هذه القوة متاحة للمجلس ساعة يحتاج اليها ، وقد انقضت سنتان ، ولا تزال هذه اللجنة غير متفقة على رأى تستطيع أن تقدمه في تقرير الى مجلس الأمن ، والاتفاق على هذه القوة شاق ولا ريب ، ومن الأسئلة التي ينبغي للجنة أن تجيب عنها وتفصل فيها أسئلة كهذه : ما طبيعة هذه القوة ، وهل تكون دائمة تابعة لهيئة الأمم المتحدة ، أو تكون مؤلفة من قوى تقدمها ، الدول الأعضاء ، اذا ما دعاها مجلس الأمن الى ذلك ، ومن يتولى قيادة هذه القوة المؤلفة من عناصر تابعة لدول متفرقة لكل منها عزة عسكرية تباهى بها وتحافظ عليها ، ومن الذى يتولى الانفاق على هذه القوة ، وهل تفعل الأمم المتحدة ذلك ، ثم توزع النفقات على أعضاء الهيئة ، وكيف تستعمل الفصائل المنضوية في القوة

الدولية ، أترسل فصيلة روسية مع فصيلة أمريكية مع فصائل أخرى لقمع حرب في أمريكا الجنوبية ، أم يلجأون في ذلك الى ضرب من التخصص الاقليمي ، ومن الذي يزود هذه القوة بالسلاح والعتاد ، أ يكون لهيئة الأمم نفسها موارد خاصة لتزويدها بما تحتاج اليه ، أم تزود كل أمة كتائبها الخاصة بها ، وكيف ينسق السلاح والعتاد الذي تستعمله فصائل مختلفة منتظمة في فرقة واحدة ؟

وكان هذه المصاعب كلها لم تكن كافية ، فطرات على مجلس الأمن مشكلة الطاقة الذرية الشائكة ، التي ذاع أمرها بعد توقيع الميثاق فأنشئت لها لجنة خاصة مؤلفة من أعضاء مجلس الأمن وكندا ، فاستحكم فيها الخلاف على وسائل الهيمنة عليها .

وقد زاد الطين بلة في علاج هذه المسائل وغيرها مما طرح على مجلس الأمن ، ما ذاع أمره من لجوء روسيا الى حق الاعتراض ، لجوءا يقال فيه أنه لم يكن مقصودا حين تم الاتفاق عليه في يالطا أولا ثم في سان فرانسيسكو .

فقد كان المفهوم في سان فرانسيسكو أن الدول الخمس الكبيرة ، التي هي أعضاء دائمة في مجلس الأمم ، لن تعتمد الى استعمال حق الاعتراض التي منح لها ، الا في الأقل الأندر وفي أخطر المسائل التي لها صلة بكيان هيئة الأمم المتحدة ، أو بالكيان القومي ، ولكنه لم يستعمل على هذا الوجه في معظم الأحيان ، فصار اللجوء اليه وسيلة تعرقل أعمال مجلس الأمن وتكفه عن اقرار شيء بالأكثرية حتى ولو كانت الأكثرية ساحقة — ثمانية أصوات أو تسعة أصوات من أحد عشر صوتا — ولذلك اشتد

البرم باستعمال هذا الحق على هذا الوجه ، علاوة على تنكر الدول المتوسطة والصغيرة منذ أول الأمر ، لمنح هذا الحق على الاطلاق ، ومن هنا ما ارتفع به الصوت منذ حين بوجود الغاء هذا الحق ، ولكن ينبغي أن لا ننسى أن كل قرار قد يتخذه مجلس الأمن لالغاء حق الاعتراض ، خاضع بدوره لحق الاعتراض ، فليس ثمة وسيلة في الميثاق للخروج من هذا المأزق بالالغاء ، ولذلك اتجه الرأي ، الى بحث الموضوع مرة أخرى في الجمعية العمومية ، عسى أن يتألب الرأي العام العالمى ، فيقنع الدول الكبيرة ، بضرورة الحد من استعماله ، والعودة فى استعماله الى الأغراض الجوهرية التى عينت له فى مبدأ الأمر ، وقد انشئت « الجمعية الصغيرة » لكى تواصل البحث باسم أعضاء الهيئة جميعا فى مسائل غير مدرجة فى جدول مجلس الأمن ، عسى أن يكون رأيها اعرابا عن رأى دولى عام ، فيردع هذه الدولة أو تلك عن الافراط فى استعمال حق الاعتراض .

أما ثانية المهمتين اللتين ألقينا على عاتق الهيئة العالمية فهى توفير الأحوال التى يستتب فيها السلام والرخاء ، ولو نهضت فروع الهيئة بما وكل اليها نهوضا موفقا ، لرأيناها واقفة فى أول الطريق المفضى بها الى تحقيق بعض الأمل الذى عقد عليها ، وليس هذا الطريق طريقا ممهدا ، ففيه وعورة هنا وهناك ، ولكن أعظم عقبة تعترض السير عليه هى عقبة الخلاف ، بين روسيا من ناحية والدول الغربية من ناحية أخرى ، وعجز الفريقين فى آن عن تسوية الخلاف بينهما والتعاون تعاونا وثيقا ، وفقا لحرف الميثاق وروحه ، وليس فى وسع أحد ، أن يبلغ من المعرفة الدقيقة

والتنزه عن الهوى ، مبلغا يتيح له أن يحكم لأحد الفريقين أو عليه ،
ولا يزال الرجاء معقودا على أن تردم الهوة بين الفريقين ، على
الأيام ، وإن بدت الهوة اليوم أوسع وأعمق مما كانت منذ سنتين
أو منذ سنة وحسب •

فإذا عجز الفريقان عن التقدم تقدما يذكر نحو التفاهم ، ظلت
هيئة الأمم المتحدة فيما نراها فيه اليوم من العجز وقلة الأثر في
علاج المسائل الكبيرة ، التي يختلف عليها الفريقان اختلافا أصيلا .
وقد يكون في وسع الجماعة غير السوفيتية من الدول أن تمضى
في طريقها في القيام بأعمال الهيئة التي لا تكاد تكون مشارا
للخلاف — مثل مجلس الاقتصاد والاجتماع ، ومجلس الوصاية
وهيئة الزراعة والتغذية وغيرها ، وهذا عمل نافع ولا غنى عنه ،
ولكنه لا يجدى شيئا اليوم ولا في المستقبل المنظور ، في الوصول
الى نظام مُجد للهيئة على الطاقة الذرية ، أو تحديد السلاح ،
أو التقدم بهيئة الأمم المتحدة حتى تصير الأداة لاقرار السلام
والأمن والمحافظة عليهما •

واذن فليس يسعنا أن نغمض العين عن شيء ليس حدوثه من
الأمر المستحيلة ، ذلك بأن تنشطر هيئة الأمم المتحدة شطرين
أحدهما سوفيتي والآخر غير سوفيتي • فقد تبلغ الفوارق بين
الفريقين مبلغا من التحجر يجعل التفاهم والتعاون بينهما شيئا
متعذرا ، فينفصل أحدهما عن الآخر ، انفصالا غير عنيف ، ولما
كان الفريق غير السوفيتي هو أكثر الدول المنتظمة اليوم في هيئة
الأمم المتحدة ، فيومئذ قد يستمر هذا الفريق باسم هيئة الأمم
المتحدة ، ويكون للجماعة السوفيتية هيئتها الخاصة •

والأحوال التى تقضى الى هذا الانفصال — اذا أفضت اليه —
ليست حتما مما يعزز أمل العالم فى الأمن والسلام • بيد أنه من
الجائز أن تصبح هيئة الأمم المتحدة بعد الانفصال ، أدنى الى
الانسجام والتآزر والعمل المجدى فى نطاق أضيق أو تنحل الهيئة
الى جماعات اقليمية كالجامعة الأمريكية والجامعة العربية والجامعة
السلافية وغيرها •

واذن نستطيع أن نقول ان تقدم الهيئة تقدما مطردا الى تحقيق
أغراضها الجوهرية لا يزال ممكنا •• ولكن ذلك لن يتم الا على
قدر ما تستطيع الدول أن توفق بين موقف الجماعة السوفيتية
والجماعة غير السوفيتية • والغالب أن تستمر الهيئة فى حالتها
الحاضرة المتعثرة بضع سنوات أخرى على الأقل بيد أنها حالة
لا يمكن أن تستمر الى ما لا حد له ، وما لم تسو وجوه الخلاف ،
وتتآزر الدول جميعا ، صار انشطارها شيئا لا مفر منه ويومئذ
ينقسم العالم « عالمين اثنين » ، بل يذهب بعض أهل الرأى الى
أن الانقسام قد تم •

فى قصر شايوه

أقمت فى باريس أسبوعين كاملين ، منصرفا عما تتيحه باريس من
مباهج ومتع أدبية أو تاريخية أو فنية • فقد أتيتها لأشهد اجتماع
الأمم المتحدة فى قصر شايوه فيها ، فاستأثر العمل فى القصر بعنايتى ،
فكنت أغدو الى القصر مبكرا لأظفر بالتذاكر التى تخول لى أن
أحضر هذا الاجتماع أو ذاك ولا أبرحه الا بعد الغروب لأعود
الى النزل حيث تتاح الفرصة مرة أخرى للتحدث مع أعضاء الوفود

العربية فيما تم في يومنا المنصرم ، أو فيما عساه أن يتم في غدنا المقبل .

وقد سرت مع أحد الاخوان ذات صباح ، فجعل يدل على المواقع التاريخية في باريس ، وما أكثرها ، وعلى آيات النحت والنقش في القصور القديمة ، فكأنه كان يستحضر أيام فرنسا في ابان عظمتها ، فكنت أرى بعيني ، ولكن ذهني كان منصرفا الى حاضر الانسانية ومستقبلها ، فهذه التماثيل الرائعة وما تمثله من حضارة عالية ، مهددة بالفناء ، ان لم تجد الوفود المجتمعة في قصر شايو سبيلا الى رفع الكابوس الذي يقض مضاجع الناس في العصر الذرى .

فلذلك دأبت على الذهاب الى القصر ، اريد أن أتعلم ، فكأن عهد الدراسة قد عاد . فصل في الصباح من العاشرة والنصف صباحا الى الواحدة بعد الظهر ، ثم غداء خفيف مع زميل من الصحفيين ، أو صديق من أعضاء الوفود العربية أو الغربية ، ثم فصل ثان في الساعة الثالثة بعد الظهر ، الى السادسة أو نحوها ، ثم ساعة أو بعض ساعة في الحجرة المخصصة لصحفي الشرق الأوسط تعد فيها البرقيات وتطبع وتسلم لمكتب البرق .

وقد حضرت جلسات اللجنتين الأولى والثالثة ، وما كنت أنصرف عن احداها الا اذا اجتمع مجلس الأمن لبحث قضية الهدنة في فلسطين ، أو قضية الحصار المضروب على برلين . وأولى اللجنتين تعنى بمسائل السياسة والأمن ، وثانيتها بمسائل الاجتماع والثقافة . فالطاقة الذرية ، وخفض الأسلحة المألوفة ، وقضايا فلسطين واليونان وكوريا من موضوعات اللجنة الأولى . أما

دستور حقوق الانسان ، ومعاهدة حرية الأنباء ومشكلة اللاجئين العرب ومشردى الحرب فى أوربا ، فمن موضوعات اللجنة الثالثة . وقد أعجبت بالأسلوب المتبع فى هذه الاجتماعات لترجمة أقوال المندوبين . فاللغتان المستعملتان فى هيئة الأمم المتحدة هما اللغتان الانجليزية والفرنسية . ولكن لكل عضو من أعضاء الوفود أن يتكلم الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية أو الأسبانية أو الصينية ، فتجد فى الشرفة المخصصة للمترجمين والمترجمات ، من يستطيع أن ينقل كلامه اما الى الفرنسية واما الى الانجليزية ، ويتم ذلك على الفور فلا يتأخر المترجم عن المتحدث أكثر من كلمة أو كلمتين . وانت تجلس فى شرفة الصحفيين والزوار ، فتجد على مقعدك جهازا تعلقه فى عنقك وتضع سماعته على أذنيك ثم تفتح كباسا رقيقا ، وتدير زرا مرقوما ، فتتلقى حديث المتحدث بلغته أو باللغة التى تطلبها ، فاذا كان المتحدث روسيا أو ارجنتينيا ، تلقيت حديثه مترجما بالانجليزية ان شئت أو بالفرنسية ان شئت . ويطلقون على هذه الترجمة وصف الترجمة المصاحبة . وأغرب منها الترجمة اللاحقة . فقد يلقي أحد أعضاء مجلس الأمن خطبة تستغرق ساعة أو بضع ساعة ، فاذا هناك مترجم يبادر على أثر انتهائها ، فيلقى ترجمتها كاملة ، بالفرنسية أو الانجليزية ، وقلما يخطئ أو يتردد ، وكثيرا ما يعيد فى ترجمته نبرات الخطيب الأولى . فهذه القدرة على الترجمة ، وهذه الأجهزة التى تتيح لك أن تستمع باللغة التى تطلبها ، هما الوسيطتان اللتان جعلتا التفاهم اللغوى مستطاعا بين ممثلى ثمان وخمسين دولة من مشارق الأرض ومغاربها .

وقد كان الممثلون العرب يتحدثون باحدى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية ، وكانوا أجود قولاً وأطلق حديثاً من الوفود الأخرى التى تستعمل هاتين اللغتين دون لغاتها القومية .

ولكن المناقشة فى فروع هيئة الأمم المتحدة تقتضى من أعضاء الوفود شيئاً أعظم شأنًا من الطلاقة فى احدى هاتين اللغتين وحسب . فهذه الوفود تضم رجالاً ونساء بلوا السياسة وعركوا أساليبها ، فحجبتهم فى أكثر الأحيان قوية ينبغى أن تفرع بمثلها ، وبديتهم يقظة ، تمكنهم من أن يقتحموا كل موطن ضعف فى قول المناظر للظهور عليه ، ومعرفة أكثرهم بمواد الميثاق ودقائق اللائحة الداخلية واسعة دقيقة ، تعينهم على اللجاج والارضاء ، اذا كان فى الأرجاء مصلحة لهم ، فلم أحضر اجتماع لجنة من اللجان الا وسمعت فيها نقاشاً طويلاً مملاً على شئون تتعلق باللائحة . فكل هذه أمور ، لا يستطيع العضو الجديد الوافد على هيئة الأمم المتحدة ، ان يحسنها الى أقصى حد قبل التمرس بها ، ومن هنا ترى أكثر الدول قد عينت لها مندوباً دائماً فى الهيئة ومعه جماعة من الأعوان ، يتبدل أفرادها فى الحين بعد الحين ، ولكنها تضم دائماً أفراداً قد تمرسوا بأساليب المناظرة والمناقشة فى هيئة الأمم وفروعها .

وأضرب على ذلك مثلين . ففى احدى الجلسات التى عقدتها اللجنة الأولى وبحثت فيها ناحية من نواحي قضية فلسطين — حضور ممثلى اللجنة العربية العليا وحكومة عموم فلسطين — اعترض مندوب أوكرانيا على هذا الحضور بحجة بدا فيها الغرض ولكنها لم تخل من بعض القوة ، فانبرى له فارس الخورى ، ورد

عليه بحجة منتزعة من أقوال المندوب نفسه ، يوم كان رئيسا لمجلس الأمن منذ أشهر في ليك سكسيس ، فأفجمه •

وفي احدى الجلسات التى عقدتها اللجنة الثالثة — ورئيسها شارل مالك وزير لبنان المفوض فى وشنطن — اقترح المندوب البريطانى أن يقدم بحث مشكلة اللاجئين العرب لأن المشكلة ملحة ، فأراد أحد المندوبين أن تعين لجنة فرعية ، وطلب آخر تعليق بحث اللاجئين العرب على فروع اللجنة السياسية من وضع الحل السياسى لقضية فلسطين ، ففطن الدكتور شارل مالك الى أن الأولى مناوره غرضها الارضاء ، وان الثانية محاولة غرضها منع البحث لأن الأوساط المطلعة كانت تعلم أن اللجنة السياسية سوف ترجىء بحث فلسطين الى ما بعد الانتخابات الأمريكية على الأقل ، فاستند الرئيس الى ما له من حق وفوت على الرجلين غرضهما • فلما طرح الاقتراح الأول للتصويت وافقت عليه أكثرية كبيرة عددها ٤٤ وامتنع ٦ عن التصويت • ولولا ذلك لأرجىء بحث موضوع اللاجئين العرب أكثر مما أرجىء ، أو لظل فى جدول اللجنة الى أن تنتهى الهيئة من اجتماعها فى باريس •

وتناولت طعام الغداء ذات يوم مع فارس الخورى فى مطعم المندوبين ، فانضم الينا فريدريك أوزبورن مندوب أمريكا فى لجنة الطاقة الذرية ، وجعل يسأل فارس الخورى عن تفاصيل ما يخلق أن يتم فى اللجنة وفى مجلس الأمن متى عرض مشروع قرار اللجنة الفرعية عن موضوع الطاقة الذرية • فوضح له ما أراد أن يستوضحه • فلما انصرف الأمريكى قال لى : انظر الى هؤلاء ان عدد الرجال فى وفدهم مئة أو أكثر ، وهو يضم خبراء من كل

صنف ولون ، أفلا تعجب أن تراه يجيئني مستفتيا ؟ قلت : كلا
لا أعجب ، فمن قال ان العدد كهيل بالذكاء أو ان الذكاء يغنى عن
التجربة والحكمة ♦

فذكرني ذلك كله بحكمة ألقاها على منذ سنوات فخامة
الرئيس شكرى القوتلى ♦ فقد قال انه عاد قبيل الحرب العالمية
الأولى من الدراسة فى الاستانة الى دمشق ، وجعل يعمل مع
اخوان له على اثناء جمعية تسعى الى الاستقلال فلقبه ذات يوم
رجل مخضرم من رجال السياسة وقال له : سمعت انك تسعى
الى الاستقلال ♦ فقال الفتى نعم أسعى ♦ فقال المخضرم : استقلال
من ؟ استقلال عن من ؟ استقلال متى ؟ انك لن تدرك الاستقلال
ولا فى خمسين سنة ! فقال الفتى : والله ان فى كلامك ما يشجع ،
فقد كنت أظن اننا ربما لا ندركه فى مئة سنة ♦ فعلينا أن
نضاعف الجهد ♦

قال الرئيس : كان ذلك منذ ثلاثين سنة أو أكثر قليلا ♦
وها نحن أولاء بحمد الله قد أدركنا ما كنا نتطلع اليه ، وما كان
مخضرمنا يعدده مستحيلا ، وهذه أصوات وفودنا فى هيئة الأمم
المتحدة ، تجتمع فتكون عشر أصوات الدنيا ♦ ونحن لا نزال فى
حاجة الى أكثر الدعائم التى يقوم عليها الاستقلال ويثبت ، فما
على الشباب الا أن يسعوا ، وأن ينسوا السنين التى قد يستغرقها
سعيهم ♦

وقد رأيت الوفود العربية فى قصر شايو ، فهى تسعى جاهدة
فى اللجان وفى الأروقة ، وتزداد تجربة فى الاعراب والمناورة ،
وحبذا الحال لو كانت أوثق صلة بالصحفيين كما يفعل الوفدان

البريطاني والأمريكي ، أو كما يفعل الصهيونيون ، ولعلمها بعد ثلاث سنوات قد أخذت توقن أن هيئة الأمم المتحدة ميدان رحب تمارس فيه سياسة القوة ، وقل أن تجد فيه مكانا لدعاة العدل والحق — الآن على الأقل : وأنت لا تستطيع أن تمارس سياسة القوة ان لم تكن قويا ، فالضعيف الذي يفعل خليك أن يفصح ضعفه ، مهما يكن فصيحاً أو المعيا • والشرق العربي غنى بموارده في الرجال وموارده في الطبيعة ففرض واجب عليه ، وهو يجاهد في مجالس الأمم ، أن يعنى عناية محكمة التدبير ، بانماء موارده الاقتصادية ، فيزداد قوة ويعلو منزلة حيال سائر العالم ، ويومئذ ترى رجاله اذا نطقوا في قصر شايو أو ليك سكسيس ، أقنعوا اقناع ذى سلطان •

هيئة الأمم المتحدة - ما نفعها ؟

منذ أسبوع احتفلت الأمم المتحدة بيومها • وقد استمعت الى الخطب تلقى ، وشاهدت الضياء الباهر الذي غمر أجمل رقعة في باريس ، فلم ينسنى ذلك ساعات قضيتها في مجلس الأمن أو الجمعية العمومية أو اللجان أو الأروقة ، استمع الى لجاج لا يخلو في الحين بعد الحين من كلمة كان رجال السياسة في العصور الغابرة يعدونها نابية ، أو استطلع من المندوبين والصحفيين أخبار المناورات السياسية التي تدبر في الرواق أو على مائدة الطعام لتحقيق غرض أو آخر • وقد دأبت على ذلك أسبوعين كاملين ، فلا أذكر أن احدى هذه الجماعات اتخذت قرارا يصح السكوت عليه سوى اعادة انتخاب القضاة الخمسة لمحكمة العدل الدولية ،

واقرار أربع مواد من دستور حقوق الانسان •
فسألت نفسى ، وسألت غيرى ما نفع هيئة الأمم المتحدة ؟
فمن قائل ان الأمم المتحدة قد منيت بخيبة ذريعة فى النهوض
بما ألقى اليها من مهام وما عقد عليها من آمال • ومن ذا الذى
يستطيع اليوم أن ينكر هذا الرأى ؟ فمجلس الأمن ليس وزارة
عالمية ذات سلطان ، والجمعية العمومية ليست مجلسا نيابيا تتواءم
فيه المصالح المتضاربة التى تسعى كبار الأمم وصغارها الى
تحقيقها ، وتخضع فيه الأقلية لرأى الأكثرية • فليس فى وسعك أن
تقول اليوم ان هيئة الأمم المتحدة هى حكومة عالمية لا تزال فى
دور الجنين • فالأحوال التى تتيح تحقيق هذا الحلم ليست قائمة •
بل ضدها هو القائم ، والانقسام الواقع بين الشرق والغرب يسوء
سوءا مطردا ، فبدلا من أن نرى الدول الكبيرة قد اتفقت على
معاهدة صلح مع ألمانيا — وقد انقضت ثلاث سنوات ونصف
سنة منذ وضعت الحرب أوزارها فى أوروبا — نرى صراعا فى
برلين قد بلغ ذروة عالية من الاستحكام والجفاء • وبدلا من أن
نرى تسوية عامة لشئون الشرق الأقصى ، نرى الحرب لا تزال
دائرة الرحى فى الصين والهند الصينية ، ونطالع أخبار العنف فى
الهند وبرما والملايو واندونيسيا • وبدلا من أن نرى سلاما فى
الشرق الأوسط ، نرى حالة حرب قائمة بين الدول العربية وغزاة
أجانب لا حدود لمطامعهم ، تؤيدهم دول كبيرة ، ونرى ايران وتركيا
عرضة لشبح خطر ماثل عند أفقهما الشمالى • أما لجنة الطاقة
الذرية فكانت قد كفت عن العمل لأن كثرة أعضائها قررت أن
مواصلة البحث ، وموقف روسيا واتباعها هو ما هو ، مضيعة

للوقت والجهد وكفى • وكذلك قل في كل سعى بذل لخفض السلاح أو تحديده • وسوف تعود اللجنتان الى البحث استجابة لتوصية اللجنة السياسية ولكن الأمل في الاتفاق والتفاهم على هذه الأمور يكاد يكون كالوهم •

قلب نظرك كيف تريد فلا ترى الا أدلة تتراكم على أن الرجاء الذى عقد على هيئة الأمم المتحدة هو رجاء قد خاب • بيد أن الذين يعترفون بكل ما تقدم ، ولا ينكرونه ، يذهبون الى أن الأمم المتحدة أنجزت من الأعمال النافعة شيئاً كثيراً ، معظمه خاف عن الناس •

وفى طليعة ما أسدته انها أتاحت بحث مسائل سياسية كثيرة على ملأ من الناس قاطبة • نعم انها لم تحل مشكلة ايران حيال روسيا ، ولا مشكلة مصر فى شكواها من الاحتلال البريطانى والسودان ، ولا مشكلة فلسطين التى ذهبت فيها كل مذهب غير مذهب العدل والحق والميثاق ، ولكنها أسمعت الناس صوت ايران ومصر والعرب ، على نحو كان يكون متعذرا لولا وجود هذا المنبر الذى يتيح لكل صاحب شكوى أن يقول قوله فى شكواه •

وهذا فى حد نفسه ليس بالشئ اليسير • فالدول التى تدعى الى الحساب أمام الرأى العام الدولى أصبحت تقيم وزنا غير يسير لمبادئ الميثاق • وهذا فى أغلب الرأى كان الباعث الأول الذى دعا الحكومة الأمريكية الى الجلاء عن منطقة بناما حين طلب ذلك منها ، وأفضى الى جلاء الروس عن اذربيجان • فقيمة الأمم المتحدة فى هذه الناحية هى من حيث المبدأ ، كقيمة الشرطة فى أى

بلد ، لا تتبع من قدرتها على معاقبة المعتدى الآثم ، بل من قدرتها — وان وهنت — على الحيلولة دون وقوع الاعتداء أو الآثم . فقد صارت الأمم تحسب حسابا لسؤالين : هل يعد العمل الذى تنتويه انتهاكا لميثاق الأمم المتحدة ؟ أو هل تريد أن تقف أمام الأمم المتحدة موقف المتهم للدفاع عن هذا العمل أو ذاك ؟

أضف الى هذا كله ما تسديه هيئات شتى منتمية الى الأمم المتحدة فى ميدان الاقتصاد والاجتماع أكثرها تابع للمجلس المختص بذلك أو فروعه مثل هيئة الزراعة والطعام ، أو هيئة الصحة العالمية . فجمع الاحصاءات الاقتصادية وتبويبها ونشرها واعداد الدراسات الاقتصادية العالمية ، كالتقرير الذى أعدته اللجنة الاقتصادية الأوروبية ونشرته ، والمقترحات التى اقترحت لتحسين الأحوال الاقتصادية فى بقاع شتى من الأرض — عمل يعد فى المقام الأول شأنا ونفعا . ثم هناك أعمال أخرى ورثتها الأمم المتحدة عن عصبة الأمم ومضت فيها مثل رقابة المخدرات ومنع الرقيق الأبيض واستغلال الأطفال فى العمل ، والمحافظة على أحول صالحة للعمل فى المصانع ، والقيام بحملة كبيرة ضد انتشار عدوى السل بين الصغار والعناية بالأطفال المشردين . فهذه جميعا أعمال لها قيمتها ، ونفعها بعيد الأثر ، وليس فى وسع أحد أن يغمط الأمم المتحدة حقها فى فضل ما صنعت من هذا القبيل .

ولكن الامتحان الذى تمتحن به الأمم المتحدة هو فى آخر الأمر امتحان سياسى : تستطيع الأمم المتحدة أن تقيم الدليل على

تفعها كأداة سياسية ؟ ولما كان خطر الحرب هو الكابوس الذى يقض مضاجع الناس فى هذا العالم المؤرق المكثوم ، فان نفع الأمم المتحدة لا يوزن فى أذهان الناس الا فى ميزان نجاحها أو اخفاقها فى منع الصراع ، أو فى ميزان قدرتها على توفير أسباب الأمن والسلام .

وليس ثمة من ينكر أن القوى التى تسعى لحفظ السلام ، ليست كثيرة ولا بينة . ولكن مهما تكن مواطن الضعف فى الأمم المتحدة ، وهى كثيرة بينة ، فانها فى طليعة هذه القوى . فهى المكان الوحيد الذى تلتقى فيه الدول الكبيرة ، ساعية ، وان كان ذلك تفاقا فى أكثر الحال ، الى تحقيق أغراض مشتركة . وهذا الالتقاء شئ لا غنى عنه ، ولا سيما متى كانت احدى الدول الكبيرة تعيش وكأنها فى معزل عن سائر الجماعة البشرية ، أو أكثرها . وقد يشتد الجدل بينها ويطول ، ويكثر الالتجاء الى حق النقض ، ولكن الالتقاء نفسه يخفف من الحدة الكامنة ، وقد تتعدد وجوه الخلاف ، ولا تلتقى الآراء ، ولكن اللقاء والقول فيه كفيلا بالانصراف على شئ يسير من وئام ، وان احتدم صراع الرأى ، واشتد التنازع بالكلام .

وفى سعى الأمم المتحدة الى القيام بمهمتها السياسية ، تراها قد أخذت تنشئ بعض الأساليب والوسائل لمعالجة المشكلات . فهى تعتمد بعض الاعتماد على سلطانها الأدبى ، أو تتوسل بالوساطة أو بانشاء لجنة تعرض خدمتها للتقريب بين وجوه النظر المختلفة . ولما كانت مساعيها لحل بعض المشكلات القائمة تحتاج الى وسيلة تمكنها من تأييد ذلك السلطان فانك ترى السكرتير

العام قد طلب في تقريره الذى قدمه الى الجمعية العمومية ، أن
تعنى بانشاء شرطة تابعة للأمم المتحدة ، تستطيع الهيئة أن تعتمد
عليها في تيسير تنفيذ القرارات التى تتخذها • فلو كانت هذه
الشرطة متاحة في اندونيسيا مثلا ، للمحافظة على خطوط الفريقين،
لكان الوصول الى هدنة بين الفريقين خليقا أن يتم في وقت أقصر •
وهذه القوة لن تستعمل للهجوم ، فهى غير القوة المسلحة التى
اقترح انشاؤها — ولم يتم — لتكون في يد مجلس الأمن سلاحا
لكبح الدول التى تعتدى ، فهذا فيما أظن لا يزال بعيد المنال •
وحقيقة الأمر أن الأمم المتحدة لا تزال ، كالسلام نفسه ،
عرضة للانهار ، وما نالته حتى الآن من نجاح يسير في مسائل
لم يقع الخلاف فيها بين دول كبيرة ، انما نالته على الرغم من فرقة
الكلمة والصراع الناشب بين الدول الكبيرة نفسها •
وأكثر النقد الذى سدد الى الأمم المتحدة ، قائم على خيبتها
في تحقيق أشياء لم تعد هى لتحقيقها • فهى لم تنشأ لتحقيق الوحدة
بين الدول الكبيرة بل قام الميثاق على فرض قيام هذه الوحدة
بين الدول الكبيرة ، وقد تعهدت هذه الدول يوم وقعت الميثاق
أن تسلك طريق التساهل والرضى وحسن الجوار ، وأن تحشد
قوتها للمحافظة على السلام والأمن بين الدول • ولكن الدول
الخمس الكبيرة عجزت عن أن تحقق الوحدة بينها فكان هذا
الخلاف أفدح عبء آد ظهر الهيئة العالمية •

ومن يراجع الخطب التى ألقى في مؤتمر سان فرانسكو
يتبين أن رأى الغالب يومئذ كان أن الهيئة لا قيمة لها الا بعد
أن تعقد معاهدات الصلح ، وأهم معاهدات الصلح لم تعقد بعد •

وأكبر الرأى أن الذين عقدوا عليها آمالا كبارا غالوا فيما صنعوا ، وقد قال لى أحد أقطابها فى باريس : « لم أجد سوى فئتين كبيرتين من الشعوب وضعوا فيها كل ثقتهم ، أما الفئة الأولى فالأمريكيون من ذوى النزعة المثالية والذين لم يتمرسوا بأساليب السياسة الدولية ، وأما الثانية فالعرب الذين ظنوا أنهم واجدون فيها ما يغيثهم عن القوة التى ينبغى أن يوفروا أسبابها بين أيديهم » ♦
 فميزان الرأى فى ما للهيئة وما عليها ، ليس مائلا كله ضدها ♦
 والقليل الذى تم فى تسوية بعض الخلافات ، والكثير الذى حقق فى نواحي الاقتصاد والاجتماع ، يبيحان لها بعض الحق فى أن تطالب بأن يواصل الناس تأييدهم لها ، على الرغم من نققاتها وهى دون ميزانية شركة متوسطة ، واخفاقها حتى الآن فى النهوض بمهمتها الأولى ♦

مقعد الصين

مضت ثلاثة أشهر أو نحوها منذ أن خرج مندوب الاتحاد السوفيتى من مجلس الامن ، ثم لحق به زملاؤه وممثلو الدول التابعة لروسيا فى فروع الأمم المتحدة ، فأثار ذلك من القلق فى نفوس الأعضاء ما لم تشره أية مشكلة أخرى واجهتها الأمم المتحدة ، فى تاريخها القصير المتعثر ♦

ويرجع أصل هذه القطيعة ، الى تمثيل الصين الشيوعية فى الأمم المتحدة ، بدلا من الصين الوطنية ، التى تقلص ظل سلطانها على الصين منذ أواخر السنة الماضية ♦♦ واذا أخذنا بما يقوله ممثلو الاتحاد السوفيتى فالقطيعة ماضية فى طريقها حتى تقضى

الأمم المتحدة ممثل الصين الوطنية ، وتستقبل ممثلى الصين الشيوعية فيها .

وليس بين الأعضاء اليوم من يستطيع أن يعين متى يكون ذلك . فان طال الزمن قبل حل المشكلة فقد تصبح قطيعة الدول الشيوعية — وربما استثيت يوغسلافيا — للأمم المتحدة شيئا دائما . نعم أن رجال القانون قد يقيمون الدليل ، على أن ممثلى السوفيت تخلوا عن حضور الأمم المتحدة ، من تلقاء أنفسهم ، فلا يعدو أن يكون تخلفهم غيابا وحسب ، ولكن من الواضح ، انه اخطر كثيرا مما يتراءى لرجال القانون .

وقد مضت فروع الأمم المتحدة فى عملها ، بغير مشاركة ممثلى الدول السوفيتية ، فلم يكن ذلك معوقا لها ، بل فى وسعك أن تقول ان العمل فيها ولا سيما فى المنظمات المختصة يغلب أن يكون فى غياب الممثل السوفيتى ايسر منه فى حضوره ولكن اذا نظرت فى عمل مجلس الأمن وجدته ناقصا ، متسما بالتردد . فقد اتفق أن كان عمل المجلس قليلا منذ خرج ممثل السوفيت منه ، ولكنه امتنع عن بحث المسائل الشائكة مثل الطاقة الذرية والفصل فى الدول التى طلبت أن تنتظم أعضاء فى الهيئة العالمية ، ولو حاول أن يتخذ قرارات فى هذين الموضوعين وما كان على غرارهما ، لكان عرضة لخطر كبير ، هو أن تكون قراراته مجردة من الصبغة العالمية ، حتى اذا سويت مسألة الصين ، وعادت روسيا الى المجلس ، وحل فيه مندوب الصين الشيوعية ، فلا يستبعد أن تطلب الدولتان الغاء القرارات التى اتخذت بغير موافقتهما ، فان لم تلغ خرجتا من الأمم المتحدة ، وقد يكون خروجهما الى غير رجعة

فارجاء البت في هذا الأمر ينطوى على خطر ، ويرى تريجنفى لى
الأمين العام للأمم المتحدة ، انه ينبغي أن يكون قبل عقد الدورة
المقبلة ، ومن الخير أن يكون أقرب • ومن أجل تيسيره ، أعد
تريجنفى لى مذكرة ، عالج فيها الموضوع من ناحيته القانونية ،
ولكنه طوى البحث القانونى على نداء مضمن وجهه الى أعضاء
الأمم المتحدة بأن يكفوا عن السير الى غير غاية معلومة •
ليس في تاريخ الأمم المتحدة سابقة يسترشد بها في هذا
الموضوع ، فلم يسبق أن وجه اعتراض الى سلامة تمثيل دولة
ما من الدول الأعضاء • ولعل أدنى الحوادث شباها بمشكلة
الصين ، هو النزاع الذى قام في عصبة الأمم في سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦
بين ايطاليا والحبشة ، فيومئذرات عصبة الأمم أن ترضى موسوليني
فامتنعت عن الاعتراف بسلامة أوراق ممثلى الامبراطور هيلاسلاسى
في الجمعية العمومية • فلذلك اثنى تريجنفى لى عن الاعتماد على
السوابق في مذكرته واستند الى الفصل الخاص بقبول الأعضاء
الجدد في ميثاق الأمم المتحدة فذهب الى أن الاعتراف الدبلوماسى
بدولة ما ليس شرطا أساسيا في قبول تلك الدولة عضوا في الأمم
المتحدة فقد وافقت دول كثيرة على قبول برما واليمن عضوين
في الأمم المتحدة مع انها غير معترفة بهما اعترافا دبلوماسيا •
فالأصل في رأى تريجنفى لى ، ليس الاعتراف الدبلوماسى بل هو
الشرط المنصوص عليه في المادة الرابعة من الميثاق ، وهو قدرة
الدولة وعزمها ، على النهوض بالالتزامات التى يفرضها عليها
انتظامها عضوا في الأمم المتحدة • واذن فعلى أعضاء الأمم المتحدة ،
أن يقرروا فيما بينهم - على رأى تريجنفى لى - أى الفريقين

فى الصين ، أحق بالكلام باسم الصين ، وأقدر على ممارسة
السلطان فيها والانتفاع بموارد البلاد وتوجيه الشعب والتمتع
بطاعة أكبر فريق فيه •

فاذا أخذ بهذا التفسير ، اتضح أن الصين الشيوعية هى
صاحبة القدرة الآن ، ولكن أهى صاحبة العزم أيضا ؟ أم تنوى
أن تتوسل بالقطعة كروسيا ، كلما ألفت نفسها أمام موقف
لا ترتضيه ؟

وعلى كل حال يظن تريجنفى لى أن تفسيره يمهّد طريقا تسلكه
الدول التى تريد أن تعترف بالحقائق السياسية ، دون أن تسترد
اعترافها بحكومة شانغ كاي شيك ، أى أن الولايات المتحدة مثلا
تستطيع أن تقر تمثيل الصين الشيوعية فى ليك سكسيس ، دون
أن تسترد اعترافها بالصين الوطنية •

هذا من الناحية القانونية • ولكن الناحية السياسية أغلب
وأوثق صلة بأصول المشكلة ، ومؤداها ، أمن مصلحة الدول
الغربية أن تمهد لعودة روسيا الى الأمم المتحدة ، برغم ما يكلفها
ذلك من مضايقة قد تبلغ مبلغ هزيمة دبلوماسيّة ، وبرغم ما تعرضها
له هذه العودة ، من ضعف فى مجلس الأمم سببه وجود دولتين
شيوعيتين لهما حق الفيتو ؟

يبين أهل الرأى من يذهب الى أن عمل الأمم المتحدة خليف
أن يكون أيسر وأجدى ، ان لم تعترضه وسائل التعويق التى
يمارسها ممثلو السوفيت وأتباعهم ، وان لم تثقله الخطب السياسية
الجدلية الرنانة التى دأبوا على القائها ، وانه من الخير أن تجتمع
فى الهيئة دول بينها أواصر من أصول التفكير والنظر الى الحياة

ويستطيع مثلوها اذا استعملوا لفظ « الحرية » أو « الديمقراطية »
أو سمعوه أن يتحققوا من أن معناه واحد في ذهن القائل والمستمع .
ولكن اذا كانت الدول الغربية تريد أن تجتمع ، حيث
لا يعترض مناقشاتها عنت السوفيت وجدلهم القوى الذي يرهق
الأعصاب ، فأمامها انماط شتى من الاحلاف — مجالس الدفاع
الأطلسي ، والوحدة الأوروبية ، والجامعة الأمريكية ، والتعاون
الأوربي الاقتصادي والوحدة الأوروبية وغيرها وفيها تستطيع أن
تصنع ما ترى أنفسها في حاجة ملحة اليه .

ومقطع الأمر ليس هذا ولا ذاك ، بل هو : أثمة فضيلة ما في
« عالمية » الأمم المتحدة ؟ أفي العالم حاجة حقيقية الى مكان
يجتمع فيه ممثلو الأمم جميعا ، برغم ما يساورها من جفاء الحرب
الباردة والمخاوف التي تثيرها .

فان كان الجواب بالايجاب ، وجب أن تظل صفة « العالمية »
منسحبة على الأمم المتحدة ، وعلى الأمم المعارضة لتمثيل الصين
الشيوعية في ليك سكسيس ، أن ترضى بما ليس منه بد وان ثقل
على نفوسها حتى تبقى بين الشرق والغرب صلة ما وان كانت
واهية . واذا كان الجواب بالنفي ، لأن روسيا في بعض الرأي
لم تشترك قلبا كما اشتركت قالبا في الأمم المتحدة ، فلترك شأنها
ولتمض الأمم المتحدة في طريقها ولكن هذا الرأي ليس بالرأي
الأغلب .

الوسيلة وحدها لا تكفى

ما أكثر المشكلات التى يعانىها أبناء هذا العصر وما أعتاها ! كيف يحسنون الانتفاع بموارد الأرض حتى تقيم أود الناس الذين يزداد عددهم سنة بعد سنة ؟ أو كيف يستطيعون أن يصونوا الموارد المعروفة من التلف ، ويكشفوا ما لم يكشف بما أوتوا من علم وتجربة ؟ كيف يوفقون بين سلطان الدولة وحرية الفرد ، حتى تستوى كفتا الميزان بينهما فتستطيع الدولة أن تكفل الخير للرعية دون أن تفتت على حقوق أفرادها ؟ كيف يسيطرون على القوى المخوفة التى فتقها العلم من دخائل الذرية وجعلتها الصناعة فى منال اليدين حتى يسخر نفعها للناس ويجنبوا شرها المهلك ؟

جميع هذه المشكلات ، على ضخامتها تلى المشكلة الأولى : كيف يضمن قسط من السلام ، يتيح للعقول أن تزدهر وللهم أن تعمل ؟ والسلام بحد ذاته ليس خيرا كله ، ان أغرى بالفتور والطمأنينة ، والحرب بحد ذاتها ليست شرا كلها ، ففي بلايا الحرب تقتحم العقول أبوابا كانت موصدة ، وتخرج خيرا لا شك فيه ولكن تدمير الحرب وفتكها جعل كل رجاء بحل هذه المشكلات ، مرتبطا أوثق ارتباطا بتوفير قسط من السلام .

ألق نظرك على المال الذى ينفق فى التسليح ، وعلى ألوف العلماء والصناع الذين ينفقون قدرتهم العلمية ووقتهم ، فى استحداث الأسلحة وصنعها ؟ ولو أنفق بعض هذا وكفى فى زيادة الانتفاع بموارد الأرض ، والغلبة على الأمراض المستعصية ، لكان الناس أيسر حالا وأنعم ، ومازلت أذكر كلمة قالها عالم طبيب لوزير فى

أعقاب الحرب العالمية الأولى : اعطونا المال اللازم لبناء بارجة واحدة ، وأنا الكفيل بقهر السرطان •

ولكن كيف تستطيع الدولة — أية دولة — أن تفعل ذلك مادامت تستشعر الخوف على كيائها وكل عزيز عليها ؟ فذلك ينبغي لكل سياسى يحمل تبعه الحكم ، أن يطلب كل وسيلة خليقة أن ترفع الكابوس الذى يقض مضاجع الناس ، وتضمن لهم شيئا من الطمأنينة ؟

كانت الدولة فيما مضى تعتمد فى ضمان سلامتها على قوتها وحدها ، أو على قوتها وقوة من تحالف ، فلما انتهت الحرب العالمية الأولى ، ارتفع الى المقام الأعلى فى تفكير الناس مبدأ « السلامة المشتركة » أو « الأمن الجماعى » وهو وليد حقيقة العمران الحديث ، الذى لا يتجزأ فيه السلام ولا الأمن ولا الرخاء ، وعلى ركنه قامت عصبة الأمم ، وعلى صخرته تحطمت ، أما الأمم المتحدة ، فقد كان ميثاقها أوفى من ميثاق العصبة اذ أجرى ضمان الأمن وتوفير الرخاء فى عنان واحد •

بيد أن ابرام الميثاق لم يكن مستطاعا لولا الاتفاق على مبدأ اجماع الدول الخمس الدائمة فى مجلس الأمن — أى حق « الفيتو » • وقد حال التوصل بهذا الحق دون الوصول الى نتيجة مجدية فى كثير من صغائر الأمور وجلائلها • ولو كانت روسيا ممثلة فى مجلس الأمن يوم غزو كوريا الجنوبية ، لما استطاعت الأمم المتحدة أن تعمل شيئا من حيث هى « الأمم المتحدة » • واذا لم يكن بد من تطبيق مبدأ السلامة المشتركة ، فلا غنى عن تقادى العرقلة والعقم اللذين يفضى اليهما « الفيتو » ولما كان

الاتحاد السوفيتى هو الذى توسل بهذا الحق أربعين مرة أو تزيد ،
فإن مبدأ الأمن المشترك يبقى معلقا — فى أغلب الحال — على كلمة
يقولها مثله فى مجلس الأمن ، أو ممثل أية دولة كبيرة تحدثها النفس
بالالتجاء الى حق « الفيتو » فى عرقلة العمل على مقاومة عدوان وقع .
أى أن مجلس الأمن لا يستطيع أن يقرر رد عدوان ما الا اذا رضى
ممثل السوفيت — أو ممثل أية دولة كبيرة أخرى — أن يعده
عدوانا !

هذا منبت المشروع الذى عرضه الوزير أتشيون على
الأمم المتحدة فى دورتها هذه ، وقد أطلق عليه وصف : « العمل
المشترك لصون السلام » .

وهو يلخص بعد تعديله فى أربعة مقترحات : الأول — أن تدعى
الجمعية العمومية الى الاجتماع فى خلال أربع وعشرين ساعة اذا أعجز
« الفيتو » مجلس الأمن عن اتخاذ قرار فى موضوع عدوان صريح
وقع . وللجمعية أن تدعى بناء على طلب أكثرية الأعضاء ، كما كانت
الحال ، أو بناء على طلب سبعة من أعضاء مجلس الأمن ، وهو طلب
لا يخضع لحق « الفيتو » . الثانى — انشاء « لجنة مراقبة للسلام »
مؤلفة من أربعة عشر عضوا ، فتشخص الى مواقع الخطر بأمر من
مجلس الأمن أو الجمعية العمومية ، فتستطلع الحال وتقدم تقريرا
عنها . الثالث — دعوة الدول الأعضاء الى تقدير مواردها وتقرير
مدى ما تستطيع أن تسديه من مساعدة لتنفيذ توصية مجلس الأمن
أو الجمعية العمومية « لاعادة السلام الدولى والأمن الى نصابهما »
وأن تعد عناصر فى قواتها المسلحة تتيحها وفقا لدستورها وقوانينها
للاتظام فى وحدة أو وحدات تابعة للأمم المتحدة . الرابع — انشاء

لجنة مؤلفة من أربعة عشر عضوا تتولى تنظيم العمل وتوجيهه بمقتضى
البند الثالث وتقدم مقترحاتها الى مجلس الأمن والجمعية العمومية
قبل أول سبتمبر ١٩٥١ •

ليس فى هذه المقترحات شىء جديد حقا ، فعقم مجلس الأمن
خلال السنوات الماضية ، حمل كثيرين من رجال الفكر والسياسة
على تدبر ما يمكن • وقد يطول الجدل بين أرباب الفقه الدولى
على بعضها ، وهل فيها تجاوز لنصوص الميثاق ، وهل الجمعية
العمومية هى خير هيئة فى الأمم المتحدة للنهوض بهذه التبعة •
فقد تجنح الجمعية الى قرار ما فى سورة من الحماسة دون نظر
دقيق الى حقائق القدرة على التنفيذ ، وعرف التكتل فيها يتيح لكتلة ما
أن تحول بين الجمعية واتخاذ قرار بأكثرية الثلثين المنصوص عليها •
وقد يذهب الأمل ببعضهم الى أن هذا المشروع وقد أقرته
الجمعية العمومية ، خلى أن يصنع المعجزات كلما وقع مجلس الأمن
فى مأزق • والحقيقة أن حدوده بينة ، فتوصية التوسل بالقوة
لا تجوز الا بعد وقوع العدوان ، وعقبات حشد القوة وتنظيمها
وسرعة الانتفاع بها كثيرة والمشروع على كل حال لا يغير الحقيقة
القائمة وهى أن التبعة فى مقاومة عدوان كبير تقع على الدول
الكبيرة ، فليس فيه جدوى ان لم تتفق جميع هذه الدول • ولذلك
جاء اقتراح العراق وسوريا باجتماع الدول الخمس الكبيرة
لتسوية ما بينها مكملا للمشروع • ولعل أعظم فائده اليوم هو أنه
اعتراف من خمسين دولة وافقت عليه بأن السلامة المشتركة ينبغى
أن تكون على أساس عالمى ، وأنه وسيلة خليقة أن تحطم الأغلال
التي تغل أداة نافعة ، كمجلس الأمن ، عن العمل المجدى •

أنا الطاقة الذرية

أنا الطاقة الذرية

- ١ — بين خطرها ونفعها ٦ أغسطس ١٩٤٩
- ٢ — سبب الخيبة ١٤ يونيو ١٩٤٨
- ٣ — طورها الجديد ١١ أكتوبر ١٩٤٩
- ٤ — روسيا بين المعرفة والقدرة ١٧ أكتوبر ١٩٤٩
- ٥ — التوازن العالمى الجديد ٢٦ أكتوبر ١٩٤٩
- ٦ — القنبلة فى عام ٢٧ ديسمبر ١٩٤٩
- ٧ — قنبلة ذرية أخرى ٢١ مارس ١٩٥٠
- ٨ — قيمة الاتفاق ٢٥ مارس ١٩٥٠

بين خطرها ونفعها

فى مثل هذا اليوم منذ أربع سنوات ، استيقظ العالم على أصداء دمدمة القنبلة الذرية ، التى تفجرت فوق مدينة هيروشيما اليابانية ، فدمرت معظم مبانيها وأهلكت عشرات الألوف من أبنائها ، وقد روع الناس على الرغم من فرحهم بأن هذه القنبلة تدنى الحرب العالمية الثانية من ختامها ، فقد أدركوا بفطرتهم أن البشر قد صنعوا لأنفسهم سلاحا مدمرا لا عهد لهم بمثله ، فإذا لم يؤتوا الحكمة فى سياسة أمورهم ، فالدنيا كلها تظل قائمة على فوهة بركان يغلى جوفه ويمور ، ثم لا يدرى أحد متى يقذف فى الفضاء بحممه وناره ، ويفيض على جوانب كأسه من جحيمه المتسعر .

ولكن الناس راجعوا أنفسهم فتذكروا ما قاله العلماء عن الارتفاع بطاقة الذرة فى توليد القوة المحركة ، وقرأوا عما صنعوه حقا من تحويل حرارة النشاط الذرى الى قوة محركة . ثم طالعوا أنباء تحيير العقول عن تقع ذرات يولدها الانشطار الذرى ، فى مباحث الطب ، وشفاء الأمراض ، واماطة اللثام عن أسرار مشكلات لم يزل أهل الزراعة يعانون عواقبها وعلماء النبات يستكشفون أسرارها منذ زمن بعيد .

فصار الناس ، بين الخوف من خطر الطاقة الذرية ، ورجاء

الاتقاع بها ، فى حيرة وقلق • ولكن حيرتهم لم تطل ، فقد أدركوا
أن البحث الذى يكفل الاتقاع هو بطبيعته بحث يطول وأن
القنبلة الذرية نفسها قد تحسم الأمر قبل أن تتاح الفرصة الكافية
لهذه المباحث حتى تجدى جدواها •

فلذلك اشتدت الدعوة الى تبصير الناس بالعواقب ، والى بذل
السعى القوى المتصل ، لانشاء عالم لا يحتاج الناس فيه الى
استعمال القنابل الذرية فى صراع يدور بين طوائفهم • وقد ذهب
العلماء ورجال الحرب الى أن العقل البشرى لا يستطيع أن يتصور
الآن ، ولا هو خليف أن يتصور فى المستقبل المنظور ، وسيلة فنية
تكفل الدفاع الكامل أو الوقاية التامة من خطر القنبلة الذرية •
فاذا كان الدفاع الفنى الحربى لا يجدى سوى بعض الجدوى ،
فأين نلتمس الدفاع ؟ وهل ينبغى أن يستسلم الناس الى القنوط
من وسيلة تجنبهم أن تذهب أرواحهم فى موجة طاغية من الضغط
الساحق ، وسحابة متقدة من النار والاشعاع — كما حدث منذ
أربع سنوات ؟

فلما مضوا يتلمسون طريقة للخلاص ، اختلف الرأى ، منهم
من دعا الى انشاء حكومة عالمية لها سلطان القانون على جميع
الأمم ، ومنهم من ذهب الى أن هذا الرأى على قوة منطقته بعيد
المجنى ، والمشكلة التى يواجهها العالم ملحة غاية الالاحاح ، فاقترح
هؤلاء انشاء لجنة خاصة بالطاقة الذرية تضع نظاما وتتولاه ،
فيكفل هذا النظام السيطرة على الاتقاع بها ، ويمنع استعمالها
فى صنع الأسلحة الذرية •

ولكن روسيا خالفت هذا الرأى • وما زلنا منذ ثلاث سنوات

أو تزيد نشهد النضال بين الفريقين •
فالخلاف على موضوع الطاقة الذرية ، وانشاء نظام للرقابة
الدولية عليها ، حتى يجنى نفعها ويجنب الناس ضررها ، ليس
بالموضوع الجديد • فقد أنشئت لجنة الطاقة الذرية ثم بدأت
أعمالها في مارس ١٩٤٦ ، ومنذ ذلك اليوم ، والخلاف قائم بين
رأيين • أما الرأي الأول فهو رأى الجماعة التى تشايح الولايات
المتحدة فيما تذهب اليه ، وهو ضرورة انشاء نظام للرقابة
والاشراف ، لا يتقيد القائمون عليه بحدود الدول ، ولا يخضعون
لحق الفيتو ، فاذا تم ذلك أبحاث الولايات المتحدة على مراحل ،
ما عندها من أسرار صنع القنبلة وأحالت مصانعها الى هذه الجماعة،
وتكون خاتمتها مرحلة تدمير جميع القنابل التى فى حوزتها ، ومن
ثم تمضى هذه الجماعة على سننها ، تعنى من ناحية بالاستيثاق من
أن الطاقة الذرية لا ينتفع بها فى دولة ما من أجل الحرب ، ومن
ناحية أخرى ، بتشجيع البحث على الانتفاع بالطاقة الذرية فى
الصناعة والنقل والطب والزراعة ، وما أشبه • وأما رأى الثانى ،
فرأى روسيا والدول التى تسبح فى فلكها ، فقد حرصت منذ
العهد الأول على المطالبة بتدمير القنابل الذرية الموجودة أولا ،
ثم وضع نظام للاشراف والمراقبة ، ولم ترض بأن يخرج أى قرار
فى أية مسألة خاصة بهذا النظام على الخضوع لحق الفيتو فى
مجلس الأمن •

وهذا الخلاف الذى كان بينا منذ أواسط ١٩٤٦ ، استحكم
حتى صار مأزقا لم يوجد مخرج منه ، فاذا رأى لجنة الطاقة
الذرية فى آخر سنة ١٩٤٧ ، أن لا جدوى من مواصلة البحث ،

فقررت أن تكف عن العمل ، فلما وضع موضوع الطاقة الذرية في رأس جدول اللجنة السياسية في باريس ، في أواخر سبتمبر (١٩٤٨) اشتد القلق لأن ذلك وافق استفحال أزمة برلين ، فأدرك الناس ، أن للموضوع ، بعد البحوث الفقهية الأولى صلة وثيقة بحياة الناس وفنائهم ، ولم تنته اللجنة الأولى الى حل يرضى يومئذ ، ولكنها انتهت الى قرار يوصي اللجنة بأن تواصل عملها ولا تكف .

وخلاصة الموقف الآن أن امريكا تعلم أن السر العلمى في توليد الطاقة الذرية معروف لروسيا ، وأن السر « الصناعى » ان لم يكن معروفا كله فلا ريب في الكشف عنه ان عاجلا وان آجلا ، وان صنع القنابل الذرية شىء بطيء لا يتعدى في امريكا نفسها على ضخامة صناعتها عددا يسيرا كل شهر . فالذى تجمع عندها منذ سنوات ، لا يمكن اللحاق به بسرعة ، فتدميره مقابل وعد وحسب ، شىء لا ترى الحكومة الأمريكية حكمة في النزول عليه ، ما لم يعقد اتفاق على الرقابة الدولية يجتاز مراحل معينة تثبت انه اتفاق مجد ، فاذا ثبت ذلك دمرت الولايات المتحدة الأسلحة الذرية التى صنعتها .

وكانت روسيا قد اقترحت بلسان فيشنسكى في باريس عقد اتفاقين ، أحدهما اتفاق الرقابة ، والآخر اتفاق تحريم الأسلحة الذرية ، على أن يوقعا وينفذا في وقت واحد . فالأول يحقق ما تطلبه أمريكا في مبدأ الرقابة ، والثانى يحقق ما تطلبه روسيا ، وهو تدمير ما تجمع عند أمريكا من الأسلحة الذرية . وقد خذل هذا الاقتراح غير مرة منذ أذيع في باريس رغم

ما يبدو على ظاهره من لين روسيا ورغبتها في التفاهم • وسبب خذلانه أن أمريكا وصاحباتها رأت أن اتفاق التحريم متى نفذ — أى متى دمرت الأسلحة الذرية المصنوعة — فلا رجعة فيه ، وأما اتفاق الرقابة ، فخليق بالدولة التى تريد أن تجبته أن تنتحل لذلك شتى المعاذير ، فان كانت روسيا هى تلك الدولة — وهى المقصودة — فتوقيع الاتفاقين وتنفيذهما فى وقت واحد ينيلها ما تريد من تدمير الأسلحة الذرية التى صنعت وتراكت ، ثم يدع لها مجالا ، ان شئت لاحباط الاتفاق الآخر •

بيد أن بحث الطاقة الذرية قد أخذ ينتقل الى ميدان آخر ، وقد بدأ فريق من أهل الرأى يزن نفعها وخطرها بميزان جديد • وأساس الرأى عند هذه الجماعة ، أولا ، كتاب أصدره عالم بريطانى ممتاز ، وثانيا ، اطراد الثقة بين الباحثين العلميين بدنوهم من الانتفاع بالطاقة الذرية ، فى توليد الطاقة المحركة النافعة • أما الكتاب فصاحبه الأستاذ بلاكيت الانجليزى • وهو فى آرائه السياسية أقرب الى اليسار المتطرف ، ولكنه عالم ذو قدم راسخة فى العلم ، وقد ظفر بجائزة نوبل فى علم الطبيعة من أجل بحثه فى الأشعة الكونية ، وكان له شأن عظيم فى دراسة الوسائل العلمية فى مكافحة خطر الغواصات • وقد بسط رأيا له فى القنبلة الذرية ، من حيث هى سلاح حربى ، فأقام ما ظنه دليلا كافيا على قلة جدواها ، وعلى عدم تعرض أمريكا لهجوم روسى عليها بالقنابل الذرية ، وأن القنبلة الذرية كالغازات الحربية السامة لن يجرؤ أحد على استعمالها ، واذن فالولايات المتحدة قد أخطأت فى اقامة سياستها فى الطاقة الذرية على القنبلة الذرية وحدها •

ولرأيه تفصيل فنى دقيق لا يتسع له هذا المجال • ولكنه فى مجمله ، ولا سيما فيما يقوله عن جدوى القنبلة الذرية فى الحرب ، يخالف الرأى الذى لم يزل يسود الدوائر الحربية فى الغرب • وقد وجه اليه نقد كثير • فهذه الدوائر تنكر دقته أشد انكار ، وتنكر له خاصة لأن النتائج التى يخلص اليها من مقدماته ، هى أقرب الى الرأى الروسى فى مشكلة الأسلحة الذرية منها الى الرأى الأمريكى •

ولن أحاول هنا أن أفاضل بين الرأين • وحسبى أن أقول ان رأى بلاكىت له أنصار وان كانوا لا يزالون فئة قليلة • أما الناحية الثانية فى الميزان الجديد ، فهى ازدياد الأدلة على امكان الانتفاع بالطاقة الذرية فى توليد القوة اللازمة للصناعة والنقل وغيرهما •

والذين يعنون بهذه الناحية يقولون ان المادة التى تدخل فى صنع عشرين قنبلة تكفى لتوليد قوة كهربائية تكفى الولايات المتحدة كلها أسبوعا كاملا • • ثم يضيفون ، أن الصين مثلا لا تزال تعتمد على عضلات الناس والحيوان فى توليد ٧٠ فى المئة من الطاقة التى تستعملها • وطاقة العضلات يولدها الطعام ، والطعام مصدر لعله أعلى مصادر الطاقة وأقلها جدوى ، فاذا أريد للبلاد التى لم تزل متخلفة فى نموها الاقتصادى أن تنمو مواردها ، فينبغى أن توفر لها طاقة زاهرة رخيصة ، ومن هذه الموارد الأنهار التى تنشأ عليها محطات توليد الطاقة الكهربائية ، ومناجم الفحم وآبار الزيت ، على أن الطاقة الذرية أهم منها جميعا فى نظر هذه الفئة من المفكرين وأنفع • فكل ما يحتاج اليه العالم كله من

الطاقة في السنة يمكن توليده من مليوني رطل من اليورانيوم ، وأقل مقدار من اليورانيوم ثبت وجوده في مقادير اقتصادية يبلغ مئة مليون رطل ، أى أن المقدار الذى ثبت وجوده يكفى العالم خمسين سنة ، وهناك مقادير أخرى كبيرة معروفة ولكن كلفة استخراجها أعظم ، والبحث عن اليورانيوم مستمر ، وفي رمان ترانكور في الهند ، وأرض البرازيل وبعض ولايات أمريكا مقادير من الثوريوم تزيد على مئة مليون رطل ، والثوريوم يصلح لتوليد الطاقة الذرية في أحوال خاصة •

أى أن موارد الطاقة الذرية كما نعرفها اليوم ، يوجد منها ما يكفى حاجة العالم الى الطاقة قرنا أو أكثر •

واذن ، ينبغي لنا في رأى هؤلاء ، أن ننصرف عن الغلو في الحرص على القنبلة الذرية والأسلحة الذرية ، وتقديم شأنها ، عند النظر في شئون الطاقة الذرية ، وأن تفتح ميادين البحث في الطاقة الذرية على مصاريعها ، حتى يستطيع العلماء أن يحسنوا وسائل الانتفاع بها ، فيتاح لأقطار العالم مصدر مجد رخيص للطاقة المحركة ، فيفضى ذلك الى الخير العام •

والرأى القديم يزن الطاقة الذرية بميزان القنبلة أولا ، وأما الرأى الجديد فيزننها بميزان الطاقة المحركة المجدية التى تتيحها • ولا يزال الرأى القديم أغلب ، لأن « سوء الظن » و « تضعف الثقة » و « الخوف » لا تزال غالبية •

هذا مع الأسف هو خلاصة أربع سنوات مريرة من تاريخ المساعى التى دارت حول أعظم قوة وضعت في أيدي الناس ، فكأن الطاقة الذرية ، انما جاءت لتمتحن الناس • ورجاء المستقبل

اليوم ليس معقودا بمجرد اتفاق على الطاقة الذرية ترتضيه روسيا وأمريكا ، بل هو معقود بتسوية عامة تدل على تغير النفوس فتتيح للطاقة الذرية أن تتخذ مكانها الحق في حضارة لا غنى لها عن القوة المحركة ، فان تم ذلك فيومئذ تحل مشكلة الطاقة الذرية من تلقاء نفسها وعلى أوفى وجه وأجده .

سَبب الخيبة

بين المشكلات الكثيرة التى عهد الى هيئة الأمم المتحدة فى علاجها ، مشكلة نزع السلاح أو خفضه أو اخضاع صنع بعضه لرقابة دولية . وهى مشكلة ظلت عصبة الأمم تعالجها سنين كثيرة ، دون أن تقضى من علاجها وطرا . فقد تعددت بينها وجوه الخلاف فى الرأى حتى أربت على وجوه الاتفاق . وظل البحث دائرا على غير جدوى حتى كان يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، فخرج ممثل هتلر من مؤتمر نزع السلاح ، فقبر الموضوع وجعلت الأمم تتبارى فى تعزيز سلاحها على تفاوت بينها فى صدق العزم وسعة البذل ودقة التنظيم .

وما عجزت عنه عصبة الأمم ، عهد به الى هيئة الأمم المتحدة ، فكان عجزها حتى الآن ، أتم وأعظم خطرا .

وهو أعظم خطرا لأن بين أسلحة اليوم سلاحا لم يكن عند الأمم مثله فى أيام العصبة — سلاح الطاقة الذرية . فهو سلاح مدمر مهلك يستمد قوته من القوة التى تحرك الشمس وتضيئها ، وقد أجمع أهل العلم والحرب معا على أن العقل البشرى لا يستطيع اليوم أن يتصور وسيلة ترد هذا الهلاك كما يفعل المدفع المضاد

للدبابات أو السلك المكهرب الذى يمنع تفجر الغم المغنطيسى •
وقد أنشأت الجمعية العمومية للأمم المتحدة لجنتين ، احدهما
لجنة الطاقة الذرية واثانيتها لجنة الأسلحة المألوفة ، ولكن اللجنتين
كلتيهما كفتا عن العمل أو فى حكم من كفت ، فالأولى ظلت توالى
الاجتماع والبحث خلال سنتين ، ولكنها بلغت فى العهد الأخير مأزقا
لم تر مخرجا منه ، فرأت أن مواصلة البحث الآن عمل لا جدوى منه •
والثانية لم تكذ تصنع شيئا ، بل عجز أعضاؤها عن الاتفاق على
قواعد العمل وسيره •

وسبب الخيبة فى الحالين هو فقدان الثقة بين الدول • فمن
البين أن الخلاف بين الدول قد يبلغ مبلغا يقتضى أن يحسم بالقوة ،
سواء أكان السلاح عصيا ونبايت أم كان دبابات وبوارج وقاذفات
وقنابل ذرية • وليس ثمة ريب فى أن دول الكتلتين لم توفق الى
الاتفاق على شىء وان هان — كمثل تعيين حاكم على منطقة
تريسته ، فكيف بها فى المسائل الخطيرة الكبيرة مثل مستقبل
ألمانيا واليابان • واذا أردت الدليل فانظر الى أمريكا كيف سرحت
قوتها الحربية ، تسريحا يكاد يكون كاملا ، ثم لما اشتدت الأزمة
الدولية منذ ثلاثة أشهر ، عمدت الى شىء لم تفعل مثله من قبل ، فى
أيام السلام ، فأرصدت الوف الملايين من الدولارات لتعزيز قوتها
الحربية ، وفرض التجنيد الالزامى •

فالببحث فى خفض السلاح ، والجفاء بين الدول الكبيرة هو
ما هو ، لا يمكن أن يسفر عن اتفاق يرضى الطرفين • فجل اعتماد
روسيا على قوتها البرية ، وجل اعتماد أمريكا على أسطولها
وسلاحها الجوى • ومن ذا الذى يستطيع والريب تساور النفوس ،

أن يضع خطة لخفض السلاح ، ولا ترى فيها كل دولة من الدولتين
مزية لخصمها عليها •

وربما كان استئثار الولايات المتحدة بالقنبلة الذرية ، باعثا
يضاف الى جميع البواعث المعروفة التى جعلت الاتفاق على خفض
السلاح شيئا مستحيلا •

وفى طليعة البواعث المعروفة نجد الخلاف على مسألة الرقابة •
فكل معاهدة تعقد لخفض السلاح ، تثير هذه المشكلة ، أنخفض
الدول التى وقعت الاتفاق أسلحتها وفقا للعهود التى قطعتها ؟ أم
هى تصنع بعض السلاح وتكدسه فى الخفاء ؟ وقد لا تبلغ مسألة
الرقابة مبلغا عظيما من الخطر ، اذا نظرت اليها من ناحية الأسلحة
المألوفة • فبضع مئات من الطائرات أو الدبابات أو المدافع ، تضاف
الى الأعداد المتفق عليها ، لا تكون حاسمة فى حرب تلتهم العدد
التهاما ، وتقتضى من رجال الصناعة أن يصنعوا منها الوفا وعشرات
الالوف • ولكن الرقابة على الأسلحة الذرية ، شىء لا غنى عنه
فاذا اتفقت الدول على الامتناع عن صنع القنابل الذرية ، ثم لم
تلتزم احداهن الاتفاق وصنعت فى الخفاء بضع قنابل وحسب ،
فهذه القنابل كفيلا بأن تكون القوة الفاصلة فى الحرب •

فالرقابة على الأسلحة الذرية هى الصخرة التى تحطمت عليها
جميع المساعى التى بذلت لانشاء نظام دولى للطاقة الذرية ، يتيح
مواصلة البحث فى منافعها ، دون التعرض لخطر الأسلحة التى
تصنع منها • وأكبر التبعة فى هذا الاخفاق واقع على روسيا •
فهى التى امتنعت أولا عن قبول مبدأ الرقابة والتفتيش الذى قبلته
الدول الأخرى ، ثم قبلته ولكنها أبت أن تمنح الهيئة المشرفة

السلطة الوافية التى تكفل لها القدرة على القيام بمهمتها ، ثم
أبت أن تنزل عن حق « الفيتو » فى عقاب الدولة المخالفة •

ومن أعسر الامور أن نعرف اليوم أى الدول — عدا الولايات
المتحدة — وقد ملكت ناصية المعرفة العلمية والقدرة الصناعية
التي لا بد منها لصنع القنابل الذرية • وقد كان الرأى منذ ثلاث
سنوات أن روسيا خليقة أن تصبح قادرة على صنع القنبلة الذرية
فى حدود سنة ١٩٥١ — أى بعد انقضاء خمس سنوات على
هيروشيما •

وأما الولايات المتحدة فلم تخف انها ماضية فى صنعها ، وانها
جربت ضروبا جديدة منها منذ عهد قريب ، وان التجربة أسفرت
عما يرضى •

بيد أن رجال الحرب يقولون : اذا اجتاحت روسيا أوروبا الى
سواحلها الغربية — وهذا فى وسعها الآن ، فلن يستطيع
الأمريكيون أن يلقوا قنابلهم الذرية على مدائن أوروبا ، وغاية
ما فى الأمر ، أن يرسلوا قاذفات بعيدة المدى الى مراكز الصناعة
الحربية الروسية ، ومنطقة موسكو لم تنزل أعظمها شأنًا •

والرأى عندهم ، ان القنابل الذرية لا تجدى كثيرا ضد
الجيوش فى الميدان ، فلا بد للدول من أن تستعين بمقادير كبيرة
من الأسلحة المألوفة ، مراعية التقدم الذى طرأ عليها منذ وضعت
الحرب أوزارها ، كما تفعل روسيا وأمريكا • وأما الدول الأوروبية
الغربية المنهمكة فى اصلاح حالها الاقتصادى ، فتطلب العون فى
السلح من أمريكا ، وقد تلفى نفسها مضطرة أن تحول جانبها غير
يسير من مواردها ونشاطها الى التسليح ، فيتعثر انتعاشها تعثرا •

وهذا التعثر كفيف بأن يديم الأحوال الاجتماعية التي تجعل الناس عرضة للتأثر بوعود الشيوعيين وان كانت وعودهم برقاً خلباً •

طورها الجديد

بين اليوم السادس من شهر أغسطس ١٩٤٥ واليوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٤٩ أربع سنوات وأسبوعان وثلاثة أيام ، قفى أول اليومين أعلن ترومان أن قنبلة ذرية قد ألقيت على هيروشيما ، وفى ثانيهما أعلن أن لدى أمريكا دليلاً على أن انفجاراً ذرياً قد حدث فى روسيا ، وقد اتفق وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى اليومين كليهما ، فعنيت فى الحالين بالاطلاع على ما كتبه الصحف الأمريكية فى الموضوع ، وما أكثر ما كتبت ، وبالاتصال ببعض الذين يعرفون شيئاً من دخيلة الموضوع فخيل الى أن اليوم الأول بدا عهداً فى تاريخ الطاقة الذرية ، يصح أن نصفه بعهداها الثالث ، وان اليوم الثانى كان خاتمة ذلك العهد وبداية عهد جديد •

بدأ العهد الأول فى سنة ١٩٠٥ يوم أذاع اينشتاين نظريته فى النسبية وضمنها معادلته المشهورة ان الطاقة تعدل مربع الكتلة مضروبة بسرعة الضوء ومعنى هذا القول ان تلاشى قدر قليل من المادة يولد قدراً عظيماً من الطاقة • ودأب العلماء على السعى الى اقامة الدليل المادى على صحة هذه المعادلة ، الى أن وفق رذرفورد الى شىء منه فى سنة ١٩١٩ وتلاه علماء آخرون حتى تم شطر ذرة اليورانيوم فى يناير سنة ١٩٣٩ ، فاتصل البحث من يومها لاستطلاع الوسائل التى تمهد للانتفاع بهذه الطاقة فى الحرب ، ان كان

الاتتفاع بها ممكننا على الاطلاق ، وفي ٢ ديسمبر ١٩٤٢ تم صنع فرن ذرى فى جامعة شيكاغو جرى فيه تفاعل متسلسل فى نوى ذرات اليورانيوم ٢٣٥ ، وانطلقت طاقة كبيرة وكان الفعل كله خاضعا لسيطرة العلماء فكان ذلك اليوم خاتمة الطور الأول ، واقتراح بعضهم أن يجعل يوم ٢ ديسمبر ١٩٤٢ أول يوم فى تقويم العصر الذرى .

ومن ثم دأب علماء الحلفاء الذين ظفروا باطلاق الطاقة الذرية على وجه خاضع لسيطرتهم ، على حل جميع المشكلات العلمية والصناعية المعقدة التى تتيح لهم أن يصنعوا قنبلة ذرية ، فصنعوها وجربوها فى ١٦ يوليو ١٩٤٥ ثم ألقىت اختها على هيروشيما ، وكان ما كان .

كان الرأى منذ أن ألقىت قنبلة هيروشيما ، ان سر القنبلة الذرية لا يمكن أن يظل محصورا فى الذين صنعوها الى أبد الدهر ، فالحقائق العلمية الأصيلة معروفة ، والحقائق التى تفرعت عليها نشر معظمها فى التقرير الرسمى الذى وضعه سمايد الأستاذ فى جامعة برنستون ثم أضيفت اليها حقائق نشرت فى محاضرات وكتب أو جمعها الجواسيس ، وكل دولة صناعية كبيرة تستطيع ، ان عاجلا أو آجلا ، أن تحل المشكلات الصناعية التى لا غنى عن حلها لصنع القنبلة الذرية ، واختلف تقدير الزمن الذى ينقضى قبل أن تصنعها روسيا ، بين ثلاث سنوات وعشر سنوات ، وغلب الرأى بأن سنة ١٩٥٢ هى السنة التى يحتمل أن تتوصل فيها روسيا الى صنع القنبلة ، وقد كان هذا التقدير خاطئا لأنه قام على فرض أن روسيا لم تعرف شيئا عن احتمال صنع قنبلة ذرية ،

الى أن أذيع نبأ قنبلة هيروشيما ، فجاء نبأ صنع القنبلة الذرية في روسيا ثلاث سنوات قبل الموعد المقدر .

فالتصريح الذى أذيع باسم الرئيس ترومان فى صباح ٢٣ سبتمبر ، يدل على أن روسيا قد أدركت على الأقل ما أدركته جماعة العلماء الأمريكيين فى ١٦ يوليو ١٩٤٥ . فتاريخ التصريح يعد ، بشئ من التحفظ ، نهاية الفترة التى بدأت فى يوليو وأغسطس ١٩٤٥ ، وكانت القنبلة الذرية فى خلالها احتكارا أمريكيا .

وأقول مع « التحفظ » قصدا ، لأن مولوتوف أعلن فى نوفمبر ١٩٤٧ أن سر القنبلة الذرية لم يعد سرا منذ زمن ولأن فيشينسكى صرح فى أول أكتوبر ١٩٤٨ فى باريس بأنه من الخطر أن تفرض أمريكا أنها محتكرة للقنبلة الذرية . والتاريخ وحده كفىل بأن يبين متى وفقت روسيا أول مرة الى صنع قنبلة ذرية . بل لسنا نعلم اليوم أكان « الانفجار الذرى » الذى أشار اليه ترومان فى بيانه انفجار قنبلة ذرية تامة التكوين ، أم كان انفجار كتلة من اليورانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم ، بلغت الحد الأدنى الذى لاغنى عن بلوغه لكتلة من أحد العنصرين حتى تتفجر ، ولكن أغلب الرأى العلمى ، أن الرئيس ترومان لم يستعمل لفظى « انفجار ذرى » الا بعد استشارة العلماء ، وان اللفظين فى هذه الحال لا يمكن أن يعنيا شيئا ما سوى تفجر قنبلة ذرية . وسبب هذا القول ، أن علماء نواة الذرة يعرفون نوعين من التفاعل المتسلسل الذى يولد الطاقة الذرية من نوى ذرات يورانيوم ٢٣٥ وذرات البلوتونيوم ، أحدهما التفاعل المتسلسل الخاضع لسيطرة العلماء

وهو يتم بتسريعات بطيئة لا تزيد سرعتها على ميل في الثانية ،
والثاني تفاعل متسلسل بتسريعات سريعة تفوق سرعتها ١٠ آلاف
ميل في الثانية ، ولا يخضع لسيطرة أحد متى بدأ . فالتفاعل
الأول لا يحدث انفجارا ذريا كالذى يحدث في القنبلة الذرية ،
وأما الثاني فيفعل . نعم من الجائز أن انفجر فرن ذرى فيه مقدار
كبير من المادة المتفجرة ، نتيجة لإهمال أو خطأ في التصميم ،
فيولد حرارة عظيمة ان لم تنصرف بطريقة ما ، أحدثت انفجارا في
المصنع ، ولكن هذا الانفجار لا يجوز أن يسمى « انفجارا ذريا »
بالمعنى العلمى المقصود ، ولا يحتمل أن يظهر أثر المواد المشعة
التي تنسف في الانفجار ، فى مدى واسع ، وعلى مسافات بعيدة .
ولا نعرف كيف استطاع أعوان ترومان وعيونه أن يتبينوا
حدوث انفجار ذرى ولكنهم تبينوه على الأغلب بأجهزة دقيقة
تتبين زيادة المواد المشعة فى الهواء . وقد قال لى رجل على اتصال
وثيق بهذه الموضوعات ، فى دار الأمم المتحدة : تستطيع أن تقول
هذا ، ولا تخطئ خطأ كبيرا .

ذلك بأنه اذا حدث انفجار ذرى ، تكونت غيمة ضخمة حافلة
بدقائق المواد المشعة التى يولدها الانفجار ، وترتفع هذه الغيمة
الى ٥٠ ألف قدم أو ٦٠ ألف قدم ثم تأخذ فى الانتشار . وقد ثبت
بعد أن فجرت القنبلة الذرية الأولى ، فى ولاية نيومكسيكو فى
١٦ يوليو ١٩٤٥ ان آثارها الاشعاعية ظهرت بعد أيام فى ولاية
ايلينوى ، وهى على مئات الأميال الى الشمال من ولاية
نيو مكسيكو . ويوم فجرت القنبلة الذرية فى بيكينى فى صيف
سنة ١٩٤٦ ظهرت آثارها الاشعاعية فى بحر عشرة أيام على ساحل

أمريكا الغربى الذى يبعد نحو ٤٠٠٠ ميل عن بيكينى •
ويغلب على رأى أن دراسة التأثير الاشعاعى فى هذه الأجهزة
الدقيقة ، حين يكون الجو خاليا من آثار غيمة ذرية ، وحين يكون
حافلا بها قد سارت على وتيرة علمية منظمة خلال السنوات الأربع
الأخيرة ، حتى صار فى وسع العلماء أن يتبينوا بها زيادة الاشعاع
الذى يرتد الى انفجار ذرى •

وقد يضم الى هذه الأجهزة التى تعرف باسم «عدادات جيجر»
آثار تسجل على أجهزة تتأثر بارتجاج الأرض. وأنباء واشتات أنباء
يلتقطها الجواسيس والمخبرون فى كل أرض •

وخلق بالذكر أن الرئيس ترومان قال فى بيانه ان الانفجار
الذرى فى روسيا تم فى بحر الأسابيع الأخيرة • فتذكرت أن
صحيفة فرنسية كانت قد نشرت فى يوليو الماضى ، يوم كنت
فى القاهرة ، أن انفجارا ذريا قد حدث فى روسيا ، وكان الرئيس
ترومان قد عقد فى تلك الفترة اجتماعا خطيرا فى « دار بلير » ،
مسكنه اليوم حتى يتم ترميم البيت الأبيض ، وقيل انه اجتماع
خاص بالطاقة الذرية ، فلم يكن بعيدا أن يعتقد الناس أن للاجتماع
صلة بما روته الصحيفة الفرنسية ونقلته مجلة المصور عنها ،
فسألت صاحبي فى الأمم المتحدة فى هذا ، فقال ان اجتماع
« دار بلير » كان خاصا بما طلبته بريطانيا وكندا من تبادل معلومات
القنبلة الذرية مع أمريكا ، وان الانفجار الذى أشار اليه ترومان ،
تم بعد يوليو • وقد ذكرت احدى الصحف هنا ، انه تم فى النصف
الأول من شهر سبتمبر •

روسيا بين المعرفة والقدرة

ألح على اليوم سؤال ، مؤداه : ما حقيقة ما يزعمه الروس عن ادراكهم سر القنبلة الذرية في سنة ١٩٤٧ يوم أعلن مولوتوف ذلك في موسكو في عيد من أعيادهم القومية ؟ فرحت أسأل هنا وهناك وحرصت على مطالعة كل قصاصة أقع عليها مما تنشره الصحف التي يصح الاعتماد عليها • والرجال الذين نسألهم في دار الأمم المتحدة ، يتكتمون ويهمسون ، فان بدا لأحدهم أن يقول شيئا قال بعضه ولم ينجز ، ثم يرجو أن لا تسند القول اليه ، فتلقى نفسك أمام لغز كاللغز الذي تستفتي فيه •

وقد تبينت من المحادثة ومن المطالعة أن السؤال الذي طلبت عنه جوابا ، يفضى الى أسئلة كثيرة ، بعضها تجد عنه الجواب ، وبعضها لا جواب له • حتى لقد قال لى أحدهم ان الرئيس ترومان لم يضمن بيانه شيئا شافيا عن أخطر هذه الأسئلة لأنه على الأغلب لا يعرف شيئا شافيا •

فقد استغرق صنع القنبلة الذرية أربع مراحل من البحث العلمى والصناعة الدقيقة • أما المرحلة الأولى فهي التى استقصى فيها العلماء نواحي طبيعة الذرة ، حتى أدركوا أن عنصر اليورانيوم ٢٣٥ يتفجر فى أحوال معينة ، وكان ذلك فى يناير ١٩٣٩ يوم تم للعالمين هان وشتراسمان الألمانين شطر اليورانيوم فى ألمانيا ، وقد جرى العلماء فى هذه المرحلة ، على سنة العلماء من نشر المعارف التى يستكشفونها رويدا رويدا ، فعرفها الروس كما عرفها غيرهم من علماء البلاد الأخرى •

أما المرحلة الثانية ، فكانت كشف المعارف العلمية التى تتيح التقدم فى طريق اطلاق الطاقة الذرية ، على وجه خاضع لسيطرة العلماء ، فحاولوا أن يعرفوا كيف السبيل الى تحضير قدر تقى من العنصر المتفجر ، وكيف يمكن صنع البلوتونيوم وفصله عما يخالطه ، وما هو الحد الأدنى للكتلة التى يحدث فيها التفجر • هذه الأسئلة وعشرات غيرها ، أكب العلماء على الاجابة عنها فى كل بلد • وقد حلت فى الولايات المتحدة على أيدى طائفة من العلماء الأمريكيين والبريطانيين والكنديين والايطاليين وغيرهم ، فى السنوات الواقعة بين ١٩٤٠ و ١٩٤٢ على الأكثر ، ونشرت طائفة من الحلول فى تقرير سمايد الرسمى ، الذى لا يزال من أهم المراجع فى هذا الباب وقد ظهر فى أواخر سنة ١٩٤٥ ، فاذا كانت روسيا تعنى بقولها « أنها كشفت سر القنبلة فى سنة ١٩٤٧ » ، أنها توصلت الى حل هذه المسائل جميعا أو معظمها ، فلن تجد فى قولها شيئا يدهش أحدا من المطلعين على تقدم العلم فى فهم طبيعة نواة الذرة فى السنوات الأخيرة ، وان كان العمل نفسه يعد عملا علميا من الطبقة الأولى •

وأما المرحلة الثالثة ، فهى مرحلة العمل فى المصانع التى تستخرج يورانيوم ٢٣٥ وتصنع البلوتونيوم وتتقى المادتين من الشوائب التى تخالطهما ، وهذا عمل هندسى ضخم كان الفضل الأول فيه ، فى الولايات المتحدة ، لمهندسى الشركات الصناعية والكيميائية والكهربائية الكبيرة ، وهذه المصانع هى التى أعدت ، ولا تزال تعد ، مقادير كبيرة من المادة القابلة للتفجر الذرى • وتلتها المرحلة الرابعة والأخيرة ، وهى تركيب هذه المادة على

وجه يجعلها تنفجر انفجارا خاضعا فى توقيته لسيطرة الانسان ،
وأن يمكن انجاز ذلك فى طائفة محلقة فى الفضاء ، وفى الموعد
المضروب •

فروسيا من ناحية ، والولايات المتحدة وحلفاؤها من ناحية
أخرى ، بدأنا المرحلة الأولى على حد سواء ، ويغلب على الظن أن
أمريكا سبقت روسيا فى تخطى المرحلة الثانية ، ولكن روسيا
عبرتها الآن أو ذلت أكبر وعرها • وأما المرحلتان الثانية والثالثة ،
أى عمل المصانع التى تعد المادة المتفجرة وصنع الجهاز الذى
لا غنى عنه لاعداد القنبلة ، فليس فى بيان ترومان ما يعين الحد
الذى بلغته روسيا فيهما • ولا تكاد تفكر فيهما حتى تتوالى
الأسئلة على ذهنك : أكان الانفجار الذرى انفجار قنبلة ، أم كان
تجربة ذرية فى فرن ذرى ، خرجت عن الطوق ؟ أتصنع روسيا
الآن مقادير صغيرة أم مقادير كبيرة من المواد التى تتفجر تفجرا
ذريا ؟ وإذا كان الانفجار الذى ذكره ترومان هو انفجار قنبلة ،
أفتكون قنبلة تامة البنيان تستطيع أن تنقل أجزاءها فى طائفة ،
وأن تركيبها فى الموعد الذى تضربه لتفجيرها ، وعلى الارتفاع
الذى تريد ؟ وهل كانت قنبلة ذات كفاية ، أى تولد أكبر قدر
ممكن من الطاقة الذرية ، من المادة التى تتفجر تفجرا ذريا ؟

وكل سؤال من هذه الأسئلة ذو شأن ، فإذا كان التفجر الذرى
قد تم فى فرن ذرى ، أو فى مصنع يستخرج فيه العنصر المتفجر
فالانفجار الذرى الذى روى خبره ، قد سبب نكوصا فى البحوث
الذرية الروسية • ولكن هذا التقدير بعيد الاحتمال • ومعرفة
المقادير التى تصنعها روسيا من مواد القنبلة الذرية ، لا غنى عنها

لكل تقدير صحيح • فصنع الفرن الذرى ليس شيئا مستحيلا ، بل ليس شيئا شاقا ، وكل فرن ذرى يصنع شيئا من البلوتونيوم ، واستخلاص البلوتونيوم مما يخالطه صعب ولكنه ليس متعذرا ، بيد أن أخطر الأسئلة فى هذا الباب ، هو مقدار ما تصنعه مصانع روسيا من المادة التى تنفجر تفجرا ذريا • ففى شاتيون بفرنسا فرن ذرى مضى عليه تسعة أشهر صنع فى خلالها قدرا يسيرا وحسب من البلوتونيوم النقى • واذن فمعرفة المقدار الذى تصنعه روسيا من هذا العنصر شىء ضرورى • فثمة فارق كبير بين أن تولد منه فى السنة أو السنتين قدرا يكفى لصنع قنبلة ذرية واحدة ، وبين أن تولد منه ما يكفى لصنع قنبلة ذرية كل أسبوع • فالأول شىء يحسب له حساب كبير •

وكذلك السؤال عن صنع قنبلة تخضع فى تركيبها وتفجيرها لسيطرتك • فكل كتلة من يورانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم تنفجر اذا بلغت حدا أدنى ، فهى بهذا المعنى قنبلة تستطيع أن تضعها فى طائرة ، وأن تطير بها آلافا من الأميال ، ثم تلقىها فوق هدف معين فى موعد مضروب وعلى ارتفاع مطلوب ، فتنفجر كما قدرت لها أن تنفجر •

وأخيرا ، لا يخفى عليك أن جزءا يسيرا وحسب من المادة المتفجرة ، يتلاشى فيولد الطاقة المشعة ، وأما بقية الكتلة فتطير هباء منشورا فى الفضاء • واعداد كتلة من المادة المتفجرة ليس بالعمل السهل ، فضياعها فى الفضاء دون أن تولد أكبر قدر ممكن من الطاقة ، فيه تبذير للمواد التى تصنع منها الكتلة ، والمجهود الذى يبذل فى توليدها أو استخلاصها من الركاز الطبيعى •

وموارد اليورانيوم والثوريوم وهما العنصران اللذان تولد منهما الكتلة المتفجرة ليست وافرة ، ومن هنا كثر الزحام عليها • فالنسبة بين الطاقة التي تولد والكتلة التي تبذر ، هي ما يطلقون عليه « كفاية القنبلة » ، ولم ألق أحدا يزعم أنه يعرف كفاية القنبلة الروسية •

وكذلك ترى أن الاجابة عن السؤال الذى طلبت الاجابة عنه ، ليست ممكنة الآن ، وان كانت الاجابة عن أجزاء قليلة منه ممكنة ، فاذا ألح عليك الاستطلاع ، كما ألح على ، فاقنع الآن كما قنعت ، انك على الأرجح لن تجد أحدا يعرف الاجابة الكاملة غير الروس أنفسهم •

التوازن العالمى الجديد

أفى وسع هذه السلالة من الناس أن تنقذ نفسها من الهلاك الذرى ؟ قل ما تشاء ، وناقش ما تستطيع المناقشة عشرات المسائل التى تطرح للبحث فى الأمم المتحدة وهيئاتها ولجانها المختلفة فلا يسعك بعد أن تفرغ من القول والنقاش ، الا أن تعترف ، بأن الطاقة الذرية ماثلة كالشبح المخوف من وراء كل قول وكل دليل ، وفى قدرة الناس — أو اخفاقهم — على ترويض الطاقة الذرية ، تنطوى جميع المسائل التى تطرح للبحث •

بين اليوم السادس عشر من شهر يوليو ١٩٤٥ واليوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٤٩ توالى أحداث الطاقة الذرية فى ناحيتها الحربية ، آخذا بعضها بأعناق بعض : القنابل التى فجرت فوق مدينتي يابانيتين ثم فى بعض جهات نائية فى المحيط الهادىء ،

للتجربة ، والمقترحات التى أخذ بها فى الولايات المتحدة لاقامة لجنة من المدنيين وصية على الطاقة الذرية فى جميع مراحلها ، ثم المقترحات التى عرضتها الولايات المتحدة على الأمم المتحدة ، لاقامة لجنة دولية ، وصية على الطاقة الذرية فى العالم الأوسع . وقد مضى على هذه المقترحات الأخيرة ، ثلاث سنوات ونصف سنة منذ أن عرضت أول مرة ، ثبت فى خلالها أن روسيا لا ترضى بها ، وأن أمريكا ومن يجاريها لا ترضى بما اقترحته روسيا نفسها ، فكان المأزق .

ولكن سير العلم يحيل كل شىء الى القدم .
فالمقترحات الأمريكية ، وضعت يوم كانت أمريكا محتكرة للقبلة الذرية ، وما كانت لترضى أن تنزل عن احتكارها حتى تضمن أن النظام الذى اقترحته قد أخذ به بحذافيره ، وهو نظام يؤتيها مزيتين ، أما الأولى ، فإن الدول الأخرى لا تملك القبلة ، وأما الثانية فإنها هى لا تدمر قنابلها الا بعد أن يستوى هذا النظام على أسس ثابتة مكفولة ، فكأنها تحتفظ باحتكارها فترة ما ، وتكفل امتناع الدول الأخرى عن مجاراتها فى بحر تلك الفترة . وأما روسيا فلم تكن تملك القبلة ، وكان يهمها أن تجارى الولايات المتحدة فى ميدانها وأن تسبقها ان كان ذلك مستطاعا فكان لباب مقترحاتها ، أن تدمر أمريكا جميع قنابلها ، ثم يدور البحث على الوسائل الدولية للرقابة والتفتيش وما أشبه .

ولكى سير العلم فى روسيا ، قد عفى على المقترحين جميعا .
فروسيا اليوم ليست دولة لا تملك القبلة ، وأمريكا ليست اليوم الدولة التى تملكها دون غيرها من الدول ، واذن فليس لأمريكا

اليوم أن تخشى أن تفقد احتكارا ، دار عليه الزمن ، وليس لروسيا أن تخشى الموافقة على شيء يمنعها من الوصول الى منع القنبلة ، التي كان يؤلمها ويخيفها أن تملكها أمريكا وأن تكون هي صفر اليدين منها .

نعم ان روسيا كانت عرضة لخطر أو لمخاطرة ، يوم أبت أن تقبل المقترحات الأمريكية في سنة ١٩٤٦ وبعدها ، فقد كانت روسيا يومئذ لا تملك القنبلة ، وكانت أمريكا تملك طائفة منها ، فالخطر الذي كانت روسيا عرضة له يومئذ كان أن تعتمد أمريكا الى استعمال قنابلها ، قبل أن تتاح لروسيا فرصة تمهد لها أن تظفر بالقنبلة ، ولذلك عرض جروميكو يومئذ المفاوضة لعقد معاهدة لتحريم القنبلة الذرية ، على أن تدمر أمريكا أولا ما عندها من قنابل مصنوعة . ولكن الرأي الغالب أن جروميكو كان يرى في صميم نفسه أن أمريكا لن ترضى أن تدمر شيئا يعطيها مزية لا مزية مثلها ، وان أمريكا على أكبر التقدير لا تعتمد الى المبادرة الى استعمال القنابل الذرية في حرب تبادىء روسيا بها ، من أجل الاحتفاظ باحتكارها للقنبلة الذرية .

واذن يصح أن يقال أن أمريكا عجزت في الفترة التي كانت فيها القنبلة احتكارا أمريكيا عن اقناع روسيا بقبول مقترحاتها ، وامتنعت بطبيعة نظامها السياسى ونظرتها الى السياسة العالمية ، عن فرض المقترحات بالقوة .

ولذلك أخفقت جميع المساعي التي بذلت في لجنة الطاقة الذرية ومجلس الأمن ، لوضع نظام دولى للرقابة ترتضيه الدولتان ومن ينهج نهجهما وانتهت روسيا الى صنع القنبلة وتحطيم الاحتكار الأمريكى .

ومن الواضح الآن ، أن المقترحات التى أبت روسيا أن تقبلها يوم كانت أمريكا محتكرة لصنع القنبلة الذرية ، لن تقبلها اليوم بعد أن حطم الاحتكار . فقد زالت اليوم حالة نادرة فى تاريخ الصراع الدولى ، كانت فيها احدى الدول الكبيرة ، وحدها ، تملك سلاحا ماضيا ، وان لم يكن وحده سلاحا حاسما ، وتبدد الرجاء الذى عقد على الانتفاع بهذه الحالة الفذة ، للوصول الى تسوية قائمة على مبدأ جديد هو فرض سيطرة دولية تشمل أسلحة تستمد قوتها من الطاقة التى تحرك الشمس . فالاتفاق بعد اليوم على تحريم هذا السلاح ، لن يكون اتفاقا بين دولة — أو دول — تملكه ، وأخرى لا تملكه ، بل لابد أن يكون اتفاقا — ان كان الاتفاق ممكنا — بين كتلتين من الدول تملك كلتاهما نفس السلاح المهلك .

نعم ان مجال القول واسع ، فى تعديد ما لأمريكا اليوم من المزايا فى هذا الباب — فقد سبقت الى صنع القنبلة وعندها منها بضع مئات على أقل تقدير ، وقدرتها الصناعية أعظم ، وتجربة علمائها ورجال الصناعة فيها أوسع ، وقاذفاتها الضخمة أضخم وأبعد مدى ، ورجال القاذفات قد تدربوا على الوسائل الفنية التى يقتضيها حمل أجزاء هذه القنابل المهلكة ، ثم ضمها بعضها الى بعض فى الموعد المضروب ، حتى تتفجر حيث يريدونها أن تتفجر . ولكن هذا القول لا يعنى ، لأنه اذا كانت روسيا لا تملك اليوم من القنابل والوسائل ما تملكه أمريكا ، ففى وسعها ، وقد صنعت القنبلة ، أن تملك بعضه فى بحر سنتين ، وبضع قنابل ذرية ، تكفى لاحداث تدمير هائل وهلاك عظيم !

يخامر الناس هنا ، في ليك سكسيس ريب شديد في امكان الوصول الى اتفاق ولكنهم جميعا يقولون ، ان المخاوف التي تساور الناس ، في كل أمة ، تقتضى من أمريكا وروسيا وسائر الدول أن لا تستسلم لليأس من الاتفاق ، وأن تسعى حقا اليه ، وان كان تاريخ السنوات الأخيرة دليلا متصلا على مشقة الاتفاق مع روسيا ، على مسائل أقل خطرا من القنبلة الذرية . ولذلك نجد كثيرين يجبدون الأخذ بالاقتراح الهندى ، ومؤداه أن ينقل موضوع الطاقة الذرية ، من لجنة الطاقة الذرية ، الى لجنة القانون الدولى . فقد ثبت أن المأزق في لجنة الطاقة الذرية قد بات مستحكما ، والحالة الجديدة تستدعى الاقبال بنظرة جديدة على المشكلة ، وعسى أن تكون لجنة القانون الدولى ، أدنى الى النظرة الجديدة ، من لجنة الطاقة الذرية ، ولعل هذه اللجنة تضع مبدأ عاما في القانون الدولى ، تقبله جميع الدول بغير استثناء ، فيفضى ، مقترنا بضغط الرأى العام الدولى ، الى الامتناع عن استعمال القنابل الذرية ، كما امتنع المتحاربون ، في الحرب العالمية الثانية ، عن استعمال الغازات الحربية .

القنبلة في عام

أشرفت سنة ١٩٤٩ على ختامها ، ومأزق الرقابة الدولية على الطاقة الذرية لا يزال هو المأزق الذى ألقناه منذ ثلاث سنوات أو تزيد .

أو لعله صار أعصى على الحل . فروسيا لم ترض عن مشروع الرقابة الدولية ، منذ أن اقترح في سنة ١٩٤٦ وكانت يومئذ لا تملك قنبلة ذرية ولا تعرف أسرار صناعتها ، فهي اليوم وقد صنعت القنبلة

أبعد عن قبوله مما كانت •

كنت في الأمم المتحدة ، يوم ٢٣ سبتمبر ، حين سرت في دوائرها
أنباء البيان الذي أذاعه ترومان — وجاراه فيه أتلى في لندن وسان
لوران في أوتاوى — عن حدوث انفجار ذرى في روسيا ، خلال
الأسابيع السابقة ، فاذا البيان يحفز كل ذى رأى للاعراب عن
رأيه • واذا العلماء الذين يضيئون ذرعا بالقيود المفروضة على
بعض البحوث الذرية يقولون : أما وقد ظفرت روسيا بالسر ،
وقد كان ذلك منتظرا وان تقدم على الموعد المقدر ، فالحاجة أشد
ما تكون الى اطلاق البحث العلمى الذرى من القيود ، فهو عماد
السلامة القومية ، واذا دعاة الحكومة العالمية يقولون : ان الحاجة
اليوم أشد ما تكون الى اندماج السیادات القومية فى حكومة
عالمية ، واذا المترددون فى ارصاد المال المطلوب لتسليح دول الميثاق
الأطلسى ، يقولون : ان الحاجة اليوم أشد ما تكون الى اقرار المبلغ
المطلوب كله ، فالمعونة التى تبذل على ضن لا تكفى • واذا الرئيس
ترومان يقول : ان الحاجة اليوم أشد ما تكون الى رقابة دولية
تامة نافذة •

فنبأ الانفجار الذرى فى روسيا ، لم يحمل أحدا يومئذ على
تغيير رأيه السابق ، ولا حفز أحدا الى التقدم برأى جديد ،
قد يكون فيه مخرج من هذا المأزق المستحکم •

وضع المشروع الأمريكى ، يوم كان صنع القنبلة الذرية وفقا
على الولايات المتحدة الأمريكية • وكانت أركانه قيام هيئة دولية
تملك جميع موارد الطاقة الذرية وأسباب صنعها ، على أن يكون
لها حق التفتيش أين شاءت ومتى شاءت ، وأن لا تخضع لحق

« الفيتو » ، فإذا قبلت هذه المبادئ وثبتت جدوى تطبيقها أبحاث الولايات المتحدة للهيئة أسرار الطاقة الذرية على مراحل ثم تدمر جميع ما عندها من قنابل ذرية . وهذا المشروع لا يزال بعد شيء من التعديل ، هو المشروع الذى تؤثره الكثرة من أعضاء اللجنة الذرية فى الأمم المتحدة .

ولكن روسيا أبت قبوله منذ الساعة الأولى ، ولا تزال . فهى تأبى مبدأ التفتيش المطلق ، لأنها جعلت تقييد تجول الأجانب فى بلادها مبدأ من مبادئها ولأنها تعتقد أن خير دفاع تملكه ضد القنبلة الذرية ، هو تفريق قواعد الصناعات ، فإذا فتحت أبواب بلادها للجان التفتيش دون قيد أو شرط ، فأنها تخشى أن تعرف مواقع هذه القواعد وأن تباح لقواد سلاح الطيران الأمريكى ، وهذه المعرفة هى غاية مناهم . ثم هى تأبى الغاء حق « الفيتو » لأنه ركن أصيل من أركان مجلس الأمن ، ولأنها هى لا تستطيع أن تسلم زمامها فى هذا الأمر الخطير « لكثرة معادية » كما تقول . وهذا فى أغلب الرأى سر الصيحة التى ندت عن فيشنسكى فى الأمم المتحدة بباريس ، قال : « يستحيل أن تقبله • يستحيل • يستحيل » . وقد اقترحت روسيا فى مقابل ذلك أن يعقد اتفاقان ، أحدهما يحرم استعمال الطاقة الذرية فى الحرب ، ويقضى بتدمير القنابل الذرية التى صنعت ، والثانى يضع نظاما دوليا للتفتيش الدورى فى حدود معينة ، وأن يوقع الاتفاقان معا . ومن خصائص المشروع الروسى ، أن الحكومات القومية — لا هيئة دولية — هى التى تملك موارد الطاقة الذرية ومصانعها وتديرها . ولكن الدول الغربية تعترض عليه ، وتزعم أن اعتراضها فى المقام الأول ، لأن

التفتيش الدورى لن يكفى لمعرفة مقدار المواد الذرية التى تصنع ،
ولا الوجوه التى تستعمل فيها ، وأن التفتيش الدورى ، بغير رقابة
تامة على الموارد يجعل المخالفة والاختفاء شيئا هينا • وهو اعتراض
صحيح من الناحية الفنية ولكنه يخفى وراءه عدم الطمأنينة والثقة
فتدمير القنابل المصنوعة — روسية وأمريكية — مزية لروسيا لأن
قنابل أمريكا أكثر كثيرا ، فإذا تم التدمير فمن يضمن للدول الغربية ،
وقد فقدت مزيته بعد تدمير القنابل المصنوعة ، أن روسيا لا تمضى
قدما فى صنع القنابل أو تهيئة المواد المتفجرة لها ، على وجه وفى
أماكن لا يستطيع رجال التفتيش الدورى أن يكشفوا عنها •
فالأزمة من الناحيتين هى أزمة ثقة وهذا هو سر المشكلة — كان
ولا يزال •

بيد أن ظفر روسيا فى صنع القنبلة حقيقة جديدة طرأت ، ولا مفر
من أن يكون لها أثر فى التفكير الحربى •
وقد كان أكثر التفكير الحربى فى الغرب ، مبني على تقدير
ثبت أنه قد أخطأ • نعم لم يكن أحد يتوهم ، أن احتكار أمريكا
للقنبلة الذرية سوف يظل قائما الى ما شاء الله ، ولكنهم اتفقوا على
أن يتخذوا سنة ١٩٥٢ حدا يتم عنده لروسيا صنع القنبلة الذرية ،
وأن استئثار الغرب — أى أمريكا — بالقنبلة الذرية فى خلال هذه
المدة رادع كاف لروسيا عن الاقدام على الاعتداء فتتاح مدة لتعزيز
الدفاع الغربى • فإذا أقدمت روسيا على الاعتداء ، دمرت قواعد
الصناعية الكبرى بقنابل ذرية ، تحملها اليها وتلقيها عليها هذه
القاذفات الضخمة من طراز ب ٣٦ •

ولكن روسيا تقدمت الموعد المقدر بثلاث سنوات على الأقل ،

فصار يتعين على قواد الكتلة الغربية أن يعيدوا النظر في خططهم ، فبدلاً من أن يجعلوا هدفهم استكمال قدرة أوروبا على الدفاع حوالى ١٩٥٥ ، يتعين عليهم الآن ، أن يستعجلوا ذلك على أساس انشاء قوة برية جوية بحرية متزنة تستطيع أن تصد الهجوم الروسى البرى الجوى عليها ، لأنه اذا تعذر ذلك عليها ، وسقطت أوروبا الغربية فى أيدي الروس كان استردادها منهم عملاً حربياً فادحاً وصار لا مفر من مواصلة القتال بين القارات ، وهو قتال طويل مرير مهلك ينتهى الى تدمير جانب كبير من العالم .

أما استعمال القنابل الذرية ، اذا نشب القتال ، فقد أضحى بعد نبأ الانفجار الذرى فى روسيا رهناً بعوامل شتى . نعم ان قنابل أمريكا أكثر عدداً الآن ، وقد تظل كذلك . ولسنا نعلم المقدار المتاح لروسيا من المواد التى تصلح للقنابل الذرية ، ولا الوسائل التى عندها لحمل هذه القنابل والقائها على المراكز الصناعية الكبرى فى أمريكا ، ولكن ليس ثمة ريب فى أن عشرات من هذه القنابل سوف تكون متاحة لروسيا فى بضع السنوات المقبلة ، وانها تملك من القاذفات ما يمكنها من نقل هذه القنابل والقائها على كبريات المدن والقواعد الصناعية فى غرب أوروبا وبريطانيا . فلا مفر للغرب من أن يدخل هذا فى حسابه كلما فكر فى استعمال القنابل الذرية ضد روسيا .

ولذلك اتجه الرأى — على الرغم من استحكام الخلاف على مشروعات الرقابة الذرية بين الكتلتين — الى أن صنع القنابل الذرية فى روسيا ، وان كان عددها أقل بالقياس الى أمريكا ، قد أخذ يفضى منذ الآن الى محاذرة الفريقين استعمال هذا السلاح

المخيف ، وبخاصة لأن الرأي الحربى كاد ينعقد على أنه ليس السلاح المطلق ، مهما تكن قدرته على التدمير • ورجال الأمم المتحدة يميلون الى القول ، بأن روسيا تؤثر الامتناع عن استعمال القنبلة ما دام مخزون الولايات المتحدة منها أكبر ، وأن الولايات المتحدة قد تؤثر الامتناع أيضا ، لما يتعرض له حلفاؤها فى أوروبا من دمار القنابل الروسية ، ولما قد تتعرض له مراكزها الصناعية المحتشدة من هذا الدمار فى آخر الأمر •

فاذا صح هذا التقدير ، كان الأمر شبيها بما كان من أمر الغازات الحربية قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها • فقد هيا كل من الفريقين مقادير وافرة منها ، ليستعملها ان بادر خصمه الى استعمالها ولكن أحدا من الفريقين لم يستعملها لأن أحدا منهما لم يقدر أن يستعملها يؤتية الظفر قبل أن يرد عليه خصمه كيلا بكيل •

ولذلك يصح ان يقال أن الرجاء معلق اليوم بحقيقتين ، فأما الأولى فهي أن الرادع الوحيد عن استعمال القنبلة الذرية ، هو خوف الجانبين من استعمالها وأما الثانية ، وهى أنهم فهم ازدياد ادراك الناس أن الحرب ، فى هذا العصر الذى يتخذ فيه المتحاربون أحدث الأسلحة وأشدّها فتكا بالناس ، ليست شيئا مخوفا وحسب ، بل هى شىء لا جدوى منه ولا تقع فيه لغالب •

قنبلة ذرية أخرى

ظل حديث القنبلة الأيدروجينية ، قرابة شهرين ، كذكر سيف الدولة يملأ الدنيا ويشغل الناس • ولكن رأى مال الآن الى وضعها فى موضعها الصحيح • فالنظرية العلمية التى تعد أساسا

للقنبلة الأيدروجينية ، وضعت قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ،
لتفسير الحرارة العالية في الشمس والنجوم . وقد وصفتها من
ناحياتها العلمية في « المقتطف » (١٩٣٩) وكتابي « الفتح مستمر »
(١٩٤٣) ثم أشرت الى احتمال الانتفاع بها في صنع قنبلة ذرية
تختلف في مبدأها عن قنبلة اليورانيوم والبلوتونيوم في كتابي
« النار الخالدة » (١٩٤٧) .

ولن أعمد اليوم الى تفصيل هذه الناحية ، فقد غنى أفاضل
الكتاب بوصف المبدأ العلمي ، والفرق بين طبيعة القنبلتين . ولكن
الأمر الذي لا مفر من التنبيه اليه ، هو أن أمر ترومان الخاص
بالقنبلة الأيدروجينية لا يعنى حتما أن صنع قنبلة قد تم تمامها ،
هو شيء وراء الباب . وليس في وسع أحد أن يقدر الآن مدى
الزمن الذي يستغرقه التمهيد لصنعها . فقد وفق علماء الحلفاء الى
احداث أول تفاعل متسلسل في اليورانيوم خاضع لسلطانهم
في ٢ ديسمبر ١٩٤٢ ، وظلوا بعد ذلك سنتين ونصف سنة ، يسعون
بما أوتوا من علم وتجربة ومال ، الى حل المشكلات العلمية
والصناعية التي لا مفر من حلها قبل صنع القنبلة الذرية الأولى —
أي ظلوا سنتين ونصف سنة يمهدون لصنعها ، وهم لا يدرون ،
أنتفجر القنبلة الأولى التي صنعوها أم لا تنفجر .

وليس ثمة ريب ، في أنهم كسبوا خلال ذلك الزمن ، ومنذ أن
وضعت الحرب أوزارها ، علما وتجربة ، يجديان عليهم في التمهيد
لصنع القنبلة الأيدروجينية . ولكن القليل الذي ذكر عن هذه
القنبلة ، يدل على أن المشكلة التي يواجهونها أعظم وأعقد . فالنظرية
تقتضى أن تندمج ذرات من الأيدروجين بعضها في بعض (باستعمال

صنف خاص نادر منه) حتى تتكون ذرة هليوم ، وينطلق في أثناء تكوينها مقدار عظيم من الطاقة يعدل ما فقد من كتلة الذرات المندمجة مضروبا في مربع سرعة الضوء . والعلماء لم يوفقوا الى توليد حرارة تدانى الحرارة اللازمة لذلك سوى في ذلك الجزء من الثانية ، حين تفجرت القنبلة الذرية المعهودة .

وقد صرح العالم هانز بيث صاحب النظرية التى تقوم عليها القنبلة الأيدروجينية : لم تصنع القنبلة بعد ، ولن تصنع فى خلال بضعة أشهر ، ولا تزال فى حاجة الى بحث كثير .

فالمشكلة كما تبدو الآن ، هى كشف الوسائل المحكمة ، للانتفاع بالحرارة المتولدة من انفجار قنبلة ذرية معهودة ، فى ادماج ذرات الأيدروجين بعضها فى بعض ، حتى تنطلق من فعل الاندماج طاقة عظيمة . وهذا ينبغى أن يتم على وجه خاضع لتحكم الانسان ، فى لحظة من الزمان وفى جوف طائرة تحمل هذا الجهاز الجهنمى ، وفى موعد محدد بجزء من الثانية ، وعلى ارتفاع مقرر فوق مكان بعينه قد يبعد مئات أو بضع ألوف من الأميال .

ولذلك يمهد الكتاب الحريون الذين يقدرّون تبعة ما يكتبون ، لكل مقال ينشرونه فى عواقب القنبلة الأيدروجينية ، بقولهم : « اذا صنعت » .

نعم ، قد يتوسل العلماء ، فى الغرب أو فى الشرق أو فى كليهما ، بوسائل ليست فى الحسبان اليوم ، فتيسر لهم صنع القنبلة الأيدروجينية وتقلها مسافات بعيدة ، وتفجيرها على هواهم ، ولكن ذلك كله لا يزال فى رحم المستقبل . وقد قالت التايمز اللندنية فى ذلك : « لن تصنع القنبلة الأيدروجينية فى يوم وليلة ، وربما لن تصنع » .

وقد يختلف الرأى فى استعمال القنبلة الأيدروجينية ، من ناحيته الأدبية ، وهل هو شر من استعمال القنبلة الذرية المعهودة وأشنع ، أو من استعمال القنابل الضخمة الناسفة التى استعملت فى معظم أيام الحرب العالمية الثانية • وليس الجواب الفاصل بالشئ اليسير • ولكن فى وسع الباحث أن يقيم الحجة ، على أن الفرق فى درجة التدمير ، بين قنبلة وأخرى ، قد يبلغ مبلغا خطيرا حتى يصبح فرقا أصيلا ، ولعل هذا الفرق بين القنبلة الأيدروجينية والقنبلة الناسفة أو بينها وبين القنبلة الذرية المعهودة ، قد بلغ هذا الحد •

فقد مال الرأى فى أول الأمر الى المبالغة فى قدرة القنبلة الذرية المعهودة على التدمير الشامل ، ثم اعتدل فصارت تعد قنبلة مهلكة ولكنها ليست حاسمة • بيد أن الحساب الأول لقدرة القنبلة الأيدروجينية يجعلها ، حتى اذا جردته من التهويل ، أشد تدميرا من القنبلة الذرية المعهودة أضعافا كثيرة • فكل حرب تشن بأسلحة منها القنابل الأيدروجينية ، تحدث دمارا فظيعا ، لا تقوى دولة ما على تحمله حتى الدول المترامية الأطراف • ومع ذلك فقد يتراءى لاحداها أنها تستطيع أن تقضى على خصمها قبل أن ينشط للرد على فعلتها بمثلها ، فليس فى تاريخ الانسان على الأرض ما يقوم دليلا على أن الانسان أحكم حاكم وأعرف حاكم بمصلحته الصحيحة • ولكن الاعتماد على تحكيم العقل وحسب ، لصرف الناس عن استعمال القنبلة الأيدروجينية ، لا يكفى • فالقرار الذى اتخذته ترومان كان من الوجهة السياسية ، شيئا لا مفر منه ، لأن الامتناع عنه ، قد يعرض أمريكا وصاحباتها ، لخطر روسيا ان هى تزودت

بهذه القنبلة • ولو لم يفعل ، لكان ضغط الرأى العام خليقا بأن يفرض عليه هذا القرار •

فالمسألة الملحة اليوم هي هذه : ما هو مبلغ الأمل فى الوصول الى تفاهم على وضع حد لهذا التنافس الرهيب فى صنع الأسلحة ، ولاسيما الذرى منها ، بعد أن اتفق الرأى على أن التفجير الأيدروجينى لا يرجى منه نفع مدنى ؟

من الخير ، أن القنبلة الأيدروجينية ، لا يحتمل أن تصنع ، كما تقول التاييز اللندنية ، فى يوم وليلة وربما لن تصنع • فالعقل والمصلحة يقضيان بأن تغتنم هذه الفرصة ، لتجديد السعى الصادق للاتفاق مع روسيا على الرقابة الذرية ، مهما بيد الأمل فى الوصول الى اتفاق معها ، شيئا بعيدا • فقد أبت روسيا حتى الآن أن تقبل مشروع الرقابة الذى اقترحته أمريكا أولا وارتضته كثرة الأعضاء فى لجنة الطاقة الذرية • وقد أبى هؤلاء الأعضاء أن يقبلوا المشروع الروسى • ولكن اهتمام روسيا بوضع مشروع ، يعنى ضمنا أنها ترى ضرورة الرقابة • بيد أن المشروع الروسى ليس من العقم بحيث لا يدع مجالا للبحث ، والمشروع الأمريكى ليس من الكمال بحيث لا يحتمل إعادة النظر فيه • وقد قرأنا لعدد من أهل الرأى فى أمريكا ما يدل على أنهم يتلمسون مدخلا جديدا لحل هذه المشكلة • فالقنبلة الأيدروجينية لا تغير شيئا من طبيعة المشكلة ولكنها تجعل الوصول الى حل لها شيئا ملحا • وقد لا يكون الاتفاق على الرقابة كافيا ولكنه حتما عنصر لا غنى عنه فى كل اتفاق عام •

قيمة الاتفاق

بعد العاصفة التي أثارها حديث القنبلة الأيدروجينية تعالت الأصوات على جانبي المحيط الأطلسي ، بضرورة الاتفاق على « رقابة الطاقة الذرية » حتى يبعد شبح الهول والقلق الجاثم على نفوس الناس . فاذا أريد هذا الاتفاق قاصرا على خطر الانتفاع بالطاقة الذرية في الأغراض الحربية ، واذا ذهب الظن الى أنه وحده كاف لاتقاذ الناس مما يساورهم ، فهو وهم خطره بين ، لأن التنافس في صنع القنابل الذرية ليس سوى مظهر للخلاف بين الكتلتين . وجدوى الاتفاق مع روسيا بينة ، فالسياسة الغربية ليس غرضها أن تقهر الروس في حرب أخرى لا ينجو من هولها غالب ولا مغلوب ، بل غرضها الوصول الى قدر من التفاهم يتيح قسطا من الأمن والطمأنينة لعالم يقلقه الخوف . بيد أن جدوى الاتفاق لا تعنى أن الاتفاق على القنبلة ، هو كل ما يطلب . واذا أريد لأى اتفاق مع روسيا أن يحقق الغرض منه ، فينبغى أن يعالج أصل المشكلة ، وهى برغم مهالك السلاح الذرى ، ليست مشكلة هذه القنبلة أو تلك ، بل هى خطر نشوب حرب بين الكتلتين . فالذى يجب أن تتجه اليه المساعى في المقام الأول ، هو ازالة خطر الحرب ، لا ازالة القنبلة الذرية من الحساب الحربى وحسب ، وكل اتفاق على القنبلة الذرية تقاس قيمته بمقدار ما له من أثر في تقليل خطر الحرب أو زيادته . فالقنبلة الأيدروجينية ، لا تغير شيئا من عناصر الموقف الدولى ، سوى أن تجعل القضاء على خطر الحرب ، شيئا ألح مما كان ، لأن خطر التدمير صار أفدح كثيرا مما كان .

لنفرض أن اتفاقا على رقابة الطاقة الذرية قد عقد ، وأن أمريكا دمرت ما عندها من القنابل المصنوعة وتعهدت بأن لا تمضى فى التمهيد لصنع القنبلة الأيدروجينية ، وأن روسيا رضيت بالرقابة الدولية على الطاقة الذرية التى تتولاها الدولة فى مصانعها ، وأن تحيل الى لجنة دولية بعض وجوه النشاط الذرى خلال مدة محددة بقصد التجربة ، أفيقلل ذلك من خطر الحرب أم يزيده ؟

انه لا يقلل خطر الحرب الا اذا جراه تحسن عام فى العلاقات بين الشرق والغرب ، يخفف من حدة الجفاء بينهما • أما اذا ظل أحدهما يخشى اعتداء الآخر ، فلن يجدى أى اتفاق على الطاقة الذرية مهما أحكمت نصوصه فى القضاء على التنافس فى التسليح الذرى ، ما دامت المعارف الذرية متاحة والوسائل الصناعية اللازمة للتسليح الذرى لم يعتمورها نقصان •

بل فى الوسع أن تقيم الحجة على أن الخطر خليك أن يزداد ، لأن اتفاقا من هذا القبيل قد يكون كالمخدر ، يؤثر فى ادراك الشعوب الغربية وارادتها فتظنه واقيا من الحرب ، فتتراخى وتنصرف على عادتها الى ما يهملها من شؤون الحياة ، فيكون فى ضعفها اغراء للفريق الآخر بأن يقدم على مغامرة ما •

واذن أيقف رجال السياسة جامدين لا يحركون ساكنا فى سبيل التفاهم بين الشرق والغرب ؟ كلا ! أو ليس حديث القنبلة الأيدروجينية فرصة جديدة خليقة أن تفتح كوة على الأقل فى الستار الحديدى ، ان لم تفتح بابا على مصراعيه ؟ نعم ، ولكن ينبغى أن لا ينحصر البحث فى نطاق القنبلة ، بل أن يتعدها الى نطاق أعم ، يشمل جميع مسائل السياسة التى تشير القلق ، وتحرك الريب •

ويومئذ يكون الاتفاق على القبلة ، جزءا من اتفاق عام فان كان
قشة شعاعة من رجاء •

هذا هو المبدأ ، فهل الطريق ممهد الآن لتطبيقه ؟

تتحدّر سياسة روسيا حيال الغرب من مبدأين ، أما الأول
فهو الايمان بأن الاتحاد السوفيتي عرضة لخطر هجوم بيته العالم
الرأسمالي ، وأنه مادام العالم الرأسمالي قائما فهذا الخطر قائم •
وأما الثاني فهو أن في قدرة العالمين الرأسمالي والشيوعي ، أن
يعيشا جنبا الى جنب زمنا ما بغير حرب ، على ما بينهما من فروق
في المذهب والنظام الاقتصادي • أول المبدأين أقدم ويرتد الى لينين ،
والثاني يسند الى ستالين فقد قال في مذكرة سرية لتشرشل في أثناء
الحرب : « ان الفرق العظيم في تنظيم الدولة ينبغي أن لا يعوقنا
عن الوصول الى حل موفق لجميع المسائل الخاصة بأمننا جميعا
ومصالحنا المشروعة » وقد تواترت الدلائل في الأشهر الأخيرة على
أن هذا الرأي لا يزال رأيه •

والعالم الغربي يرى هو أيضا أنه ما دامت هناك دولة شيوعية
ضخمة تستهدف القضاء على العالم الرأسمالي فهذا العالم عرضة
لخطرها • فكأن المبدأ الشيوعي الأول قد صار مبدأ تأخذ به الدول
الغربية بعد أن عكست آيته • والعالم الغربي يرى أيضا ما يراه
ستالين من أن العالمين يستطيعان أن يعيشا جنبا الى جنب بغير حرب
على أن يفسر لفظ الحرب تفسيراً لا يقتصر على القتال وحسب
بل يشمل الدعاية والتوسل بالأحزاب الشيوعية لبث الاضطراب
والتفتيت الداخلي ، في الدول غير الشيوعية •

فالوصول الى تسوية بين العالمين يقتضى أن يقوم الدليل للعالم

الشيوعى على أن العالم الغربى لا ينوى أن يشن هجوما عليه ، وأن يقوم الدليل للعالم الغربى على أن العالم الشيوعى قد كف عن شن حرب التفتيت الداخلى بشتى وسائلها •
فهل هذا مستطاع ؟

لسنا نعلم ان كان فى قدرة الكرملين أن يكف عن هذه الوسيلة فهى سلاحه الأمضى فى الحرب الباردة أو ان كان فى قدرة الغرب أن يقنع روسيا السوفيتية بأنه لا يبيّت حربا عليها ، فهذا الظن جزء من مذهباها ، ولكن الذى يبدو هو أن العالم الغربى لا يرى أن عقد مؤتمر الآن يكفل الوصول الى تسوية مجدية ، لأن كل اتفاق مع روسيا — فى رأيه — لا يجدى الا على قدر مطابقته لحقائق الحالة الدولية • فالمسألة ليست مسألة عقد مؤتمر أو عدم عقده بل هى ما تستطيع الدول الغربية أن تعرضه أو أن تقبله حتى ينجح المؤتمر ، وما يسعها أن تتوقعه من جانب روسيا فيه وما يكون موقفها ان أخفق • وليس فى صحائف المؤتمرات التى عقدت بعد الحرب ما يشجعها على الاقبال • ففوة روسيا مندفة بنزعنها التوسعية القديمة ودعوتها الشيوعية العالمية الى كل موطن ضعف تجده ، واذن فلا بد للدول الغربية من أن تسعى لتقلل مواطن الضعف وتوسع رقعة القوة وهذا هو غرض مشروع انعاش أوربا وميثاق الدفاع الأطلسى وخطة النقطة الرابعة وغيرها •
فيلوح اذن أن الحرب الباردة ماضية فى سبيلها حتى تتوازن الكتلتان فيتسنى عقد اتفاق مطابق لحقيقة الواقع أو حتى يندلع الشرر •

الحرب الباردة

الحرب الباردة

- ١ — فى كفتى الميزان ١٩ أبريل ١٩٤٨
- ٢ — أمل يتحدى العزيمة ٣ مايو ١٩٤٨
- ٣ — الوسيلة والغاية ٢٨ يوليو ١٩٤٨
- ٤ — بين سياستين متناقضتين ١٧ أغسطس ١٩٤٨
- ٥ — هدنة فى الحرب الباردة ٢٥ أغسطس ١٩٤٨
- ٦ — لا حرب ولا سلام ٣ نوفمبر ١٩٤٨
- ٧ — أوروبا تتلفت ١٠ نوفمبر ١٩٤٨
- ٨ — المنحدر والهوة ٢٢ نوفمبر ١٩٤٨
- ٩ — العידان المجتمعة والمتفرقة ٦ ديسمبر ١٩٤٨
- ١٠ — ماجدوى الاجتماع؟ ٦ فبراير ١٩٤٩
- ١١ — بين برلين ونانكين ١٠ يناير ١٩٤٩
- ١٢ — سقط القناع ١٦ مارس ١٩٤٩
- ١٣ — فترة السلم الباردة ١٦ مايو ١٩٤٩
- ١٤ — رضى وحذر ١٠ مايو ١٩٤٩
- ١٥ — أى الخطرين أولى بالتقديم؟ ٦ يونيو ١٩٤٩
- ١٦ — موسكو وبلغراد ٢٦ ديسمبر ١٩٤٩
- ١٧ — الصين وأندونيسيا ٢٨ ديسمبر ١٩٤٩

- ١٨ — الحرب الباردة تمتد ٣٠ ديسمبر ١٩٤٩
- ١٩ — مشروع مارشال . مرحلته الثانية . ١٥ يناير ١٩٥٠
- ٢٠ — الجبهة الشعبية الجديدة ١٨ أبريل ١٩٥٠
- ٢١ — مبدأ الميثاق الأطلسي ٢٠ ديسمبر ١٩٤٨
- ٢٢ — ما قيمة الميثاق ؟ ٢٨ مارس ١٩٤٩
- ٢٣ — الجماعة الأطلسية ٢٦ مايو ١٩٥٠
- ٢٤ — ألمانيا والدفاع الغربى ١٣ مايو ١٩٥٠
- ٢٥ — أعباء الدفاع والاقتصاد ٣ يونيو ١٩٥٠
- ٢٦ — قوة مشتركة متوازنة ٤ يونيو ١٩٥٠
- ٢٧ — اسبانيا فى الميزان ٥ نوفمبر ١٩٥٠
- ٢٨ — بين العزم والقدرة ١٩ أكتوبر ١٩٥٠
- ٢٩ — الجماجم والحدود سبتمبر ١٩٤٩

فى كفتى الميزان

يذهب غير واحد من أهل الرأى فى شئون الدول ، الى أن النزاع بين الكتلتين الشرقية والغربية الذى يطلقون عليه وصف « الحرب الباردة » ، قد ارتفعت حرارته بعض الشيء وأن الذى حدث فى تشيكوسلوفاكيا وفنلندة وبرلين ، لا ينبغى أن يعد حربا وسائلها الدعاية والتغلغل والضغط الاقتصادى والحربى وحسب ، بل هى فى رأى هؤلاء النفر ، أعمال دبر خطتها وحققها رجال الحرب ، لأغراض حربية ، مهما تكن بعيدة • ويقىمون الدليل على ذلك ، بأن فنلندا وتشيكوسلوفاكيا كانتا فى نطاق روسيا السياسى ، ولكنهما لم تكونا من الناحية الحربية فى نطاق روسيا الحربى ، ولو نشبت حرب لما كان فى وسع الكرملين أن يطمئن الى الاعتماد عليهما اعتمادا كاملا • فأهل تشيكوسلوفاكيا على الرغم من عطفهم على روسيا ، حريصون على قوميتهم وديمقراطيتهم ، وعلى صلاتهم الاقتصادية والثقافية بدول الغرب • أما الفنلنديون فيجمعون بين نزعتهما الديمقراطية الغربية وفطرة الخوف من الروس ، وهى فطرة ولدها تاريخ علاقتهم الطويل بروسيا • واذن ، فهذان بلدان لا تستطيع روسيا أن تطمئن اليهما — اذا وقعت الواقعة • ولكنهما بلدان لهما شأن حربى خطير • فنلندة مفتاح لبحر

البلطيق ، والدول السكنديناوية وجميع مشارف روسيا فى الشمال •
وتشيكو سلوفاكيا ، فى موقع جغرافى ، يئىلها قدرة على السيطرة
على وادى الدانوب ، والطرق المفضية الى جنوب ألمانيا والبحر
الادرياتيک • فاذا أضفت اليهما تركيا ، فقد ذكرت المواقع الثلاثة
ذات الشأن الحربى ، التى لا غنى عنها فى الدفاع عن روسيا ،
ثم لا غنى عنها فى كل خطة تضعها روسيا للتوسع الحربى ، فى أوربا
الى الغرب والجنوب ، وفى الشرق الأوسط •

فحدوث ما حدث فى تشيكو سلوفاكيا ، وعقد اتفاق حربى مع
فنلندا ، يصح أن يكون دليلا ، على أن أذهان حكام روسيا ،
قد اتجهت الى الاعتبارات الحربية ، فقدمتها على غيرها •

وهذا لا يعنى أن نشوب الحرب شىء وشيک ولا مفر منه ،
بل يعنى أن التقدير الغالب فى تطور الحوادث ، انما هو تقدير
العوامل التى لها قيمة حربية — ان لم يكن بد من وقوع الصدام
ومن هنا الشأن الخطير الذى يعلقه رجال السياسة ومراسلر
الصحف على النتيجة التى أسفرت عنها الانتخابات الايطالية أمس —
والتى لم تدع بعد • فكل نتيجة تفضى الى اشتراك الشيوعيين
فى حكم ايطاليا ، أو الى انفرادهم بحكمها تعزز موقف روسيا الحربى
فى أوربا والبحر المتوسط والشرق الأوسط ، وتضعف موقف
الدول الغربية •

وحتى اذا فرضنا جدلا ، أن الشيوعيين استأثروا بحكم ايطاليا ،
دون أن يتاح لهم أن يستأثروا ببسط سلطانهم على غرب أوربا ،
فان ذلك وحده يعد مزية حربية من المقام الأول • فذلك يعنى أنه
يصير لطائرات روسيا وغواصاتها قدرة — كما كان لطائرات المحور

وغواصاته فى الحرب العالمية الثانية — على عرقلة المواصلات البحرية للدول الغربية فى البحر الأبيض المتوسط ، فتحول دون وصولها على حريتها الى بعض البلاد التى تحف بسواحلها ، لتتخذ منها قواعد تشن منها الهجوم على روسيا — اذا وقعت الواقعة •

فكيفما قلبت النظر فى الأمر ، من ناحية الكتلتين الشرقية والغربية ، ألفت المغزى الحربى منطقيا فى كثير من الحوادث المتوالية بين سمع الناس وبصرهم ، وحق لك أن تقول أن الحرب الباردة قد دخلت الآن مرحلة هى مرحلة السباق فى سبيل الفوز بالمزايا الحربية •

ثم ان الانتخابات الايطالية التى تمت أمس ، خليفة أن تسفر عن معنى لن يضيع أثره فى دول غرب أوروبا • ففى أواخر الحرب العالمية الأولى وأعقابها ، قامت الدولة الشيوعية فى روسيا ، ثم قامت حكومات شيوعية فى بعض بلاد أوروبا ولكن سرعان ما غلبتها على أمرها الجماعات القومية فى تلك البلاد برغم تفككها وضعفها • فلما بلغت الحرب العالمية الثانية مراحلها الأخيرة فى أوروبا ، اكتسح الجيش الروسى شرق أوروبا واحتل دولها ، فاذا الحكومات الشيوعية قد قبضت على زمام الأمر فيها — بولندة رومانيا بلغاريا تشيكوسلوفاكيا ، أو اضطرت أن تقف موقفا مواليا للروس — فنلندة • أما سائر دول أوروبا التى لم تحتلها الجيوش الروسية ، فلم تخضع للسلطان الشيوعى ، والفرق بين الطائفتين ، هو وجود الجيوش الروسية محتلة أو محدقة بالطائفة الأولى من الدول ، وعدم وجودها فى الثانية • فايطاليا سوف تبين أفى وسع القوات الشيوعية الداخلية فى دولة ما أن تظهر بالقبض على زمام الحكم ،

بغير أن تستمد سطوة من الجيوش الروسية تضاف الى سطوتها ؟
والجواب على هذا السؤال لا يقتصر خطره على ايطاليا
وحسب ، بل يشمل سائر دول أوروبا الغربية ، ولاسيما البلاد التي
فيها أحزاب شيوعية قوية . فان كان الجواب بالنفى ، عزز ذلك
أيدي الأحزاب المناهضة للشيوعية في البلاد الأخرى ، لأن ماتم
في ايطاليا يقنعا ، أو يشجعها على الأقل ، بأن ذلك في طاقتها
هى أيضا ، ثم يلى ذلك فترة تتاح فيها الفرصة لهذه الدول أن تجنى
ثمار مشروع مارشال وثمار تعاونها الاقتصادى والسياسى
على انجاحه .

ومع ذلك يظل السؤال الذى يدور على الألسن هو هذا : أتريد
روسيا الحرب ؟ والجواب فى أغلب الرأى هو أنها لا تريدها ، ولكنها
لن تنفك عن السير على خطة من شأنها أن تثير نفوس الذين بأيديهم
مقاليذ الأمر فى الدولة الغربية ، وأن تلقى بضغطها القوى حيث تجد
موقعا ضعيفا ، ففى هذه الحالة لن يستطيع سياسى مسئول أن يغفل
خطر الحرب . فالخطر قائم ، وهذا كل ما فى الأمر الآن ، ولا بد من
التأهب له .

فلذلك جاءت حوادث تشيكوسلوفاكيا وفنلندة وبرلين ، كالمنبه
لأولى الحل والربط فى الدول الغربية ، فطلب ترومان من الكونجرس
تعزيز قوة أمريكا الحربية ، وعقد ميثاق بروكسل ، واستعجلت
الموافقة على مشروع مارشال ، وتم الاتفاق بين الدول الأوروبية
الست عشرة على أصول تنفيذه . وقيل ان الهيئة المشتركة البريطانية
الأمريكية ، لأركان الحرب ، قد وضعت خطة للطوارئ ودار
الحديث على خطط أخرى بعيدة المدى لتأييد الاتحاد الأوروبى

الغربي ، تأييدا حربيا • فاذا لم تنزلق الأقدام انزلاقا الى ما لا تحمد عقباه ، فربما نشأ عن كل ذلك ضرب جديد من توازن القوى ، يصون السلام زمنا غير قصير كما كان في القرن التاسع عشر •

أمل يتحدى العزيمة

خف الجفاء شيئا قليلا في أوروبا بعد أن ظهرت نتيجة الانتخابات الإيطالية وقد كان الشيوعيين في شمال إيطاليا يتأهبون ليضربوا ضربة قوية غداة الانتخاب ، في منطقة صناعية لهم فيها أتباع كثر ، فصدر الأمر اليهم بأن لا يفعلوا • ولكن الحالة في برلين لا تزال تبعث على شيء من القلق • فالروس فيها يهددون بفرض قيود على الحلفاء الثلاثة في استعمال الطريق الجوي بين غرب ألمانيا وبرلين ، فكان رد الجنرال كلاي الأمريكي ، أن الاتفاق بين الدول الأربع يأذن له في استعمال هذا الطريق ، وأنه ينوى أن يفعل ، فاذا انتهك الروس هذا الاتفاق ، فلن ينشئ عن استعماله فاذا اقتضاه الأمر أن يسير طائرات مطاردة لحراسة طائرات النقل ، فعل ذلك • فلما سئل الجنرال أليس تسيير هذه الطائرات المطاردة ، مناقضا للاتفاق الذي يمنع الطيران في أسراب منظمة كأسراب القتال ، كان رده : اذا بلغت الحال هذا المبلغ ، فمن ذا الذي يبالي بنصوص من هذا القبيل •

وحقيقة الأمر أن الروس لا يزالون يسيرون في برلين على سياسة « وخز الابر » كما يقولون • ولكنهم فيما يتصل بقواعد سياستهم العامة حيال غرب أوروبا ، تراهم يعترفون — وان لم يقولوا — ان مدهم نحو الغرب قد وقف عند حده الآن ، لأنهم

أدركوا فيما يلوح أن التمدادى فى دفعه غربا ربما أفضى الى حادثة
أو أكثر قد تكون عاقبتها انزلاقا الى حرب لا يريدونها — الآن
على الأقل . وهذا فى أغلب الرأى هو مغزى مبادرتهم الى ثنى
الشيوعيين الايطاليين عن القيام بعمل كمثل العمل الحربى فى شمال
ايطاليا غداة الخذلان فى الانتخاب . ولعلمهم وقد أخذوا يجنحون
الى خطة الاستكتمان حيال غرب أوربا ، يتأهبون لامتحان مواقع
أخرى كاليونان أو تركيا أو ايران أو الشرق الأقصى ، عسى أن
يعنو لهم واحد منها أو أكثر ، دون خطر الانسياق الى حرب عامة .
وخطر الانسياق الآن الى حرب عامة ، هو فى نظر الذين عرفوا
شيئا من دخائل الحياة السياسية الروسية ، خطر يريد رجال
الكرملين أن يتجنبوه الآن ، لسببين أصيلين : أولهما أن الأجيال
الجديدة فى روسيا ، تؤمن ايمانا راسخا بأن موارد روسيا التى
لا تكاد تحد فى الرجال وذخائر الأرض ، كفيلة بأن تهيب لهم أن
ينبوا أقوى أمة ظهرت على الأرض . وثانيهما أن روسيا من الناحية
الصناعية لا تزال متخلفة سنين كثيرة عن المستوى الصناعى الذى
أدركته أمريكا . وليس بين قادة الروس وزعمائهم من يستطيع
أن ينسى اليوم ، ان صناعة الولايات المتحدة أعدت فى بضع سنوات
جميع وسائل الحرب الحديثة ، فى البر والبحر والهواء ، لجيوشها
فى أوربا والمحيط الهادىء ، ولبعض جيوش حلفائها — ومنهم
روسيا — أيضا .

وقد سئل قائد بريطانى محنك : متى تظن أن روسيا تجنح الى
الحرب ، فقال انه يراهن بكل ما يملك على أن روسيا لن تحارب
خلال السنوات الخمس المقبلة — ان لم يعتد أحد عليها . وأنه

يراهن بنصف ما يملك على أنها لن تفعل في بحر السنوات العشر المقبلة ، وانه لا يراهن بشيء على أنها لن تكون في غمار حرب بعد خمس عشرة سنة ♦

فاذا صح تقدير هذا القائد ، فان عزوف روسيا عن الرغبة في الحرب ، في السنوات الخمس أو العشر المقبلة ، لن يعنى أن النعمة الحربية الغالبة على أقوالها وأفعالها ، سوف تخف ، ولا أنها ستكف عن امتحان كل موقع حتى اذا ألقته ضعيفا نفذت منه ، ولا أنها ستثنى عن التوسل بكل برم وسخط وشكوى في شتى بلاد الناس ، لتعزيز الجماعات الشيوعية فيها ♦ وهذا التقدير هو الذى يرسم الطريق الذى ينبغى أن يتبع في كل مكان ، لازالة الأسباب الاجتماعية التى تجعل أية طائفة من الناس مرتعا خصبا للمبادئ الشيوعية ♦ بيد أن التحسين الاجتماعى وحده ، لا يكفل انحسار ذلك المد ، ان قام على زيادة الأجور ، وتوزيع الأملاك ، وتوفير أسباب الرخاء التى خلقتها الحضارة الصناعية ، دون أن يصحبه تجديد للمعانى الروحية التى انبعثت من الشرق الأدنى ، فاحتضنتها الحضارة الأوروبية ، فانطلق بها الذهن الانسانى يستكشف ويخترع ويصنع ، والتفت من حولها الجماعات الغربية تسعى لانشاء مجتمع تكفل فيه أسباب الحرية والتعاون ♦

فهذا المثل العالى ، لا يزال يتحدى الخيال والعزيمة ♦ ولعله من الخير ، أن ينتحى المرء ، في الحين بعد الحين ، قمة عالية يستشرف منها الحوادث التى تمر به سراجا آخذا بعضها برقاب بعض ♦ ولعل اليوم ، وهو عيد الربيع في مصر ، خير يوم لمثل هذا الاستشراف ♦ فنحن المقيمون على السفح خليقون أن نستغرق

في تفاصيل الحوادث التي لم تفتأ تتوالى منذ شهرين : انقلاب تشيكوسلوفاكيا ، وخضوع فنلندا ، بعض الشيء لسلطان موسكو ، وحوادث النزاع التي تستفز الأعصاب في برلين وينا ، والانتخابات في ايطاليا ، والمرحلة الأولى في قيام الاتحاد الأوربي ، والشحنات الأولى من ثغور أمريكا الى ثغور أوروبا ، بحكم مشروع مارشال ، والقتال الدامي في فلسطين ، وسيول الكلام عن فلسطين في هيئة الأمم المتحدة ، وخيبة لجنة الطاقة الذرية ، وهكذا .

وقد ننظر الى كل حادث من هذه الحوادث على أنه مثل من أمثلة الصراع القائم بين رأيين ، أو مذهبين من مذاهب السياسة والاجتماع ، أو بين القوتين اللتين من ورائهما . بيد أننا نستطيع أن ننظر اليها أيضا على أنها تململ يدل على أن الجسم المريض يحاول أن ينفذ عنه بلاء المرض ليسترد عافيته . فالذي جعل هتلر قويا كان ضعف المجتمع الغربى الذى نصفه بالمجتمع الديمقراطى — أخذا بما يرجى أن يكون . وخطر الشيوعية على غرب أوروبا انما مرده الى ضعفه المادى والروحى ، أكثر منه الى قوة الشيوعية نفسها . أفنحن نشهد سورة العودة الى الصحة ، أم حشرة المشفى ؟

وقد أثبتت الديمقراطية في أثناء الحرب ، أنها تستطيع أن تستمد القوة من دخيلة نفسها لتدفع عن نفسها الخطر الذى ألم بها . غير أن الدفاع لا يمكن أن يقتصر على المادة يجعلها طائرات ودبابات وقنابل أفستطيع الحضارة الديمقراطية ، التى أشرقت أنوارها أولا في الشرق الأدنى ، أن تجدد ايمانها بالمعاني الروحية التى ولدتها ، فتنظر الى المستقبل نظرة الرجل القوى الذى قبل التحدى ؟ ان أنفاس الربيع التى سرت في الأرض والمخلوقات ، تغرى بالأمل .

الوسيلة والغاية

ليست أزمة برلين فى عرف أقطاب الكرملين سوى وسيلة لغاية أبعد وأخطر شأنًا . فما هى الغاية ؟ وكيف يتوسل أقطاب الكرملين بأزمة برلين لتحقيقها ؟

ان الغاية البعيدة التى يرنو الروس الى تحقيقها فى ألمانيا بينة لا يكتنفها غموض ، وفى وسعك أن تصفها فى كلمات قليلة : يريد القادة الروس أن يظفروا بالسلطان السياسى على شعب زاخر القوة ، بلغ أعلى شأو فى القدرة الصناعية ، وأن يقبضوا على زمام موارده الطبيعية فيكفل ذلك لهم تحقيق الأمنية التى خامرت نفس لينين فوصفها بقوله : « ان ألمانيا خليفة أن تصير أقوى الحلقات فى سلسلة الثورات الشيوعية »

هذا هو الغرض البعيد . بيد أنه ينبغى لكل من يحاول أن يتبين سير السياسة الروسية ، أن يفرق بين هذا الغرض ، والأغراض القريبة المباشرة التى يطلبونها ، اذ يجدون أنفسهم يواجهون الدول الغربية الثلاث فى برلين ، وفى الشطر الغربى من ألمانيا .

فقد أقدم الحلفاء الغربيون بعد زمن من التردد والمماطلة ، على أعمال هزت السياسة الروسية هزا عنيفا ، يوم وافقوا على قرارات مؤتمر لندن التى تلخص فى انشاء حكومة ألمانية فى الغرب ، متصلة بالدول الثلاث ، وواقعة تحت نفوذهم ، وعلى المضى فى انهاض مستوى الانتاج فى الرور دون أن يكون للروس شأن فيه أو نصيب منه ، وأن يستيعنوا بكل ذلك على انعاش ألمانيا الغربية نفسها ،

وعلى مشاركتها فى نجاح مشروع الانعاش الأوروبى المشهور
بمشروع مارشال •

وقد قلق الروس حيال ما رأوا ، حتى لتراهم قد أقدموا على
محاصرة برلين ، مع ما تنطوى عليه هذه المحاصرة من خطر
لا يزال يتفاقم •

ولكن الروس يرون أن الخطة الغربية ، ان نجحت ، فهى كفيلة
بأن تؤدى الى تفويت الغرض البعيد الذى يتوخونه فى ألمانيا • فلصناعة
الرور شأن عظيم فى انجاح مشروع مارشال الذى حزموا أمرهم
على احباطه ، وهذا بدوره مفض الى ضعف الحزبين الشيوعيين
فى فرنسا وإيطاليا ، بعد أن انحسر مدهما بعض الشيء • وقد يكون
فيه اغراء للدول الأوروبية الشرقية التى تسير فى فلك الشمس
الروسية • فلذلك عمدوا الى وسيلة جريئة — وسيلة محاصرة
برلين ، عسى أن يظفروا من الدول الغربية المتلكئة بالموافقة على
العودة الى بحث مسألة ألمانيا كلها فى مجلس وزراء الخارجية الأربعة •
فاكره الدول الغربية الثلاث على الخروج من برلين غرض من
الأغراض القريبة التى يتوخاها الروس ، ولكنه ليس الغرض العام
البعيد • وهو ليس الا بعض الوسيلة التى يتوسلون بها لجعل ألمانيا
كلها جزءا من رقعة الدول الشرقية الأوروبية الخاضعة لسلطانهم •
وهم يريدون أن يخرجوا الدول الغربية فى برلين حتى تضطر الى
الخروج منها ، لأن بقاءها فيها قد يحول دون تنفيذ سياستهم
فى الشطر الشرقى من ألمانيا الذى يحتلونه • وتنفيذ هذه السياسة
هو الخطوة الأولى نحو انشاء دولة شيوعية فى ألمانيا كلها •

غير أن انشاء هذه الدولة يكاد يكون مستحيلا عليهم ،

ان لم يكن لهم باب يمدون منه يدهم الى سائر ألمانيا • نعم ان زعماء الشيوعية الألمانية في شرق ألمانيا المحتل ، يكثرون من الحديث عن انشاء فردوس ألماني ، في الشطر الشرقي ، فيصير كالمغنطيس القوى يجتذب اليه نفوس سائر الألمان ولكن الروس يدركون أن هذا قول أجوف ، لأن الشطر الغربي أغنى وأدنى الى حسن الحال • فلذلك تراهم يعتقدون أن الوسيلة الوحيدة لنشر الشيوعية في غرب ألمانيا ، هي ضغط سياسى قوامه : قيام حكومة ألمانية شيوعية في برلين ، وانفساح الطريق أمامهم لبث دعوتهم بين عمال الغرب ، ولا سيما عمال منطقة الرور •

وهذا يعلل رغبة أرباب الكرملين في العودة الى بحث المشكلة الألمانية كلها في مجلس الوزراء الأربعة • والبيان الذى صدر بعد اجتماع وارسو ، لا يحتمل تأويلا في صدق هذه الرغبة • فاذا تم لهم ذلك ، وأسفر البحث في مجلس الوزراء الأربعة ، عن اشتراك الدول الأربع في تدبير أمر ألمانيا ، أدرك الروس من وراء ذلك ثلاثة أغراض : أولا — فتح الباب الذى يمدون يدهم منه الى غرب ألمانيا • ثانيا — احباط مشروع مارشال بتحريك عمال الرور وخفض الانتاج • ثالثا — معاملة ألمانيا على أنها وحدة ، فهذا يجعلها هدفا أيسر لسلطانها ، أما بقاؤها مشطوبة شطرين ، بينهما حاجز فاصل ، فكفيل بأن يبقى الشطر الغربى بعيدا عن منالهم •

وموقف روسيا في ألمانيا بالقياس الى موقف الدول الغربية ، أضعف اليوم مما كان في أية فترة سبقت منذ نهاية الحرب • فقد بدأت الولايات المتحدة تتسلح ، وخسرت الشيوعية شيئا من مقامها في فرنسا وايطاليا ، وهذا مشروع مارشال ماض قدما ، وهو خليق

أن يؤتى ثمره بأسرع مما كان يظن ، وقد عقد ميثاق بروكسل ووعدت أمريكا بالتعاون مع دوله ، وأما الرور فقد جعل حرما على الشيوعيين ، وأما يوغوسلافيا ففى حكم من شق عصا الطاعة على الكرملين ، وربما وجدت جماعات فى سائر دول شرق أوروبا تؤيد يوغوسلافيا وان خشيت أن تفصح عما ترى . فهذه الأحوال مجتمعة لا تتيح لروسيا فرصة تيسر لها أن تدرك الغرض البعيد الذى تتوخاه فى ألمانيا كلها .

ولكنها مع ذلك لا تزال تملك من الوسائل ما يواتيها على احراج الدول الغربية . وفى طليعتها محاصرة برلين فاستمرار المحاصرة حتى بغير التعرض لطائرات النقل الحليفة يحمل الدول الثلاث عبئا يؤودهم ، وقد يعجزون عنه فى الخريف والشتاء . وقد لا يكون دون المحاصرة شأنا ، أن تعرض روسيا فى أى مؤتمر يعقد أن تتراجع بعض التراجع عن المطالب التى حرصت عليها فى مؤتمر موسكو ولندن فى السنة الماضية — مبلغ التعويضات الفاحش ، وضرورة اقامة حكومة مركزية ألمانية فى برلين . بل قد تقترح أن تجلو جميع جيوش الحلفاء عن ألمانيا ، فإذا أبت الدول الغربية ذلك ظهر الروس فى مظهر المناصر لحرية الألمان ، واذا وافقت ظلت القوة الحربية الروسية دون الأمريكية أقرب الى ألمانيا والى التأثير فى مصيرها — كما فعلت فى تشيكوسلوفاكيا .

وبين الوسيلة والغاية ، يصبح الناس ويمسون ، وهم يشاهدون لعبة القمار دائرة على مصير شعب ، بل على مصير قارة .

بين سياستين متناقضتين

لا يزال ستار الكتمان مسدلا على المباحثات الدائرة في موسكو^(١)، وكل ما يقال عن تفاؤل سيرها أو تشاؤم من مصيرها، هو كالرجم بالغيب • وليس غريبا أن تطول المحادثات، ولا أن تكتم، فهي تدور على موضوعات خطيرة، يرتبط بعواقب بحثها مصير أمة أوربية عظيمة، أو ربما مصير السلم في العالم •

فلندعها وشأنها اليوم • ولنحاول أن نستشف ما وراءها من تيارات سياسية تملئها حقائق التاريخ والاقتصاد والجغرافية، فنسأل: ما سر اهتمام روسيا بألمانيا هذا الاهتمام العظيم؟ والرد عليه منتزع من التاريخ: كل من يسيطر على ألمانيا ووسط أوروبا يصبح سيد القارة • كذلك كان في عهد نابليون ثم في عهد هتلر • وفي العهدين كليهما، مال سيد القارة الى غزو روسيا • فألمانيا في نظر روسيا، مصدر الخطر الذي هددتها مرتين على الأقل منذ مستهل القرن التاسع عشر • ولروسيا كدولة عالمية، مصالح عالمية في الشرق الأقصى، والشرق الأوسط، وأوروبا • ولكنها لا تخشى أن يأتيها الغزاة الا من قلب أوروبا — أو هكذا علمها التاريخ حتى اليوم • فالقوة الوحيدة التي تخشاها هي القوة التي تسيطر على ألمانيا، سواء أ قوة ألمانية كانت أم غير ألمانية • فالقضاء على مصدر هذا الخوف، مبدأ أساسى في سياسة روسيا حيال ألمانيا •

فلذلك يحرص الروس على أن يحولوا دون أية قوة تسيطر على ألمانيا، وليس في المستقبل المنظور سوى قوتين اثنتين في وسعهما

(١) حول حصار برلين •

أن تسيطر عليها • أما الأولى فالقوة الألمانية بعد أن تهب ، كما فعلت بعد الحرب العالمية الأولى في خلال ١٥ سنة وحسب • وأما الثانية فالقوة الأمريكية طليعة الدول الغربية •

وقد اختطت روسيا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى خطة اضعاف ألمانيا وجرت عليها خلال سنتين أو أكثر قليلا • وقد بدا لها أنها خطة تكفل لها ما تريد على الزمن • ففى كل بلد أوربى حر من الاحتلال النازى جماعات شيوعية تشارك في الحكم ، وتدير تدبيرها للاستئثار به • وألمانيا القوية بلد قهر في الحرب ، فبدأت روسيا تجرد شرقه من وسائل القدرة الحربية ، فنقلت الى روسيا المصانع والخبراء ، وضمت الى بولندة مناجم الفحم في سيليزيا ، وتقاضت تعويضات كبيرة من الانتاج السائر ، وأنشأت حكومة تصانعها وجعلت مقاليدها للشيوعيين ، وأقامت جيش الاحتلال من ورائها •

وقد صادفت هذه السياسة هوى في نفوس الدول الأوربية الشرقية التي تدور في الفلك الروسى •

فتشيكوسلوفاكيا وبولندا تخشيان ألمانيا ، وترغبان في أن تخضع شوكتها ، وقد ظفرتا بنصيب من غنائم النصر ، فتشيكوسلوفاكيا استردت بلاد السوديت وصارت تتطلع الى أن تصير مركزا صناعيا يحل محل ألمانيا ، فيمون الشرق الأوربى بمنتجاته ، ونالت بولندا ولاية بروسيا الشرقية وتقدمت حدودها الغربية الى نهر الأودر والنيس فهاتان الدولتان يرضيهما أن يتحقق ما تسعى روسيا الى تحقيقه — القضاء على الصناعة الألمانية واطفاء شعلة القومية الألمانية •

ولم تحقق فرنسا في ذات نفسها على هذه السياسة ، فهي قد
ذاقت طعم الغزو الألماني ثلاث مرات في سبعين سنة .

ولكن . . ما مصير هذه السياسة لو نهض غرب ألمانيا سواء
كانت النهضة ألمانية خالصة ، أو بمعاونة قوة أخرى ؟ فغرب ألمانيا
هو الأصل في قدرة ألمانيا الصناعية الحربية ونهوضه يثير في شرق
ألمانيا شوقا الى الانضمام اليه ، فيميل الى الخروج على روسيا
وأتباعها ، وقد يصير قاعدة للهجوم على روسيا .

ولا تسأل لم تتوقع روسيا هجوما من الغرب ؟ فهي تخشاه
بحكم العبرة المستخرجة من تاريخها وبحكم المبادئ التي وضعها
ماركس يوم قال ان أزمة الانتاج في العالم الرأسمالي ستفضي حتما
الى مثل هذا الهجوم . ويعزز هذا الخوف ادراك الروس أنهم
لا يجارون أمريكا قدرة على الانتاج الصناعي العظيم .

فلذلك يصح أن تقول أن بداية مشروع مارشال بعد اخفاق
مؤتمر لندن في ديسمبر ١٩٤٦ كان فاتحة عهد جديد فيما اتخذته
روسيا من سياسة في ألمانيا ، فقد رأت ذلك المشروع قائما على انهاض
غرب ألمانيا انهاضا صناعيا وسياسيا ، وشاهدت اخراج الشيوعيين
من شتى الحكومات الأوروبية وخذلانهم بعض الخذلان في فرنسا
و ايطاليا بل في فنلندة ، فقررت أن خطتها الأولى في ألمانيا القائمة
على اضعافها ، لا تجديها في هذا الطور الجديد وتبينت أنها
لا تستطيع أن تنافس الدول الغربية فيما يعرضونه على ألمانيا من
انهاض غربها الا أن تبزهم فيما تعرضه هي ، فنادت بوحدة ألمانيا
وتقويتها وقيام حكومة ألمانية مركزها في برلين التي يخفق لذكرها
كل قلب ألماني وفي نفسها أن تجعل ذلك تحت اشرافها .

وقد وافق البولنديون والتشييكوسلوفاكيون على خطة روسيا الأولى ، لأنها تؤمنهم من نهوض دولة ألمانية قوية ، ولأنهم رضوا بالغنائم التي نالوها • ولكن الخطة الثانية لا تغريهم بل تخيفهم فهم لا يريدون أن يكونوا مرة أخرى موطأ للصراع بين قوتين عالميتين وهم لا يكرهون الغرب بل يريدون الانتفاع بالاشتراك الاقتصادي معه ولكنهم يكرهون ألمانيا وهذه الخطة الجديدة مسددة ضد الغرب ، وقائمة على تعزيز ألمانيا • فهم يستريون عواقبها من الناحيتين ، وإذا استيقظت القومية الألمانية واتحدت ألمانيا الشرقية والغربية فكيف تغفل ألمانيا الموحدة الناهضة تلك الولايات التي ضمت الى هذه أو تلك من دول شرق أوروبا ؟ وإذا اشتدت شوكة ألمانيا المتجددة فكيف تحذر قوتها مستقلة أو تابعة لروسيا ؟

وقد روى أن مولوتوف دعا وزراء خارجية الدول الشرقية الى وارسو في يونيو الماضي لينال الموافقة على هذه الخطة الجديدة ، ويقال انهم أبوا •

كذلك تجد روسيا واقعة بين سياستين احدهما تناقض الأخرى ، وكل منهما تثير مشكلات خاصة بها • فالأولى لا تكفل لها الحيلولة دون نهوض ألمانيا الغربية والثانية تثير عليها اتباعها في شرق أوروبا وأغلب الظن أن تشدها في المساومة غرضه أن تنال بعض ما تريده في غرب ألمانيا ، بغير أن تفلت من أيديها مزايا الخطة الأولى وانها لمساومة !

هذنة في الحرب الباردة

أيقبل الحلفاء الغربيون أن ينصرفوا عن الخطة التي وضعوها لإنشاء حكومة ألمانية في غرب ألمانيا ، مقابل موافقة الروس على رفع الحصار عن برلين ؟ أمن مصلحتهم أن يرضوا بذلك ؟ ليس السؤال عن هذين الأمرين ، سؤالا فلسفيا مجردا لا صلة له بحقائق الحالة الدولية المضطربة . ف منذ ثلاثة أشهر عقد ممثلو دول الاتحاد الغربى والولايات المتحدة مؤتمرا في لندن ، أقروا فيه بعد بحث وجدل ، مشروعا لإنشاء حكومة ألمانية غربية ، ونظاما للإشراف على منطقة الرور الصناعية . وتلا ذلك مؤتمر وارسو الذى حضره مولوتوف وممثلو الدول الأوروبية الشرقية ، فلما انقض جاء فى بيانه ما مؤداه أن الاتحاد السوفيتى يستنكر : قيام حكومة ألمانيا الغربية ، وانفراد دول الغرب فى الإشراف على الرور .

فما سر موقف روسيا من مشروع ألمانيا الغربية ؟ من البين الآن أن موقف روسيا فى مؤتمرات وزراء الخارجية الأربعة التى عقدت فى باريس ثم فى موسكو فلندن ان حكام روسيا كان يغلب على رأيهم أن مناطق الاحتلال الغربية فى ألمانيا مشرفة على الانهيار الاقتصادى . فكانت خططهم فى المؤتمرات الثلاثة قائمة على هذا الفرض ، الذى كان عندهم فى منزلة اليقين ، واذا هم يأبون أن يبحثوا موضوع ألمانيا ورد وحدتها الاقتصادية عليها (مؤتمر باريس) ، أو يبالغون فى النقاش والجدل ، ليحولوا دون الاتفاق (مؤتمر موسكو ولندن) .

فلما مالت الدول الغربية بعد ذلك الى الاستقلال بالعمل في مناطق احتلالها ، اشتد اعتراض الروس عليها ، واتهموها بتمزيق أوصال ألمانيا ، بل أشاروا من طرف خفى الى احتمال قيام أزمة دولية .
فقد رأوا أنهم اذا منعوا الاتفاق بين الدول الأربع على ألمانيا ، وحالوا دون استقلال الدول الغربية الثلاث بالعمل ، فالانهيار الاقتصادي في غرب ألمانيا أمر لا مفر منه ، فتقوم في ألمانيا حالة كالثورة تعجز الدول الغربية عن علاجها ، ويومئذ يتولى الشيوعيون زعامة الجماهير الألمانية الثائرة ، ويتسلمون مقاليد الأمور فتقوم في ألمانيا كلها ، دولة شيوعية .

ولكن الحلفاء الغربيين فوتوا على الروس هذا الغرض ، فبعد انقضاء مؤتمر لندن على خلاف ، بدأت الدول الغربية تتدبر أمر غرب ألمانيا ، على وجه يفضى الى انتعاشه ، فلما عرض مارشال مبدأ مشروعه ، كان لغرب ألمانيا مكان فيه لا غنى عنه لنجاحه ، ثم أقر المشروع وبدأ تنفيذه وأنت تنظر اليوم فترى غرب ألمانيا سائرا في طريق النهوض ، ومشروع حكومته الذي وضعته الدول الغربية الست ، وقبلته فرنسا على تردد ، ثم وافق عليه الألمان بعد شيء من التعديل ، يوشك أن يحقق . فصار هم الروس أن يمنعوا ذلك ان استطاعوا ، أو أن يرجئوه ، أو أن يكون لهم نصيب فيه . واذا الشدائد التي تتعرض لها الدول الغربية في برلين هي وسيلتهم لهذا الغرض .

والحلفاء الغربيون يرون أن بقاءهم في برلين حق لهم ، بحسب اتفاق بوتسدام ، وأن رضوخهم للضغط الروسي يسىء الى سمعتهم والى الثقة بهم في غرب أوروبا ، ويعرض ألمان برلين الذين يوالونهم

للخطر ، فدأبوا على التصريح بأنهم باقون • ولكن بقاءهم فيها ليس بالأمر اليسير ، اذا مضى الروس فى حصارهم •
ولذلك اقترح أحدهم أن تعد قافلة تموين فى غرب ألمانيا ، وأن تسير الى برلين خلال منطقة الاحتلال الروسية ، فاذا اعترضها الروس فلتشق طريقها بالقوة ، فيسفر ذلك عن أحد اثنين • اما أن تنشب الحرب ، واما أن يرضى الروس بالأمر الواقع • ولكن ساسة الدول الغربية رفضوا هذا رأى ، لأنه ينطوى على مخاطرة كبيرة ، وكلهم يأبى أن يحمل تبعة العواقب التى قد تنجلى عنها ، فقال الوزير مارشال ، « لن نرضخ للقوة ، لكننا لن ندخر وسيلة من وسائل السياسة للوصول الى اتفاق » • وعلى أثر ذلك بدأت محادثات موسكو •

أى أن الحكمة قضت بالانتهاء الى رأى يمكن أن تلتقى عنده روسيا والدول الغربية ، واذا لباب الموقف الغربى فى محادثات موسكو رضاء الدول الغربية بالمفاوضة على المسألة الألمانية ، مقابل أن يرفع الروس الحصار عن برلين توطئة للمفاوضة •
ويرى فريق من أهل رأى أنه اذا أصر الروس على الغناء مشروع ألمانيا الغربية (وأثر ذلك فى احباط مشروع مارشال ونهوض دول أوروبا الغربية لا ينكر) قبل رفع الحصار فخرج الحلفاء من برلين أهون شرا من قبول هذا الشرط الروسى ، وقبوله يعد هزيمة سياسية أنكر وأفدح أثرا من الخروج من برلين •
والاتفاق على عقد مؤتمر لبحث المشكلة الألمانية برمتها شىء ، وعقد مؤتمر خليك أن ينتهى الى اتفاق شىء آخر • فقد قتلت أصول المشكلة الألمانية بحثا وتقاشا من قبل دون بارقة أمل

فى اتفاق • فهل غير الروس رأيهم ؟ لسنا ندرى ، ولكن الشىء
الذى لا ريب فيه ، هو أن جميع هذه المتاعب مردها الى انقسام
أوروبا — أو العالم — الى معسكرين يستريب أحدهما الآخر •
ولن تجد على المدى البعيد سوى حلين للمشكلات القائمة بينهما :
أما أن تنال روسيا كل ما تريد ، وأما أن تغير خططها •

فاذا سلمت الدول الغربية لروسيا فنالت كل ما تريد ، فقل
العفاء على الغرب ونهجه فى الحياة • والدول الغربية لن تسلم طائفة
عن يد بكل هذا • فإن لم تغير روسيا خططها ، فهى الحرب عاجلا
أو آجلا • وأغلب رأى عند الخبراء أن روسيا قد تغير خططها
القريبة ولكنها لن تعدل عن أهدافها البعيدة • واذن فالأمل اليوم
هو أن تسوى بعض الأمور بحيث يكون قيام هذين المعسكرين ،
أحدهما قبالة الآخر ، شيئا مستظاعا زمنا ما ، وأن تمضى الدول
الغربية تصلح من نفسها وتسير يدا واحدة ، الى أن يقضى الله
أمرها كان مفعولا •

بيد أن رجال السياسة الغربية يفرضون أن الروس يطلبون
السلام والتعاون ، ويفاوضونهم على هذا الأساس • ومن
ذوى رأى من يرى أن الزمن قد يقنع الروس بأن التعاون أجدى •
وهذا فيما نظن هو الدور الجديد فى علاقة أحدهما بالآخر — دور
السعى الى قيام ضرب من « هدنة عالمية » • فقد كان هم فئة من
ساسة الغرب الى عهد قريب أن يحسموا ما أطلقوا عليه « الحرب
الباردة » ، أما اليوم فيلوح أن هذا رأى جعلهم ينصرفون الى
أن يمدوا أمدها ، لأنها اذا ما حسمت والحال هى هذه الحال ،
فيغلب أن حسمها لن يكون الا بنشوب « حرب حامية » •

لاحرب ولاسلام

خلال أربعة أسابيع قضيتها بين نيويورك ووشنطن لم أقرأ صحيفة ، ولم ألتق بأحد من أهل الرأى ، ألا وجدت السؤال عن مصير الأزمة العالمية بين الشرق والغرب مكتوبا فى السطور أو بينها أو موضوعا للحديث ، حتى لقد روى لى أن وزارة الخارجية الأمريكية أشارت على كبار الكتاب الصحفيين بأنه من الخير أن يتندوا ، وأن تخفف الصحف لهجتها فى معالجة الأزمة والاشارة الى الحرب •

وقد كنت فى وشنطن أتعشى مع جماعة من الأصدقاء ، وكان بينهم رجل يحسن الاستماع اليه ، فقال وهو ينكر أنه على علم غير العلم المبذول فى الصحف للناس : كنا نظن هنا حتى اليوم أن روسيا لا تنوى أن تقدم على حرب مدمرة ككل حرب كبيرة تشب فى هذا العصر الذرى ، ولكننى غدوت اليوم غير واثق من صدق هذا الظن ، ولا أنا مطمئن اليه •

وكان ذلك اليوم هو اليوم الذى ألقى بينفن فى صبيحته خطبته فى الجمعية العمومية فى باريس • وقد كانت خطبة ترددت أصدائها فى جنبات الأرض وهى التى قال فيها مخاطبا فيشنسكى ، « أصبح برغم كل ما يقال على هذا المنبر أن فكرة ماركس ولينن تحتم أنه لا يمكن أن يتم اتفاق نهائى بين روسيا والدول غير الشيوعية • ان إعادة الثقة الى العالم تقتضى عملا لا قولاً • فأرونا العمل — هاتوا الدليل على حسن النية » • وقد روت الصحف أنه لم يكذب فرغ منها حتى هب الحاضرون وقوفا وهم يهتفون ، واذا فيشنسكى

يقف أيضا ، ووجهه عابس جهم وفكاه مطبقان ، ولكنه لم يقف
ليشارك الناس ، بل ليخرج من بهو الاجتماع . فظن الناس أن
الدقيقة الحاسمة قد دنت وأن روسيا سوف تترك هيئة الأمم
المتحدة تنعى من بناها .

فلما كنت في لندن بعد ذلك بأيام ، رأيت شيئا لم أكن أتوقعه .
فقد كانت الصحافة البريطانية تنعى على الأمريكيين شدة تفزهم
من خطر الحرب ودنو شبحتها ، فاذا هم أيضا في تلك الأيام الأخيرة
من سبتمبر ، والأيام الأولى من أكتوبر ، يساورهم غير قليل من
القلق — دون أن يلم الذعر بنفوسهم . فقد قرأت أمرا في الصحف
بالكف عن إزالة المخابىء التى كانت قد صنعت في الحرب العالمية
الثانية ليلجأ إليها الناس حين تنذر الصفارات الناعبة بغارة جوية ،
وأسر الى أحدهم ، وأنا غير واثق من صحة علمه ، أن القنابل
الذرية قد وزعت في المواقع المختارة ، وكتبت صحيفة الديلى ميرور
تقول ، أن الأمة البريطانية محيرة ولكنها هادئة ، وقلقة ولكنها
رزينة ، وهذا وصف يصدق . ولكن لم أجد أحدا ممن يعنون
بالمسائل الدولية ، لا في أمريكا ولا في بريطانيا ، ولا في باريس
حيث اجتمعت الدنيا ، الا وعلى شفثيه سؤال : أوقع الضربة
وشيك ؟ أم يرجأ سنة أو أكثر ؟

من يدرى ؟

على أن استقصاء ما تكتبه الصحف الرزينة ، والصحفيون
الذين يقدرون التبعات الواقعة على كواهلهم ، وما يقوله أهل
المعرفة والسياسة أو يروى معزوا اليهم ، يسفر عن حقيقتين .
أما الأولى فان الدول الغربية ليس عندها دليل قائم على أن روسيا

تتأهب لأعمال حربية وشيكة ، نعم ان الجيش الأحمر فى شرق ألمانيا أقوى كثيرا من القوات الغربية فى غرب ألمانيا ، ولكن ليس ثمة ما يدل على أن روسيا تعزز ذلك الجيش تأهباً لقتال قريب ، وفى وسعك أن تعلم ما يعرف عن بعض الحركات الحربية فى غرب روسيا الجنوبي بما يساور روسيا من بعض القلق حيال الدول التابعة لها ، دون أن تنفى نفيًا قاطعاً انه تأهب للحرب •

وما قاله صاحبى عن فرضه أن روسيا لا تنوى أن تحارب ، قائم فى أغلب الرأى على ما تراه مفصلاً فى الصحف والمجلات الأمريكية من الاعتقاد الذى فى منزلة اليقين ، فى أن روسيا لا تملك القنبلة الذرية الآن ، وان قدرتها الصناعية لا تزال متخلفة عن مقتضيات حرب عالمية النطاق •

غير أن الذين يصفون لك هذه الحقيقة العامة ، لا ينكرون مطلقاً أن قدرة روسيا على الدفاع هى قدرة هائلة ، وانها اذا كانت هدفاً لا اعتداء وهجوم ففى وسعها أن تدافع دفاعاً عنيداً •

وأما الحقيقة الثانية فهى أن الدول الغربية أيضاً لا تفكر ولا تنوى أن تعدّ هجوماً على روسيا • ومن الشائع الذى طالعنا به الصحف منذ أن بدأت أزمة برلين تستحكم فى أوائل الصيف ، ان سلاح الطيران الأمريكى قد حشد فى بعض مطارات بريطانيا قوة لا بأس بها من القاذفات الضخمة وأن فى قدرتها أن تضرب ضربات قوية ، اذا عن لروسيا أن تهجم فى أوروبا ، وأنه لا يستبعد فى هذه الحالة أن تعتمد الدول الغربية الى استعمال القنابل الذرية • وهذا من قبيل الاحتياط للطوارئ •

وقد قضيت سهرة ممتعة مع أمريكى وزوجته وكلاهما من

أذكى من عرفت من الأمريكيين وأقومهم خلقا وأبعدهم عن الرغبة فى الاعتداء على أحد من الناس أو من الأمم • فرددا كلاهما قولا يقال فى أمريكا : اذا كان التقاهم مع روسيا مستحيلا ، واذا كانت روسيا بطبيعة الفلسفة الماركسية التى يأخذ بها القوامون على أمورها لن تشنى عن بلشفة العالم — كما صرح بيفن — فلماذا ونحن نملك القنبلة الذرية الآن وهى لا تملكها لا نعمد الى « الحرب المانعة » قبل أن تملكها هى ويصير فى وسعها أن تستعملها دون وازع •

والروس يذيعون على الناس أن فى أمريكا فئة من رجال المادة ودعاة الحرب الذين يسيطرون على سياسة أمريكا ، يريدون هذا ، وولاس يردده فى أقوال تسوقه اليها شهوته السياسية • والناس تقرأ ما يقوله الروس وما يردده ولاس فيتناقلونه ، ولكن أوثق الناس علما يؤكدون أنك لن تجد بين رجال الحكومة الأمريكية المسؤولين ولا بين مستشارى ديوى الذين سيتولون دفعة السياسة الأمريكية بعد ٢٠ يناير اذا ظفر بالرياسة ، رجلا واحدا يرى هذا الرأى وهذا يصدق على بريطانيا أيضا بل ربما كان عليها أصدق • وخلاصة الأمر كما وصفته مجلة تايم أن الغرب لا ينوى أن يكون المبادر الى حرب مانعة أو غيرها ، وأن الغرب ليس عنده دليل يصح الاعتماد عليه أو أية اشارة قوية الى أن روسيا توشك أن تهجم ، وأن كلا الفريقين لن ينشئ عن رد الهجوم بمثله اذا وقع • هذا تقدير مبنى على حقائق ان لم تعرفها جمهرة الناس ، فهى غير خافية عن أولى الأمر • ولكن الحالة التى تفضى الى الحرب ليست شيئا يقاس بالأرقام بل تطرأ عليه عوامل نفسية

وعقلية لعلها تكون أعمق أثرا في أخذ القرار أو الامتناع عن أخذه
من حشد الطائرات والدبابات والقنابل •

وإذا كان الفيصل الحاسم في حرب عالمية هو القدرة الحربية
الجامعة الحقيقية فإن قرار خوض الحرب يقوم في أغلب الرأى على
تقدير قوتك وقوة خصمك ، فإذا قدرت أن قوتك أعظم رجحت
كفة الحرب في نظرك ، وإذا قدرت أنها أقل أحجمت ، ولكن التقدير
عرضة للخطأ في الحالين •

وليس ثمة من يعرف ما هو تقدير الرجال الذين يديرون دفة
السياسة السوفيتية • فإذا كان رأيهم أن قدرة أمريكا هي أكبر
الآن ولكنها أميل الى الانحدار في المستقبل ، وان قدرتهم أميل
الى الصعود ، مالوا عن طريق الحرب • وإذا كان العكس مالوا الى
الحرب الآن • وقد يكون بين الذين يرون الرأى الأول والذين
يرون الرأى الثانى ، فريق يرى أن القوتين متعادلتان الآن ،
أو كالمتعادلتين ، فهو يستطلع ليرى الأدلة التى تقنعه بأن قوة الغرب
في انحدار فينحاز الى الفريق الأول ، أو فى ازدياد فينحاز الى الثانى •
والفرض المقبول فى أمريكا ، وربما فى دول الغرب ، هو أن
روسيا تقف الموقف الأول لا اعتقادها أن النظام الغربى ينطوى على
بذور اضمحلاله ، وانها تستطيع عن طريق الأحزاب الشيوعية أن
تعجل ذلك الاضمحلال ، وليس بين الوسائل المتاحة لروسيا لتحقيق
هذا الفرض وسيلة أبعث على الخطر وتفويت الغاية من الحرب
نفسها ، فهى لذلك تتخذ الآن من احباط مشروع مارشال فى أوروبا
أول غرض لها فى سياستها الأوروبية ، وتستعين على ذلك بأزمة برلين
التي صارت مستعصية ، وباضراب العمال فى فرنسا ، الذى يكلف

فرنسا كل يوم من الدخل القومي أو الانتاج قدر ما تناله من نصيبها
في مشروع مارشال أو ربما أكثر منه ، وبوسائل أخرى على
هذا الغرار .

وإذا كانت الحرب غير مستحيلة في هذه السنة ، فانها غير
محملة ، ولكن الشيء الذى يكاد يكون كالثابت المؤكد ، هو دوام
اضطراب السلام ، والعجز عن الاستقرار . وقد عزى الى رجل
كبير من رجال الحكومة الأمريكية قول يلخص هذا المعنى في قالب
يسترعى النظر قال : « الأزمة دائمة ، فينبغى للشعب الأمريكى
أن يألفها » .

وقد يضاف الى هذا المعنى أن النزاع على ما كان يسمى المسألة
الشرقية ، كان كالصفة الدائمة المغالبة على السياسة الأوروبية
في القرن التاسع عشر ، أو كالأزمة الدائمة التى يشير اليها السياسى
الأمريكى . وقد كان أصلها رغبة روسيا الملحة فى التوسع جنوبا
والاستيلاء على الآستانة ، فلم يشنها عن ذلك سوى علمها أن المحاولة
تفضى الى حرب مع بريطانيا وقد ظل التوتر قائما بعد حرب القرم ،
سبعين سنة فلم تنشب حرب ، فكان الدولتين ألقنا هذه الأزمة ،
ثم كاتتا حليفتين فى الحرب العالمية الأولى الى سنة ١٩١٧ .

ففى هذا ما يغرى بعض أصحاب الأمل بأن يقولوا انه اذا دخل
فى روع الروس أنهم لن يلقوا مقاومة من الغرب ، مهما فعلوا ، فقد
يغلب عليهم اغراء الميل الى التوسع . فالأمل الوحيد الذى يستطيع
الغرب أن يتعلق بأهدابه اليوم ، هو أن يوضح لروسيا الحد الذى
اذا تخطته كان تخطيه ايذانا بقيام الحرب . فاذا صدق التقدير
غريبا أفضت السنون الى تلطيف المخاوف وتيسير التفاهم والتعاون .

أما اليوم فالأغلب أن لا حرب ولا سلام والأزمة دائمة —
الى حين •

أوروبّا تلفت

على الرغم من جو « الأزمة الدائمة » الذى يخيم على قصر شايو فى باريس ، لن يعوزك الدليل بعد أن تزور بريطانيا وفرنسا ، وبعد أن تتحدث الى المندوبين الأوربيين والصحفيين العالميين فى باريس ، على أن أوربا الغربية كانت فى الصيف وأوائل الخريف ، أدنى الى حسن الحال من كل يوم سبق منذ أن حررت فى سنة ١٩٤٤ وأوائل ١٩٤٥ ، فهى كالمريض ألحت عليه العلة زمنا فهكت قواه ، ولكنه أخذ يحس بطلائع العافية تنساب فى عروقه ، فهو مبال الى التفاؤل ، وان كان لا يزال ضعيفا •

ادخل أى مطعم تشاء فى باريس تجد الطعام وافرا أو جيدا كعادته ، وان كان اللبن لا يزال نادرا والسكر قليلا ، والثلث — الا اذا بعت الدولارات بالفرنكات السود — غالبا • أما فى انجلترا فلا يزال الطعام تافها وان كان كافيا ، ولكنك تصيب أكلا جيدا فى بعض المطاعم التى يدلك عليها أهل المعرفة من أبناء لندن ، أو زوارها ذوو التجربة • وقد ذهبت ذات ليلة الى مطعم فندق سافوى ، فكان الأكل لا بأس به ، أما الظفر بالزبد فقد استعصى علينا ، ولعلنا لم نحسن غمز رئيس الندل — والله أعلم • أما الملابس فى فرنسا فكثيرة ، وكذلك الأحذية وأثمانها تتفاوت تفاوتا كبيرا وفقا للمصدر الذى تنال منه الفرنكات • ولكنها فى بريطانيا لا تزال ممتنعة الا على صاحب البطاقات • وقد أطلقوا الأحذية

من عقل البطاقة ، بيد أنها غالية • ولا يزال الازدحام الناشئ عن قلة الدور ، شديدا ، ولكن الدور تبنى وان كانت سرعة بنائها لا ترضى كثيرين من النقاد •

ويقول أهل العلم في فرنسا ان فرنسا قد يتم انتعاشها الاقتصادى فى سنة ١٩٥٢ ، ولكنهم يتحفظون فيشترطون أن لا تقع كارثة دولية كبيرة ، وأن لا تحدث فى فرنسا نفسها حوادث خطيرة تحد من نفع مشروع مارشال أو تبطل نفعه • أما أهل البلجيك فأدنى الى التفاؤل من أهل فرنسا ويعتقدون أنهم بالغون حدود الرخاء فى بحر سنتين • وأما البريطانيون فيغالون فى الحذر ، ويأخذون أنفسهم بأشد القيود حتى تردم الهوة بين مدفوعات صادرهم وواردهم ، فلذلك يأبون أن يظنوا أنهم يبلغون الرخاء الذى عرفوه قبل الحرب ، حتى سنة ١٩٥٥ مهما واتتهم الأحوال • وسبب هذا الشعور هو اقتصادى فى المقام الأول • ومن هنا ما تراه من رضى عن أمريكا ، فمشروع مارشال — اذا صرفت النظر عن ملاساته السياسية — يتيح لأوروبا الغربية عوناً مادياً ، عظيم النفع ، خلال فترة تعد كافية لانتعاش دول أوروبا على أساس من اصلاح أمرها وتوثيق التعاون الاقتصادى بينها • وقد تجد من يأخذ على أمريكا بعض المآخذ ، كقول من يقول : لقد أثرت أمريكا خلال حربين عالميتين ، فلا ترسل لنا اليوم سوى الفتات الساقط عن مائدتها • ولكن قلما تجد رجلاً يقول هذا القول ، أو قولاً آخر على غرارهِ ، دون أن يجد من ينبرى له فيقول : ماذا تطلب أكثر من هذا ، ترى ماذا كنا نصنع نحن لهم لو انقلبت الآية • على أن الرية التى تساور بعض النفوس فى مشروع مارشال ،

هى ريبة تمتد الى البواغث السياسية التى تغزى الى سياسة أمريكا الخارجية ، والى التقديرات الحربية التى يقال أن خطة أمريكا الحربية تنطوى عليها •

أما الريبة فى البواغث السياسية فمرد أكثرها الى ما يحاول ألسنة الروس أن يذيعوه ، فيشيرون الى نزعة أمريكا الاستعمارية ورغبتها فى التوسع وميلها اليه • بيد أنك ترى من الأوربيين جماعة من أهل الذكاء والحصافة ، لا ينساقون مع تيار الدعاية الروسية ، ولكنهم مع ذلك يرون أنه أمر طبيعى أن تميل أقوى دولة على الأرض الى التوسع ، ويظنون أن مستعمرات الدول الأوربية سوف تكون فى طليعة الأراضي التى تدخل فى نطاق هذا الجبار الجديد ، ويعتقد غيرهم أن شدة النزاع بين أمريكا وروسيا ، سوف تفضى بطبيعتها الى حمل أمريكا على بسط سيطرتها على بلاد ليست بلادها ، وانها قد تفعل ذلك مباشرة أو بالمداورة ، ولكنها مضطرة اليه على كل حال • ويخشى آخرون أن يفضى توسع أمريكا الاقتصادى عن طريق العون ، الى استيلائها على الأسواق العالمية ، فيفضى ذلك فى آخر الأمر الى أن تصاب بلاد أوربا الغربية الصناعية بفاقة دائمة • وقد نضيف الى ذلك كله شكهم فى نية أمريكا اذيرونها تؤيد طائفة من الحكومات لا يمكن أن تعدها من الطراز الديمقراطى ، فهؤلاء يغفلون أن أمريكا انما تفعل ذلك من قبيل الضرورة فى حرب ، هى حرب حقيقية وان وصفوها بالحرب الباردة • على أن أوربا الغربية ترى بوجه عام أن أمريكا لا تبيت غرضا استعماريًا تطويه فى ثنايا مشروع الانعاش ، وتعتقد أن العون الاقتصادى والعون الحربى المرجى ، هما تعبير عن صدق حسنها

في ترابط العالم الاقتصادي ، وصدق عزمها في الكفاح دون تغلغل
النظام الشيوعي •

وأخشى ما يخشاه الأوروبيون ، هو نشوب الحرب ، بين أمريكا
وروسيا ، فتكون أوروبا ضحيتها الأولى ، وأكثرهم يعتقد أنه اذا
نشبت هذه الحرب في فترة قريبة ، فان قوة أمريكا ومن ينضم اليها
كهيبة بالظفر في آخر الأمر ، ولكنهم لا يغفلون أن الخطة الحربية
في المرحلة الأولى قد تقتضى ترك أوروبا الغربية للاحتلال الروسى ،
فالخوف من أن يكون هذا هو مصير أوروبا في الصراع المستحضر
القائم الآن ، هو الذى يلون رأى أوروبا الغربية في كل عمل نافع
مجد تسديه أمريكا اليهم • وقد قال أحدهم في وصف ذلك :
« جميع أخبار الخير وجميع أخبار السوء تأتينا من أمريكا » •
واذا كان هذا هو موقف أوروبا الغربية من أمريكا ، فما هو
موقفها من روسيا ؟

لقد طرأ على هذا الموقف تبدل كبير خلال السنوات الثلاث
أو الأربع منذ انتهت الحرب في أوروبا أو أشرفت على نهايتها •
فقد كان الاعجاب يملأ صدور الأوروبيين ببسالة الجيش الأحمر
وقوة شكيمنته في مرحلة الدفاع ، ثم قدرته على الهجوم ، وثبات
النظام الروسى الذى لم يتزلزل في مرحلة الظفر الألمانى ، وقوة
حركات المقاومة الخفية في روسيا والبلاد المحتلة ، وقد كان
الشيوعيون سندها وعمودها الفقري • وقد توقع أهل أوروبا بعد
الحرب أن تقسم أمريكا وروسيا زعامة العالم ، ولم يستنكروا
أن يكون لروسيا هذا الشأن الخطير ، بل كان منهم من لا يستنكر
أن يكون لها الشأن الأول •

ولو أحسنت روسيا العمل يومئذ لكان لها أكبر الأثر في توجيه أوروبا الخارجية من أتون الحرب، ولكنها على ما يلوح أغرتها القوة التي انتقادت لها ، فأقامت سياستها حيال أمم أوروبا على أساس من التعاون الوثيق مع الأحزاب الشيوعية المحلية دون سائر الجماعات الكبيرة والصغيرة غير الشيوعية . ويرى الأوروبيون أن موسكو أساءت التقدير فظنت أن قوة هذه الجماعات أقل من قوتها الحقيقية ، وأن رغبتها في المشاركة في تسيير دفعة أوروبا وفقا لبرنامج تضعه موسكو وتوحى به ، هي أقوى من رغبتها الصحيحة ، ثم أخطأت تقدير قوة الأحزاب الشيوعية وقدرتها على أن تتسلم زمام الأمر فحسبتها أعظم مما هي ، فأقدمت على العمل معها وحدها ، دون برنامج طويل الأمد غرضه توجيه الأحزاب غير الشيوعية توجيها رفيعا حتى تصير راضية في التعاون مع الشيوعيين الذين ينقادون الى رغبات المكتب السياسى في موسكو . وكذلك شدت موسكو الى مركبتها السياسية جياذ الأحزاب الشيوعية المحلية ، فلما ضعفت منزلة هذه الأحزاب ، ضعف نفوذ روسيا . وليس سبب هذا الضعف سياسيا كله ، بل بعضه اقتصادى صناعى أيضا ، فقد كانت روسيا عاجزة في ساعة الحاجة عن أن تمد بلاد أوروبا بكثير من الأشياء التى لم تزل الحاجة اليها شديدة ، أو لا غنى عنها للنهوض من هوة الضعف الصناعى والزراعى التى تردت فيها . وكذلك فقدت روسيا بعض المنزلة التى كانت تستمتع بها في الفترة الأولى التى تلت ختام الحرب العالمية الثانية في أوروبا . ولم يبق من ذلك كله اليوم — في الدوائر غير الشيوعية — سوى أن روسيا دولة قوية حقا تحاذر سطوتها ، وانها سائرة في طريق

قومي قح تنال ما تستطيع بغير أن تبدى رغبة صادقة يؤيدها العمل
في اسداء يد للنهوض الاقتصادي في أوروبا واستقرار الطمأنينة
والسلام .

والأوروبيون يخشون نشوب الحرب لأنهم يعتقدون أن في قدرة
الجيش الروسي ، أن يكتسح غرب أوروبا ، وأنهم اذا فعلوا وجدوا
غير قليل من العطف والعون بين طوائف العمال ، وأن اجلاءهم بعد
ذلك عن أوروبا الغربية يقتضى حربا طويلة طاحنة ، قد تدمر أوروبا
نفسها ، فلذلك تجدهم يرغبون أكثر مما يرغب الأمريكيون ،
في التوسل بكل وسيلة ممكنة متاحة لتحقيق التبادل والتعاون
الاقتصادي مع روسيا . ولولا حادث تشيكوسلوفاكيا لكانوا
اليوم أشد ميلا الى الذهاب كل مذهب لتحقيق هذا التعاون .

ولو قنعت روسيا اليوم بالوقوف في غزو أوروبا عند الحد الممتد
من البلطيق الى تريسته لما رأيت أحدا من الأوروبيين في الغرب يرضى
بأن يناوئها ، أو يستقزها ، ومن هنا ما كان من ميل سياسة فرنسا
الى شيء من الاعتدال أو الى الحد من اندفاع الأمريكيين ،
في بحر الأشهر التي جرت فيها مفاوضات موسكو على مسألة برلين
ثم بعد عرضها على مجلس الأمن .

وأنت اذا نظرت الى الرقعة الأوربية الواقعة غرب الستار
الحديدي ، وجدت بلادا يقطنها ٣٠٠ مليون من الناس ، بلغوا أبعد
شأو من الثقيف والحدق في الصناعة والزراعة ، ولهم من الموارد
الطبيعية والقدرة على الانتاج ما يكفل لهم ، لو كانوا يدا واحدة
فيما يملكون ويصنعون ، أن يكونوا قوة عالمية ثالثة تضارع أمريكا
على الأقل ، وتفوق روسيا الآن ، وتستطيع أن تقبض بيديها على

زمام التوازن بين القوتين • فالمشكلة التى تواجهها أوروبا الغربية اليوم هى تحد يتحدى عزيمة شعوبها ، وذكاءها ، وغريزة حفظ الكيان التى تتحفز فى نفوسها • وقد استطاعت الشعوب الأوروبية ، أن ترد الغزاة الوافدين عليها من الشرق ، على أثر انهيار الدولة الرومانية ، وقد فعلت ذلك يومئذ اما منفردة واما مجتمعة فى محالقات صغيرة عابرة ، أما اليوم فلا يسعها أن تفعل الا اذا صارت يدا واحدة ، وهذا هو النداء الذى يوجهه التاريخ إليها اليوم ، وتقرضه عليها غريزة البقاء •

المنحدر والهوة

فى أوائل شهر أكتوبر أذيع فى عواصم الاتحاد الأوروبى ، أسماء الضباط العظام الذين عهد اليهم فى تولى المسائل الحربية المشتركة ، بالبحث والتدبير ، وكان على رأسهم الفيلد مارشال مونتجمرى •

وقد قابلت فى مساء ذلك اليوم صحفيا كبيرا فى لندن ، فسألته فيما تم ، فقال ان الروس فى عنتهم ، وايثارهم الجدل العنيف على العمل ، وحرصهم على احباط كل شىء لا يتفق ورأيهم ، قد أيقظوا جبارا كان مغفيا — أيقظوا غرب أوروبا ! قابل ما تراه اليوم بما كان منذ سنة وحسب •

منذ سنة كان مارشال قد عرض المبدأ الذى قام عليه مشروعه ، وقد عرضه على أوروبا كلها ، ولكن روسيا أبت أن تقبل ، وأرغمت الدول التابعة لها أن تأبى أيضا • وكان موقف الكونجرس الأمريكى حيال هذا المشروع لا يزال مجهولا ، وأما دول أوروبا الغربية فكانت

لا تزال تبحث فى انشاء هيئة التعاون الاقتصادى الأوروبى ، وكانت فكرة الاتحاد الغربى وميثاق بروكسل لا تزال كالحلم يطوف فى نوم النائم الى أن أفرغه بيفن فى يناير الماضى ، فى قالب عليه سمة من الواقع ، وسوف يعود المؤرخون فى المستقبل الى هذه الفترة القصيرة التى لا تكاد تتجاوز سنة وبعض سنة ، فيدهشهم التطور الذى تم ، وان كان بطيئا لا يجارى آمال الغرب الأوروبى ولا مخاوفه . وها هو ذا الاتحاد الأوروبى الغربى ، يمد يده الآن الى منتصف المحيط الأطلسى ، فتلتنقى هناك بيد أخرى مدتها أمريكا الشمالية — كندا والولايات المتحدة — فاذا شدت احدهما على الأخرى فهو ميثاق الدفاع الأطلسى .

وفى أثناء اقامتى فى أمريكا أتيح لى أن أتحدث مع غير واحد من رجال السياسة والحرب والأعمال ، فتيست أنه يندر أن تجد فى الولايات المتحدة رجلا من أهل رأى ، ينكر أن الدفاع عن غرب أوربا هو شىء لا غنى عنه للولايات المتحدة أو هو كما يقولون « مصلحة حيوية » أما الوسائل لتحقيق هذا المبدأ ففى بحثها مجال للخلاف فى رأى والتقدير ، وان كان تحقيقها شيئا لا يصح أن تعده مستحيلا .

وحقيقة المشكلة هى هذه : « ان موارد أوربا الغربية فى الرجال والصناعة هى موارد عظيمة ، وأوربا الغربية تزداد ، عن طريق التعاون الدولى ، قوة يوما بعد يوم ، وقدرة على الدفاع عن نفسها . ولكن بلادها تعاني اليوم من المشكلة الداخلية ، ما يجعل قدرتها الحربية فى الحضيض أو تكاد . وبنيان قوتها الحربية يستغرق زمنا ، لا يقل عن سنتين فى أقل التقدير . فاذا فرضنا أن الكونجرس

الأمريكي الجديد دعى الى عقد دورة استثنائية في ديسمبر ، لكي يبرم وثيقة التحالف ، ويوافق على مبدأ الاعارة والتأجير الحربى ، ويرصد المال اللازم لذلك ، ويفرض القيود الصناعية التى لا غنى عنها لصنع المقادير الوافية من العتاد ، فلا بد أن تمر فترة من الزمن ، تكون فيها القوات الأوروبية القائمة ، غير قادرة على صد الجيوش الروسية (اذا أمرت بالزحف) دون الراين أو حتى وراءه » .

فهذه الفترة هى الفترة الخطرة . وقد وصفها أحدهم بقوله : « ان العالم واقف اليوم على منحدر مشرف على هوة . وهو يحاول أن يرتقى المنحدر الى منبسط السلام والتعاون ، ولكن هوة الحرب من ورائه سحيقة فاعرة فاها » . والدفاع عن أوروبا الغربية اليوم ليس رهنا بالقدرة على صد الجيش الروسى — لأن ذلك فى أكبر رأى متعذر ، بل هو رهن بشئ الكرملين عن اصدار الأمر له بالزحف . واذن فالسؤال الخطير هو هذا : أتكفى القوة الجوية والبحرية الآن ، أو التى يمكن تعبئتها فى فترة قصيرة ، لتثنى روسيا ، عن الزحف اذا أدركت حقا أن أوروبا الغربية ماضية قدما فى تسليح جيوشها وتعزيز قوتها الحربية مستعينة على ذلك بأمريكا ؟ ولا تستهين بالتوتر الدولى الشديد الذى يخلقه هذا السعى . فالحبل مشدود اليوم حتى ليكاد ينقطع . وقدرة الغرب — ولا سيما القوات الأمريكية — على تدمير مدن روسيا الكبيرة ومراكزها الصناعية ، تقابلها قدرة الجيوش الروسية على اكتساح مدائن غرب أوروبا ، فاذا بذلت مساع صادقة لتعزيز قوة أوروبا الغربية ظلت مدائن روسيا ومراكزها الصناعية عرضة لقنابل الغرب ، وصارت مدائن أوروبا ممتعة أو كالممتعة على جيوش الروس —

أى أن الميزان ينقلب فتشيل كفة الروس وترجح كفة الغرب •
والروس لن ينظروا طبعاً الى انقلاب من هذا القبيل بعين الرضى
ولن يقبلوه صاغرين عن يد •

واذن فالفترة بين المرحلة التى يجوزها العالم اليوم ، وتعزيز
قوة أوربا هى فترة الخطر • ولن ينسى أحد كيف سخط الروس
يوم أعلن مبدأ مشروع مارشال ، ويوم قبل ، ويوم بعث سياسة
عملية مجدية ، وكيف ناصبوه العداء وجعلوا احباطه فى طليعة
أغراضهم • فلا بد أن يكون سخطهم على مشروع حربى ، كمشروع
مارشال الاقتصادى ، أشد وأقوى ، ولا سيما اذا أفضى قيام حكومة
ألمانيا الغربية الى تجديد الجيش الألمانى — كما يقترح بعضهم •
فأهم مشكلة فى هذه الفترة الخطرة هى هذه : « كيف يمكن
الدفاع عن أوربا الغربية ، فى الوقت الذى تستعد فيه لتصير قادرة
على أن تدافع عن نفسها ؟ » واذا فرضنا أن انذارا وجه الى روسيا
بتدمير مدائنها ، ومراكزها الصناعية اذا تخطت جيوشها نهر الألب
الى الغرب ، فربما كان هذا الانذار غير كاف لتحقيق الغرض •
والأوروبيون فى الغرب لا يعتقدون أنه كاف على كل حال • فلا بد
من التوسل بوسائل أخرى دون ارجاء ، وأن يكون قوامها أقصى
ما يمكن تعبئته من القوة المتاحة الآن •

وهذه الوسائل عرضة للاختلاف فى التقدير • ولسنا نعلم
أوصل الخبراء الحرييون الى رأى واحد فيها أم لا • ومنهم من
يرى أن التقهقر من الألب الى الراين ضرورى • وأن الاحتفاظ
بخط الراين يقتضى أربعين أو خمسين فرقة ، حسنة السلاح ،
سريعة التحرك ، قوية الدروع ، يؤيدها سلاح حربى متفوق تقوفاً

حاسما ، وأن القوات المتاحة الآن لا تدانى هذه القوة . فالاتحاد الأوروبى الغربى لا يستطيع اليوم ، على ما يقال ، أن يعبىء أكثر من خمس عشرة فرقة ، وهى مفتقرة الى السلاح والعتاد الحديث ، ولاسيما الدبابات . والمسألة التى ينبغى أن تفصل ليست هى اقناع الروس بأن اقدامهم على الزحف غربا ، يلقى مقاومة قوية تجعل الزحف مغامرة تنطوى على خطر بالغ ، بل هى أيضا اقناع أهل أوروبا الغربية ، بأن الروس قد اقتنعوا ولن يقدموا . أفستطيع السياسة أن تجد حلا لهذه المشكلة : مشكلة

الدفاع عن أوروبا الغربية فى فترة تأهبها للدفاع عن نفسها ؟ وقد يكون الحل من ناحيتين تجتمعان على غرض واحد : أن يقتنع الكرملين بأن مغامرة الزحف غربا تنطوى حقا على خطر كبير ، وبأن تسلح أوربة الغربية انما يطلب لغرض الدفاع وحسب . أما الأولى ، فلا حاجة الى الانتظار زمنا يستغرقه النظر فى معاهدة تحالف بين أمريكا والاتحاد الغربى الأوروبى ومناقشتها ثم التصديق عليها . وحسب أمريكا اليوم ، وقد وافق الحزبان الكبيران على التعاون مع الاتحاد الأوروبى الغربى وعلى مبدأ ميثاق الدفاع الأطلسى ، أن تصرح أنه اذا تخطى الروس الحدود التى عينت فى وثيقة الهدنة لتفصل بين مناطق ألمانيا ، عدت أمريكا ذلك عملا حربيا ضدها . وتصريح من هذا القبيل يمكن أن يفرغ فى قالب معاهدة بعدئذ ، ولكن ينبغى أن يصدر اليوم ، فى رأى والترليمان وغيره من كبار الكتاب السياسيين .

أما الناحية الثانية فربما كانت الوسيلة اليها ، أن تقرن أمريكا عرض برنامج العون الحربى للاتحاد الأوروبى الغربى بعرض

المفاوضة مع روسيا على الجلاء عن ألمانيا ، على أن يكون أساس الجلاء معاهدة تترك ألمانيا مجردة من السلاح ، شبيهة بالمعاهدة التي عرضها بيرنز وفاندنبرج منذ ثلاث سنوات أو نحوها . والجلاء لا مفر منه ان عاجلا أو آجلا ، فالجيوش المحتلة لا يسعها أن تقيم في ألمانيا الى ما شاء الله .

والقول متواتر بأن الروس يهمون أن يقترحوا هذا الاقتراح ، فان فعلوا كانوا أسبق الى جنى ثمره ، اذ لا يرتاب أحد في أن القول بالجلاء يحرك وترا حساسا في صميم النفس الألمانية .

وعرض من هذا القبيل لا يقتضى جلاء القوات الأمريكية عن أوروبا كلها ، بل يعنى جلاء أمريكا عن ألمانيا الى غرب أوروبا في الوقت الذي يجلو فيه الروس عن ألمانيا الى شرق أوروبا . فاذا تم هذا كانت القوة الأمريكية الغربية أدنى الى منطقة الرور الصناعية من الروس ، حتى اذا حدثت الروس أنفسهم بالعودة كان في وسع القوات الغربية أن تعود أيضا .

فاذا أبوا ذلك ، فموقف أمريكا ودول الغرب ، لن يكون يومئذ أضعف مما هو الآن . ولكن اذا فعلت أمريكا هذا ، أبانت لروسيا وللأوروبيين أن الغرض دفاعي محض ، وأنها لا تقصد أن تجدد قوة ألمانيا العسكرية . واذا قبل الغرض ، كانت فترة المفاوضات فترة تهدأ فيها الأعصاب وتنبري العقول .

حقا ان الجبار الغربي قد أفاق من غفوته ، ولكنه لا يزال هيكلا بغير عظم وعضل وقوة . وكل مشروع للدفاع بغير جيوش ، مزلزل ضعيف ككل جيش بغير سلاح وعتاد . وليس ثمة من ينكر أن الصعاب كثيرة ، ففرنسا كأنها في مخاض ، ومشكلة برلين

لا تزال مستعصية ، فالذى تم شىء لا بأس به ، ولكنه ليس سوى خطوة ، على الطريق القويم ، فى أغلب الرأى .

العيدان المجتمعة والمنفردة

أليس ثمة طريق يسلكه العالم لتسوية النزاع بين الكتلتين الغربية والشرقية ، أو لوقف روسيا عند حدها ، حتى يقر الناس وينصرفوا الى اصلاح صناعتهم وزراعتهم وزيادة رخائهم والاستمتاع بقسط من الطمأنينة ؟

سؤال يتردد على أكثر الألسن فى أكثر المجالس فى أمريكا وأوربا . وليست الاجابة عنه بالشىء الميسر . ولكن الاجابة التى وقعت من نفسى أحسن موقع ، هى ما أخصه فى السطور التالية .

توالت فى سنة ١٩٤٨ أحداث دولية لا ريب فى مغزاها — فقد كانت سنة الكومنفورم ، والانتقال التشيكوسلوفاكى ، والاضطراب الشيوعى فى جنوب آسيا الشرقى ، والانشقاق اليوغوسلافى ، وارتفاع المد الشيوعى فى الصين ، وأزمة برلين . وكانت أيضا سنة الانتخاب الايطالى ، وتنفيذ مشروع مارشال ، وانشاء الاتحاد الأوروبى الغربى ، وطلائع الحلف الأطلسى وغيرها . وكل طائفة منهما تدل على مغزى يكاد يكون بينا كوجه الشمس .

أما الأولى ، ففيها دلالة قاطعة على عداء روسيا للعالم الغربى ، وسعيها الجاهد لتفويض دعائم ذلك العالم ونظمه ونهجه فى الحياة .

وأما الطائفة الثانية فعلى ما ينبغى أن يصنعه العالم الغربى ، لمواجهة ذلك العداء ، ورد السعى على أعقاب كالسيف المفلول .

وقد توسلت روسيا فيما تسعى اليه بوسيلتين ، القوة ،

والدعاية • أما القوة فقد عمدت اليها ، حيث كان العمل بمأمن من
الخطر — خطر نشوب حرب مع الغرب • فوراء ستار الجيش
الأحمر في أوروبا الشرقية مثلا ، فرضت النظام الشيوعى على دولها
بأساليب شتى ، وعلى غرار ذلك ما نراه حادثا في الصين • بيد أن
روسيا كانت اذا بدا لها أن التوصل بالقوة محفوف بالخطر ، عمدت
الى سلاح الدعاية ، واستثارة النفوس ، والتغلغل الرفيق فى النقابات
والجماعات القومية ، وترى اتباعها اينما وجدوا برما بالحالة
الاقتصادية ، أو ظلما واقعا على فئة ، أو نعمة جنسية — وهى أشياء
قلما يخلو منها مجتمع بشرى — يؤججون نار الحقد والضغينة •
وحسبك أن تلقى نظرة على فرنسا وايطاليا فترى أن نفوذ
الشيوعية فى اتحادات العمال ، لم يزل باعثا من بواعث القلق
والاضطراب فيهما •

بيد أن مساعى روسيا ، ليست قاصرة على رقعة ضيقة من
الأرض ، كأوروبا مثلا ، بل هى عالمية النطاق ، وفى وقت واحد
فى أواخر الشتاء الماضى ، كانت الجيوش الشيوعية تزحف
فى منشوريا ، والعناصر الشيوعية تحدث الانقلاب فى
تشيكوسلوفاكيا • فالعالم الغربى لا يواجه التحدى الروسى
فى غرب أوروبا وحسب ، بل فى العالم قاطبة •

وليس فى هذه الحقائق شىء جديد ، ولكنك حين تضمها
وما كان على غرارها بعضها الى بعض ، تخلص الى نتائج يثقل على
الغربى أن يعترف بها • فاذا اعترف بها ، كان ميله الأول الى ثورة
النفس فيقول ، كما قال صاحبى الأمريكى : اذا كانت هذه
هى أصول الموقف الروسى حيال ما نسميه انشاء السلام ،

فلم لا نلقى القنبلة الذرية ، وكفى ؟ ولكنه نسى أن الحرب الحديثة اذا أطلقتها من عقالها ، كانت كالأعصار المجتاح المدمر ، مهلكة للجميع ، فينبغى لساسة الدول الغربية أن يحزموا أمرهم على أن التوسل بالقنبلة الذرية لن يكون الا للدفاع حقا عن النفس ، وأن يبحثوا عن هدى آخر يهدون به •

وهم لو تدبروا الوسيلتين اللتين تتوسل بهما روسيا ، لتبينوا أن لكل وسيلة حدودها ، وأن فى الوسع مقاومة الوسيلتين جميعا ، وليس نشوب الحرب هو المخرج الوحيد من المأزق — الآن ، على أقل تقدير •

أما الوسيلة الأولى ، فهى وسيلة القوة أو العنف أو التهديد بها • ولو راجعت الحوادث التى اعتمد فيها الروس على القوة ، والحوادث التى امتنعوا عن استعمالها فيها ، لتبينت أنهم يمتنعون عن اللجوء اليها فى كل حادث خلى أن ينتهى الى صراع دولى مع دول كبيرة • فقد كان فى وسع الروس فى سنة ١٩٤٦ أن يستولوا على ايران ، ولكنهم أدركوا أنهم ان فعلوا فذلك خلى أن يجرحهم الى حرب مع بريطانيا وأمريكا • وعلى ذلك موقفهم من ماركوس فى اليونان ، ومن مطامعهم فى المضائق التركية • وفى وسع الروس اليوم ، أن يسدوا منافذ الجو على الطائرات الأمريكية والبريطانية التى تمون برلين ، ولكنهم لا يفعلون لأن ذلك خلى أن يفضى الى نشوب حرب عالمية •

فالدول الغربية اذا كانت حازمة فى عدالة ، ومتأهبة لتأييد حزمها بقوتها ، فهى قادرة أن تعين المواقع التى يشنى فيها الروس عن التوسل بالقوة •

وسلاح الدعاية أيضا له حدوده • وقد جهد الروس في تأصيل الشيوعية في بريطانيا والولايات المتحدة والدول السكنديناوية ، فلم يجدهم الجهد ، لأن ما تستمتع به هذه الأمم من قسط من الاستقرار والرخاء والرجاء المعقود على المستقبل ، ثم سلاح دعايتهم ، فلم يمل اليهم سوى فئة قليلة • وقد حاولوا مثل ذلك في فرنسا وإيطاليا ، وأدركوا شأوا من النجاح ، ولكن فكرة مشروع مارشال ، كانت حتى قبل تنفيذها كافية لوقف تقدم الشيوعية بعض الشيء ، فهم لذلك يدأبون على احباطه ، فاذا استطاعت حكومة فرنسا أن توفق في كفاح غلاء المعيشة وفي زيادة الانتاج ، واذا مضت حكومة دى جاسبرى الإيطالية في الاصلاح الزراعى والقروى ، فتحسن الحال في البلدين كليل برد القلق الذى أخذ الشيوعيون يثرونه من جديد • وليس نجاح الدعاية الشيوعية ، سوى نتيجة لخبية بعض الدول الغربية في تحقيق برامج الاصلاح ، وازالة بواعث القلق التى تستبد بحياة جماعات كبيرة من الناس • واذن فان نجاح الوسيلتين أو اخفاقهما هو مرتبط فى آخر الأمر بما تصنعه دول العالم الغربى نفسها ، فليس من المنطق أن تلوذ بالذعر مما يصنعه الروس ، فيفىء بعضها الى القول بضرورة الحرب الذرية المانعة ، أو ضرورة التسليم بنجاح الشيوعية •

فالذى يحتاج اليه العالم الغربى اليوم ، على نطاق عالمى ، منسق ، هو حشد قوته للدفاع وعقد عزمه على منع روسيا من استعمال القوة ، أو العنف ، فلا تلجأ اليهما ، ثم يحتاج الى برامج واسعة النطاق من الاصلاح الزراعى والاقتصادى الذى يفضى الى حسن حال الأمم الحرة ، وأن لا يقتصر ذلك على غرب أوروبا •

فكذلك ينثلم سلاحا روسيا فى يديها • واذن يصح أن يقال ، بعد
انقضاء سنة أو بعض سنة على مشروع مارشال ، أن هذا المشروع
أصبح وحده لا يكفى ، وكذلك يصح أن يقال بعد انقضاء سنة
أو بعض سنة على الاتحاد الأوروبى الغربى ، ان هذا الاتحاد أصبح
وحده لا يكفى •

ان السر فى مشروع مارشال ، هو انه نزع الزمام من اليد
الروسية ، بما بثه فى نفوس طائفة من الشعوب من رجاء الظفر
بقسط وافر من المأكول والملبس والمأوى والعمل والاستقرار •
فينبغى أن تعم هذه الفكرة أرجاء العالم غير السوفيتى ، عن
طريق أعمال ومشروعات أخرى على غرار • والسر فى الاتحاد
الأوروبى ، هو أنه ضم أمما فى نطاق واحد للدفاع ولكنه نطاق يكاد
يكون منحصرا فى رقعة واحدة صغيرة من غرب أوربا • ولكن
التحدى الذى يتعين على العالم غير السوفيتى أن يواجهه هو تحد
عالمى • وفى ميثاق سان فرنسيسكو ، نص خاص بالتكتل الاقليمى •
فينبغى أن يشجع هذا الميل ، وأن توضع الخطط المنسقة بين الكتل
الاقليمية ، وأن توحد الأسلحة ، حتى اذا أطل ستالين من الكرملين
على العالم ، لم يجده كتلا مفرقة ، بل كتلا تفرق بينها الجغرافية
ويجمع بينها القصد والسعى والخططة المجدية •

وهذان الغرضان — اصلاح اقتصادى يوقد فى النفوس شرارة
الأمل ، وتعاون دفاعى وثيق — يذكر بقصة العيدان المجتمعة
والمتفرقة ، وكلاهما فى متناول العالم غير السوفيتى — لو أراد •

ما جدوى الاجتماع ؟

كانت الدعوة التي وجهها ستالين الى ترومان عن طريق حديث صحفي شيئاً غريباً ، ففي موسكو سفارة أمريكية كبيرة ، وفي واشنطن سفارة سوفيتية كبيرة ، فكان خليفاً أن توجه الدعوة عن طريق إحدى السفارتين • ولو كان الطريق ممهداً للتوفيق في اجتماع من هذا القبيل ، لكان في الوسع الاغضاء عن طريقة توجيه الدعوة ، بل لكان في الوسع الاتفاق على مكان يعقد فيه الاجتماع • ولكن المؤتمرات التي عقدت بين حلفاء الحرب العالمية الثانية في بحر السنتين الأخيرتين ، ولاسيما مؤتمرا موسكو ولندن في ربيع سنة ١٩٤٧ وأواخرها أقنعا طائفة من رجال السياسة الأمريكية بأن اجتماع الرئيسين وحدهما ، دون سائر رجال الحلفاء ، ليس شيئاً يرام •

فكيف يعمل عمل ستالين ؟

أغلب الرأي أنه قصد من ورائه الى تخفيف حدة القطيعة السياسية بين الكتلتين الشرقية والغربية ، زمناً ما ، عسى أن يفضي ذلك ، الى الفت في عضد الوحدة بين الدول الغربية السائرة سيرا رقيقاً مطرداً الى الأمام •

ان العبرة التي تستخرج من احداث سنة ١٩٤٨ هي أن حوافز التاريخ وبواعث الاقتصاد قد ألجأت الدول الغربية على جانبي المحيط الأطلسي الى الاقتناع بضرورة الوحدة • والوحدة بين أمم متعددة ، تفصل بينها مساحات جغرافية واسعة ، كالمحيط الأطلسي ، وحقائق تاريخية وسياسية ترجع الى قرون ، ليس بالأمر الميسر •

ولكن هذه الوحدة سارت في سنة ١٩٤٨ سيرا مطردا ، فدلّت الدلائل على نجاح مشروع انعاش أوروبا ، وعقد ميثاق بروكسل بين بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ولكسمبورج ، واتصل البحث في أصول ميثاق الدفاع الأطلسي وهكذا .

فكل سعى من شأنه أن ينمى المخاوف التى حفزت هذه الدول الى الاجتماع على ما تقدم ، ويضعف العزم على السير فى هذا الطريق ، يسدى للسياسة السوفيتية يدا نافعة ، اذ يتيح لها أن تعكف خلال سنوات تقل أو تكثر على تعزيز قوتها بأن تنمى مواردها الاقتصادية العظيمة وترفع صناعتها المتخلفة اذا قيست بالصناعة الأمريكية ، وتنجز اخضاع الأمم الداخلة فى نطاقها حتى تصر حيال الغرب ، المتفكك ، قوة تطاع رغبتها وتحاذر صولتها . وستالين يطوى برديه على رجلين ، أحدهما رجل العقيدة الاشتراكية التى وضعها ماركس وفسرها لينين وستالين ، فهو فى صفته هذه ، لا يحول أبدا عن مبدأ النضال بين الطبقات ، وعن الايمان بأن هذا النضال لا يحل بالتسوية والاتفاق ، بل بالثورة العنيفة وأن الثورات لا تقع فرادى فى بلاد شتى ، وأوقات متباعدة ، بل ينبغى أن تشار فى صميم النظام الاقتصادى الرأسمالى على اعتباره وحدة كاملة .

غير أن ستالين ، رجل العقيدة الماركسية ، يعلم أن الثبات على مبدأ عقيدته ، لا يمنعه أن ينوع أساليبه مسيطرة للأحوال المتبدلة ، ومن هذه الأساليب أحاديثه الصحفية التى ينكر فيها الثورة العالمية ويعرب عن أمله فى التعاون بين الدول وعن رأيه فى قدرة تلك الدول على التعاون .

فأى الرأيين تقبل ؟ التصريحات التى تسكن الروع ، وتمهد
للطمأنينة الخادعة ، أو الكتابات فى أصول المبدأ الشيوعى ، التى
تطبع وتنتشر منها ألوف الألوف من النسخ ، ويربى عليها جيل بعد جيل
من الشباب الشيوعى ؟ أيهما كان هتلى الحقيقى ؟ الرجل الذى
يخطب فى الحين بعد الحين فيدعو الى السلام ، أو مؤلف « كفاحى »
الذى لم يحد عما فيه حتى يوم مماته بين أنقاض برلين ؟

وقد كتب ستالين نفسه يوم نزاعه مع تروتسكى أن تقديم قيام
الاشتراكية فى دولة واحدة على الدعوة الى الثورة العالمية ،
انما يطلب حتى تكون تلك الدولة قاعدة تستند اليها قوى الثورة
العالمية ، وهو الذى قال أيضا فى مؤتمر الحزب سنة ١٩٣٤ ، ان
أساليب الحزب ليست ثابتة جامدة بل تتبدل وفقا لمقتضى الحال .
على أن هذا النزاع العميق على أصول تنظيم المجتمع لا يعنى
أن الحرب شىء لا مفر منه أو أن الوصول الى توازن دولى يضمن
لونا من الاستقرار شىء مستحيل — زمنا ما على الأقل .

ذلك بأن الرجل الآخر فى خلق ستالين هو الرجل الذى يدرك
حقيقة الأمر الواقع ويحسن تقديرها ولا يتحداها وهذا الادراك
لا يعنى خروجه على عقيدته التى لا تحول ، بل يعنى الحذر فى تحدى
قوة يعلم أن تحديها قد يكون مزلفة الى خطر . وسيرة ستالين
طافحة بأن هذا الحذر من خصائص خلقه ، فهو رجل لا يتوانى
ثانية عن استغلال الضعف والفرقة والتردد والمبادرة الى تصديق
كل ما يقال ، ولكنه يحترم القوة والعزم . فعقيدته لا تسوقه
برغمه الى مغامرة متى حذر عقله من أن المعارضة خليفة أن
تكون قوية .

وقد أدرك مارشال في أثناء مؤتمر موسكو (في ربيع سنة ١٩٤٧) هذه الحقيقة ، وخرج منها بالنتائج الصحيحة • أدرك أن سلامة الدول الغربية ينبغي أن تقوم على خطة محكمة التنسيق للدفاع السياسى والاقتصادى والحربى ، على أن تقترن بالحرص على البعد عن الاستفزاز • وليست هذه الخطة بالخطة التى يسهل على دول ديمقراطية متفرقة حريصة على كرامتها وآرائها أن تسير عليها • ولكن تحقيقها مستطاع اذا تحلى رجالها بالصبر واليقظة والعزم وصدق النظر • وهذا رأى هو أساس مشروع مارشال ، والاتحاد الأوروبى الغربى ، والدفاع الأطلسى •

واذا لم يكن بد من التسليم بمبدأ « عالمين » بدلا من « عالم واحد » أو بقسمة العالم شطرين ، أحدهما سوفيتى والآخر غير سوفيتى فالحاجة من ناحية الدول الغربية ليست الآن الى مفاوضة خليقة أن تفرقها وتحبط خططها ، بل الى التعمير حتى لا يكون ضعفها اصعبا تومىء الى القسم السوفيتى بالتغلغل أو الضغط أو فرض القوة • فاذا ارتد القسم غير السوفيتى من العالم الى العافية والقوة ، حتى تغدو كل مغامرة سوفيتية جديدة شيئا مخفوفاً بالخطر فقد يرضى الكرملين بأن يسلم بالحالة الراهنة ، فيصيب العالم يومئذ لونا من الاستقرار — الى حين على الأقل •

بيد أن الحكمة تقتضى من ساسة الغرب أن يبادروا الى اغتنام الفرصة التى أتاحتها ستالين ، باستطلاعها أتم استطلاع ، دون أن يكون استطلاعها موهنا لعزمهم على السير فى طريق التعمير والتعاون الذى لجأوا اليه منذ أواسط سنة ١٩٤٧ • وخلق بروسيا ان كانت حريصة على ايمان العالم بصدق دعوتها ، أن

تطابق بين القول والعمل في برلين وكوريا والأمم المتحدة واليونان وغيرها ، فالقول المأثور لا يزال صحيحا : ان صوت أعمالك يصم أذنى فلا أسمع ما تقول •

بين برلين ونانكين

أدرك الناس بالتجربة ، خلال ثلث قرن ، منذ قيام الدولة الشيوعية في روسيا ، أن الشيوعية الدولية تغير وسائلها وغاياتها القريية ، مسaire لمقتضى الحال ، ولكنها قلما تبدل خطتها العامة وتأبى أن تبدل أهدافها البعيدة • فأصحابها يؤمنون ، أخذا بالتواعد التى وضعها ماركس وفسرها لين وستالين ، أن انهيار الدول الرأسمالية أمر لا مفر منه ، فهذا عندهم هو منطق التاريخ وتفسيره الاقتصادى الذى يأخذون به ، فعليهم أن يستعجلوا الانهيار ، بجميع الوسائل ، ومنها الأحزاب الشيوعية فى كل أمة يستطيعون أن ينشئوا فيها حزبا شيوعيا • فيمضى العالم الرأسمالى على سننه من القلق والاضطراب والانشقاق الداخلى ، ويمضون هم فى انشاء الحكومات الشيوعية حيث يتسنى لهم أن يفعلوا ، حتى تتم الثورة العالمية ، ويتوحد العالم فى ظل الشيوعية أى حتى يسيطوا سلطانهم على سطح البسيطة •

ومن الأقوال التى تعزى الى لين ، قوله : « ان الشرق الأقصى هو الباب الخلفى الى دار الدول الرأسمالية الاستعمارية » • أى أن الشرق الأقصى ، هو موطن الضعف فى العالم الرأسمالى ، وأن فى طاقة الشيوعية أن تنفذ منه الى غرضها البعيد — سقوط الدول الرأسمالية بسط سلطان الشيوعية على العالم قاطبة •

فهذا الباب الخلفى هو الباب الذى تفرعه روسيا اليوم قرعا قويا ، فى الصين خاصة ، وفى سائر جنوب آسيا الشرقى ، عسى أن يمهدها انفتاحه أو تحطيمه تحقيق غرضها البعيد ، ان عاجلا وان آجلا .

وليس تحول روسيا الى هذا الباب بالشئ الجديد . فقد سبق لها أن نزعت من جسم الصين اشلاء أخضعتها لنفوذها — منغوليا الخارجية ، وسنكيانج . والحزب الشيوعى الصينى من أقدم الأحزاب الشيوعية فى العالم ، كان له فى الكومنترن منزلة عالية ، وقد وصف بأنه « قرّة عين روسيا وجميع الشيوعيين فى العالم » . بيد أن روسيا أدركت فى بحز سنة ١٩٤٨ أنها تواجه فى أوروبا خطة محكمة لضدها عن التوسع غربا ، فهذا مشروع مارشال يؤتى ثمره الأول ، وهؤلاء الشيوعيو ايطاليو يخذلون فى الانتخاب ، وشيوعيو فرنسا يخفقون فيما سعوا اليه من بلبله فرنسا بالاضراب ، وافساد انتفاعها بمعونة أمريكا ، وقد رأت روسيا قيام الاتحاد الغربى الأوروبى ، وتبينت وراءه ميثاق الدفاع الأطلسى . فلما حاولت أن تمتحن عزيمة الدول الأوربية وصدق حرصها على الحيلولة دون توسع الشيوعية فى الغرب ، عمدت الى برلين ، فاذا « جسر الطائرات » برغم المشقة والنفقة دليل على صدق العزيمة لا يخطئ . فمالت الى الشرق الأقصى .

فهناك مئات الملايين من الناس ، فى أرض لعلها من أغنى أرض الله فى موارد الطبيعة . أما أهلها فيكثر بينهم الجهل والفاقة ، وأما الموارد فأكثرها لم يستغل ، والقليل الذى استغل قد تم استغلاله على أيدي الأجانب . ففى نفوس هؤلاء الناس شعور

جائع بالقومية ، و ثورة كامنة على القديم ، فالتربة الاجتماعية التى يعيشون فيها ، أصلح تربة لتقبل بذور الشيوعية و انباتها .
والدولة السوفيتية تحتل من سطح الأرض موقعا لا ند له ،
يتيح لها أن تحطم هذا الباب الخلفى ان لم يفتح على مصراعيه .
وسلطانها يمتد من بورت أرثر وفلايفستوك على المحيط الهادى ،
و يمتضى محاذيا لحدود الصين وايران وتركيا ، ولا يفصله عن
باكستان والهند وشمال العراق سوى فاصل رقيق . فالهجوم
الشيوعى فى الصين ، هو التبدل فى الوسائل والغرض القريب —
فى نطاق الخطة العامة والأغراض البعيدة ، والنجاح الذى أصابه
نذير بتحول عميق فى ميزان القوة العالمية بين الكتلة السوفيتية
والدول الغربية فى آسيا .

قد لا يتم للشيوعيين الصينيين أن يستولوا الآن أو فى المستقبل
القريب ، على الصين كلها ، وقد يستولون عليها فقتل مساحات
واسعة منها ضعيفة قلقه سنين ثقل أو تكثر ، ولكن التبدل العظيم
فى ميزان القوة العالمية فى آسيا ، بل فى العالم ، لا ينبغى أن يقاس
بما تكسبه روسيا من فورها بوقوع الصين تحت ظل الشيوعية ،
وانما يقاس بمقدار الخسارة التى تمنى بها الكتلة الغربية ،
فى صراعها مع الشيوعية العالمية . فوقوع الصين تحت ظل الشيوعية ،
يقضى على آخر أمل فى قيام تعاون وثيق بين الكتلة الغربية والصين
التي تستمتع بموقع جغرافى خطير الشأن وتملك من موارد الطبيعة
وموارد الرجال قدرا عظيما . ثم ان خضوع الصين ، كلها أو بعض
كبير منها ، للشيوعية كفى بأن يصير قوة دافعة للشيوعية فى جنوب
آسيا الشرقى وما يليه من الجزائر ، فالظفر فى الصين يعد فى طليعة

الأغراض التى تتوخاها الشيوعية اليوم •
ومما يدخل فى الروع خطر هذا التحول ، هو سكوت الدعاية
الشيوعية عن حوادث الصين • ولعل ذلك مرجعه الى أن موسكو
لم تقرر بعد السياسة التى تسير عليها بعد التطور الحربى السريع ،
أو هى تتربص السياسة التى يستقر رأى عليها فى وشنطن ،
أو هى تفعل ذلك عن روية وقصد ، حتى تعزز الوهم السائد
فى أذهان كثيرين من الغربيين ، بأن الشيوعية الصينية هى شيوعية
معتدلة مستقلة لا صلة لها بالاتحاد السوفيتى ، فاذا تعزز ذلك
الوهم ، هان على الدول الغربية أن تعتقد أن الصين الشيوعية
لن تكون تابعة لموسكو ، فتجنى موسكو ثمرة هذا الاعتقاد •

وقد تنزع الشيوعية الصينية الى الاستقلال عن موسكو متى
استتب لها الأمر ، ولكن الدلائل المعروفة الآن تشير الى أن
الشيوعيين الصينيين ، مرتبطون ، كآية جماعة شيوعية أخرى
بموسكو ، وحسبك دليلا على ذلك ، أن تعلم أن ماوتسى تونج ،
زعيم الشيوعيين الصينيين كتب كتابا نشر بالانجليزية منذ سنوات ،
فلم ينكر هذه الصلة ، ثم عزز ذلك بمقال نشر فى مجلة الكومنفورم
منذ شهرين وبعض شهر قال فيه ان « الشيوعيين الصينيين يد واحدة
مع سائر « الديمقراطيات الشعبية » — وهو الاسم الذى يطلق
على الحكومات الشيوعية — ضد « المعسكر الاستعمارى » •
وقد كان ماوتسى تونج عضوا فى الكومنترن منذ سنة ١٩٣٥ الى
يوم حل فى سنة ١٩٤٣ ، ومن أعوانه الكبار فريق تدرب فى موسكو ،
وله صلات وثيقة بأقطاب الشيوعية الروسية ، فمن المستغرب أن
يخرج هؤلاء على أوامر موسكو أو على « نصحتها وارشادها » •

ولسنا نعلم ما تنوى أن تصنعه الكتلة الغربية حيال هذا التبدل
الخطير في ميزان القوى العالمية ، فقد تعتمد أمريكا — كما تدل
الدلائل — الى تقوية اليابان ، وقد تضيف الى ذلك ميثاقا خاصا
بالمحيط الهادى ، على غرار ميثاق الدفاع الأطلسى وان كان ذلك
شيئا مرهقا ، وعسى أن يعنى مؤتمر دلهى الجديدة الوشيك ، بهذا
الموضوع ، فرقة الشرق الأوسط ، بأوسع معانيها الجغرافية ،
المتدة من تركيا الى الهند ، قد ازدادت شأنا عالميا بعد الذى تم
فى الصين ، أفيكون منطق الحقائق الجغرافية والاقتصادية والحربية
كفيلا بأن يفرض نفسه على أولى الأمر فى دلهى الجديدة أو على
جانبى المحيط الأطلسى ، أم تمنى السياسة بالعقم والعجز حتى
تمضى الفرصة السانحة ؟

سقط القناع

فى خلال شهرين أو أقل ، كشف زعماء الشيوعية خارج روسيا ،
عن حقيقة أمرهم مرتين • أما المرة الأولى ، فيوم وقف الزعيم
الشيوعى الفرنسى كاشان ، يعلن فى الجمعية القومية الفرنسية :
« من الذى يستطيع أن يجزم اليوم بأن دولتين قويتين ، قد قطع
ما بينهما الى الأبد • ألا يتحدث الناس عن اجتماع ستالين وترومان؟ »
ولم تمض أيام حتى قال تولياتى الزعيم الشيوعى الايطالى : « اننى
واثق بأنه على الرغم من الفرق الأصيل بين اقتصاد الولايات المتحدة
وروسيا ، ونهجهما فى الحياة ، فانه فى وسعهما أن يعيشا معا » •
فكان القولان ايذانا ببدء « حملة السلام » التى أرادتھا موسكو •
وأما المرة الثانية ، فيوم أعلن توريث الزعيم الشيوعى الفرنسى

(٢٢ فبراير) « اذا اضطر الجيش السوفيتى ، فى دفاعه عن الحرية والاشتراكية ، أن يطارد المعتدين الى أرضنا ، فإن عمال فرنسا وشعبها ، لن يقفوا من الجيش السوفيتى موقفا يختلف عن موقف شعوب بولندا ورومانيا ويوغوسلافيا » ولم تكد تنقضى أيام حتى جراه تولياتى (٢٦ فبراير) : « اذا شب نزاع ، واضطر الجيش السوفيتى أن يطارد المعتدين الى أرض ايطاليا ، فالشعب الايطالى الذى يكره الاعتداء ينبغى له أن يساعد الجيش السوفيتى بأجدى الوسائل ، حتى يلحق المعتدى الدرس الذى يستحقه » •

وقد ذهب تولياتى الى أبعد مما ذهب اليه توريز ، فهذا يرحب بالجيش السوفيتى ، وذلك يشير بمساعدته بأجدى الوسائل • ثم تعالت أصوات الشيوعيين من كل مكان ، حتى فى الولايات المتحدة (أول مارس) بمثل هذا المعنى • والغرض الأساسى فى جميع هذه الأقوال هو أن « روسيا لن تخطئ » فاذا نشبت حرب ، فالرأى عندهم أن روسيا هى المعتدى عليها واذن فينبغى لهم أن يكونوا معها ضد أمتهم •

ولو لم يكن الأمر خطيرا ، لسأل المرء نفسه ، لم لم يتصد أحد المصورين الهزليين لهذه الحالة ، فرسمها كاعلان الجراففون المشهور باسم (صوت سيده) •

وتوريز الذى قال هذا القول ، هو الرجل الذى ترك فصيلته فى الجيش الفرنسى فى أول الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ وذهب الى موسكو ، يوم كانت موسكو متفقة مع برلين ، وتسبغ على الحرب يومئذ صفة « الحرب الاستعمارية » ولكن « الحرب الاستعمارية » لم تلبث حتى انقلبت فى عرف موسكو نضالا من أجل الحرية بعد

أن نكث هتلر العهد ، وهجم على روسيا • بيد أن توريز ظل بعيدا عن فرنسا ، ولم يشترك في نضالها الخفى ضد الاحتلال النازى ، وقد حوكم بعد ذلك وحكم عليه ، ولم يعد الى فرنسا الا بعد أن شمله ديجول بالعفو ، وأذن له فى العودة •

أما ما حدث للدول التى استشهد بها توريز ، فى تصريحه ، فلم يكن أبلغ مثال يساق للاقناع • فقد غزا الروس بولندا فى سنة ١٩٣٩ بالاتفاق مع الألمان واستولوا على نصفها الشرقى أو نحو ذلك ، ثم أخرجوا منها حين غزا الألمان روسيا ، وعادوا اليها يوم انحسر مد الألمان ، وأبوا التعاون مع مقاتليها الوطنيين فى وارسو وهم على أبوابها ، فلما تمت هزيمة ألمانيا ، تقلد الشيوعيون زمام الحكم فيها ، مؤتلفين أولا ، ثم منفردين • أما رومانيا ، فقد فرض عليها فيشنسكى فى احدى زياراته حكومة شيوعية ، ولم تكذ تنقضى أيام قليلة على توقيع اتفاق يالتا • وأما يوغوسلافيا فقد تحولت الى الشيوعية تحت تيتو ، ولكنها لم تزل على خلاف مع موسكو ، منذ شهور •

وكل من زار فرنسا فى الفترة الأخيرة يعلم ، أن ما عاتته الأمة من المتاعب فى أثناء الاحتلال الألمانى ، جعلها تنفر أشد النفور ، من التعرض لاحتلال آخر • وليس ثمة من شبّح احتلال تخشاه اليوم أو فى المستقبل القريب ، سوى شبّح الاحتلال السوفيتى • فهى لذلك تأبى أن تسلم بخطة حربية مبدؤها أن تتخذ أسبانيا وراء جبال البرانس قاعدة لاسترداد أوروبا من روسيا ، لأن ذلك يعنى التسليم مقدما بأن تحتل روسيا أرض فرنسا وأرض جاراتها من دول أوروبا الغربية • وهى لذلك تهتم أشد الاهتمام بمشروع مارشال

وبمواثيق الوحدة الأوروبية الغربية ، والدفاع الأطلسي وتأييدها .
ولهذا السبب نفسه ، تتنكر روسيا لهذه المواثيق ، وتسعى
كل سعى لاجباطها ، فان أخفقت الاضرابات في احباط الانتعاش
الاقتصادي ، فلتكن حملة السلام ، لتفتير الهمم عن ميثاق الدفاع
الأطلسي ، فاذا باءت هذه الحملة بالخيبة ، فليكن التهديد ببذل
العون للجيش السوفيتي المبادر الى الدفاع عن الحرية ! فهذا
التهديد له غرضان أولهما ، أن يظهر الشيوعيون في فرنسا وإيطاليا ،
في مظهر الجماعة المتعلقة بأهداب السلام ، فيرفع ذلك من شأنهم
بين الجماهير التي تخشى الحرب ، وثانيهما أن يؤثر في الرأي العام
الأمريكي عسى أن تنساب الريبة اليه في حسن ما تصنعه حكومته
من تعاقد مع دول فيها عناصر قوية تعلن انشقاقها مقدما على
حكوماتها في حالة نشوب الحرب .

فالعالم أمام أسلوب في السياسات العالمية ، يجمع بين ضغط
جيش قوى هو الجيش السوفيتي ، وأثر طابور خامس يتفاوت
قوة بتفاوت الأمم ، ويعلن عن حرصه على معاونة ذلك الجيش
اذا وقعت الواقعة ، وهذا الطابور هو الأحزاب الشيوعية ، التي
لا تخفى أن ولاءها الأول هو ولاؤها لموسكو . والجيش السوفيتي
وحده لم يقدم حتى الآن ، منذ انتهت الحرب ، على غزو بلد ،
غزوا يعد في عرف القانون الدولي اعتداء عاريا . والأحزاب
الشيوعية ، في البلاد التي تبعد عن منال الجيش الأحمر ، لم تظهر
وحدها بالاستيلاء على زمام الحكم . أما حيث يكون الجيش قريبا
من البلد الذي يوجد فيه الطابور ، فيغلب أن تتم الغلبة له ، يشهد
بذلك مصير بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا . ولو كان للجيش

السوفيتى قوة كبيرة على حدود يوغوسلافيا وليس ليوغوسلافيا جيش قوى و حدود مفتوحة الى الغرب ، لكان من المتعذر على تيتو فى أغلب الرأى أن يصمد ، كما تعذر على بنش أن يصمد من قبل • ويذهب فريق من المتتبعين لسير الأمور ، الى أن الحوادث التى حدثت فى المجر ، خلال الأشهر الأخيرة ، انما هى توطئة لتصفية الحساب مع تيتو •

ولكن كيف يصدق هذا على النرويج ، وتركيا ، وايران ؟ والرد على ذلك ، أن ليس فى بلد من هذه البلاد حزب شيوعى قوى ، ولكن هذا وحده ليس كافيا • فرومانيا قبل أن فرض عليها فيشنسكى الحكم الشيوعى ، لم يكن حزب الشيوعيين فيها يزيد على ٣ فى المئة ، ولكن وجود الجيش السوفيتى فيها وعلى مقربة منها ، وبعدها عن الدول الغربية ، مكن لفيشنسكى أن يفعل ما فعل • وأغلب الرأى أن موسكو تترث ، ان لم تكن واثقة أو كالو واثقة من أن تدخلها لن يفضى الى حرب عالمية • فقرب الجيش السوفيتى من حدود النرويج وايران وتركيا ، ليس كفيلا بما يريد دون نشوب حرب عالمية ، فالدفاع عنها مرتبط ، بما يمكن أن تطلق عليه وصف « توازن القوى الدولية » • والرأى فى دوائر الغرب أن ميثاق الدفاع الأطلسى ، وما يسير فى عنانه ، انما هو سعى لجعل القوى الدولية أدنى الى التوازن •

فترة السلم الباردة

لم نزل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نعيش فى أزمة ، حتى كاد الناس يقنطون من صلاح الحال ، وحتى كاد القنوط يسوقهم

كلما أصبحوا وأمسوا الى توقع البلاء • وكانت الحوادث نفسها ،
وعنوانات الصحف التى تروىها ، توقع فى نفوسهم أن ما يخشونه
قاب قوسين أو أدنى • وكانت الأسئلة تزحم العقول وتبلبلها : أنرى
سلما مستتبة فى أيامنا ؟ أمقضى علينا بأن تهلكنا القنبلة الذرية ؟
أيستطيع شطرا العالم أن يعيشا معا جنبا الى جنب ؟ واذا كان ذلك
مستحيلا فأى القوتين أرجح ؟

على أن الأيام الأخيرة من شهر ابريل سنة ١٩٤٩ ، والأيام
الأولى من شهر مايو ، شهدت سلسلة من الأحداث تكاد
تجعل الأسابيع الثلاثة الماضية حدا بين الاضطراب والاستقرار ،
أو بين الخصومة السافرة التى أغرت بالتشاؤم وبين السعى الصادق
الى اقرار ضرب من التوازن يصح أن نطلق عليه وصف « السلم
الباردة » عسى أن يكون مرحلة متوسطة بين « الحرب الباردة »
والسلام الحقيقى الذى يرتقبه الناس ، وان كان الى حين وحسب •
فى الأسابيع الثلاثة الماضية ، عبر الشيوعيون الصينيون نهر
اليانجستى فاذا انقلاب الصين كلها الى دولة شيوعية قد صار أدنى
الى الحقيقة مما كان منذ أشهر قليلة • وفى الفترة نفسها رضيت
الهند الجمهورية أن تبقى فى نطاق الكومنولث ، على أن يكون
(الملك) رمزا للاشتراك الحر بين دوله ، فاذا فى هذا الرضى من
الهند وسائر دول الكومنولث ضمان جديد ، على أن اجتياح
الشيوعيين للصين ، وان تم ، لن يعنى حتما ، ان آسيا كلها سوف
تسلم زمامها للشيوعية •

أما فى الناحية المقابلة من كرة الأرض فقد وقع ميثاق الدفاع
الأطلسى ، ورضى الروس بأن يرفعوا الحصار عن برلين ، فخفف

برفعه الجفاء وانكسرت حدة التوتر الذى جعل الناس يصبحون ويمسون وهم يخشون وقوع ما يخشى • فقد كانت برلين فى ملتقى الأنوار ، من مسرح النزاع بين الشرق والغرب ، ولم يكن الحصار امتحانا للأعصاب وللقوة وحسب ، بل كان رمزا أيضا للنزاع بين الكتلتين ، ومن يدرى ، فقد كان كل حادث من حوادثه اليسيرة خليقا أن يكون كالشرر المستصغر الذى يوقد النار الآكلة • وليس رفع الحصار كفيلا بتسوية المشكلات الأصلية فى هذا النزاع العالمى ، ولكنه على الأقل يزيل احدى العقبات الكبيرة التى لم تزل تحول دون استئناف المفاوضات •

واستئناف المفاوضات فى حد ذاته ليس خيرا مطلقا ، فتاريخ المفاوضات التى دارت فى مؤتمرات وزراء الخارجية الأربعة لا يوحى بالأمل • وسوف تظل الريبة ترف على المؤتمر المقبل حتى يثبت الواقع ما يبددها • غير أن المؤتمر المقبل يجتمع يوم ٢٣ مايو فى باريس ، فى حال تختلف أكبر الاختلاف عما كانت عليه يوم اجتمع فى موسكو ثم فى لندن فى ربيع سنة ١٩٤٧ وشتائها •

فقد خسر الروس فى المقامرة التى بنوا عليها حسابهم فى أوروبا بعد الحرب ، فلم تهو على الولايات المتحدة الأمريكية كفى الأزمة الاقتصادية القاسية التى توقعوها ، وليس ثمة دلالة على أن أزمة من هذا القبيل وراء الباب • وقد ظنوا أن الزمن حليفهم فى أوروبا التى دمرتها الحرب ، ووجد اليأس سبيلا الى نفوس أبنائها وبناتها ، فلا مفر لأحزابهم الشيوعية فيها من أن تنقلد الزمام ، وإذا مشروع مارشال يأخذ بيد أوروبا الغربية — ولو أرادت دول أوروبا الشرقية أن تنتفع به لكان لها ، ولكن روسيا نفسها أبت أن تشترك وثنت

الدول التابعة لها عن الاشتراك فيه • وتم الانقلاب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا (فبراير ١٩٤٨) فهز النفوس وأفضى الى قيام الوحدة الأوروبية الغربية ، فميثاق الدفاع الأطلسى ، فتقريب الشقة بين الحزبين الكبيرين ، فى ألمانيا الغربية ، والمواقفة على دستور دولتها •

كان يسيرا على روسيا أن تصنع ما صنعت فى تشيكوسلوفاكيا ، فى فبراير ١٩٤٨ ، يوم كانت أوروبا كالمضعضة وأمريكا كالحائرة ، ولكن لم يكد ينقضى شهران ، حتى خذل الشيوعيون الايطاليون فى الانتخاب الايطالى العام ، ثم باء الشيوعيون الفرنسيون بالخيبة فيما حاولوا ، وارتدت العافية الاقتصادية رويدا رويدا الى أعطاف الدول الغربية •

فهذه الحوادث التى حدثت منذ أحقق مؤتمر وزراء الخارجية فى لندن (ديسمبر ١٩٤٧) تجعل المؤتمر المقبل فى باريس يختلف عما سبقه •

فاذا حول المرء نظره عن الصين حيث منيت السياسة الغربية بهزيمة منكرة ، رأى كثيرا مما يغريه بالتفاؤل ولكن ليس ثمة ريب فى أن الغلو فى التفاؤل خطل ، لأن أشد النضال لا يزال فى طى المستقبل القريب ، أو البعيد • والروس فى هذه المرحلة يؤثرون أن تكون لهم السيطرة على ألمانيا ، لا على الصين ، وقد استعملوا سلاح الحصار فى برلين ، فقل فى أيديهم ، فاشتدت رغبتهم فى أن يستبدلوا المفاوضة به ، فتيح لهم أن ينقروا على وتر ، يعلم جميع الناس أنه أرق الأوتار فى النفس الألمانية وأدقها احساسا — وتر « الوحدة الألمانية » عسى أن يفضى ذلك الى زعزعة أركان الدولة

الألمانية الجديدة ، والظفر باستمالة الألمان اليهم • وعلى وتر الوحدة الألمانية يستطيع الروس أن يوقعوا أنعاما كثيرة ، كلها محجب الى النفس الألمانية — الوحدة ، والجلء ، والاتفاق مع الروس على نمط اتفاق رابالو (١٩٢٢) ، الذى أناح لألمانيا أن تخرج من وهدة انكسارها فى الحرب العالمية الأولى الى مكان مرموق على مسرح الدول •

وعلى كل حال ، فان قصة حصار برلين تثبت حقيقة لا مراء فيها ، فلو أرادت الدولة السوفيتية ، أو الدول الغربية ، أن تتحل عذرا ما لشن الحرب ، لكان لها فى حصار برلين كل عذر تريد • ولكن الغربيين امتنعوا عن شق طريق برى بالقوة الى برلين ، فسقط زعم من يزعم أن الدول الغربية تتنوى أن تشن على روسيا « حربا مانعة » قبل أن تملك روسيا عنان القنبلة الذرية • وأما الروس فقد امتنعوا عن التعرض لطائرات « الجسر الجوى » فانهار قول القائلين بأن روسيا تنوى أن تتنفع بما لها من تفوق حربى فى أوربا ، فتجتأحها الى سواحل المحيط الأطلسى • وكذلك اجتاز الفريقان فترة الجفاء والقطيعة التى ظلت سائدة ، عشرة أشهر أو أكثر قليلا ، دون أن يسمحوا لحادث من حوادثها بأن يستفحل حتى يعجزوا عن تدبيره دون قتال •

واذا كانت نية الفريقين منصرفة عن خبل الحرب ، كما تدل قصة برلين ، فمؤتمر باريس المقبل فرصة سانحة للانتقال من فترة « الحرب الباردة » الى فترة من التوازن ، تتيح لهم فى خلالها أن يسووا ما بينهم شيئا فشيئا ، بدلا من أن ينصرف كل منهم الى التأهب لصراع وشيك •

وليس ثمة ريب في أنهم يواجهون مشكلات كثيرة معقدة . ولكن جميع الرسائل الواردة من الغرب تدل على أن الأمم الغربية يغلب عليها اليوم شيء من الرضى والطمأنينة ، فهي أحسن حالا شيئا ما ، وأوفر طعاما شيئا ما ، وأقل خوفا شيئا ما ، مما كانت منذ سنة وحسب . ففى وسع رجالها أن يقاربوا المؤتمر بثقة لن تعوزها اليقظة ، وبرغبة فى الاتفاق لن يضعفها الخوف . ان مشهد الأرض المخضرة فى طلائع الربيع ينقلب ظلما فى النفس ان كان الخوف يساورها على الأهل والولد والمال . أما وقد اقترنت أتناس الربيع وخضرة الأرض بشعاع من رجاء فى أن اجتناب الحرب مستطاع ، وبموجة من ثقة بأن الحياة تسير فى طريقها الدهرى الى أمام ، فان المشهد يغرى المرء بأن يتطلع الى المستقبل وأن يحس بندائه ، وليس مثل الثقة بالمستقبل حافز يحفز المرء الى مقاومة ما يكره وطلب ما يريد .

رضى وحذر

يغرى الاتفاق على رفع الحصار عن برلين بالرضى والتفائل ، ولكنه ينبغى أن لا يغنى عن الحذر . فمن المفارقات فى قصة حصار برلين ، أن السوفيت أرادوا الحصار فى السنة الماضية وسيلة ، لا كراه الدول الغربية على عقد اجتماع لوزراء الخارجية الأربعة ، ثم لكفهم عن المضى فى انشاء حكومة ألمانيا الغربية ، وهم اليوم يكادون يدركون هذا الغرض نفسه ، كله أو بعضه ، برفع الحصار الذى ضربوه .

وليس ثمة ريب ، فى أن الاتفاق ، ظفر لدول الغرب فى « الحرب

الباردة» نالوا أكثره ، على أجنحة طائرات النقل الأمريكية والبريطانية
وقد ظلت هذه الطائرات طيلة الصيف الماضى فالخريف فالشتاء ،
تنقل الى أهل المنطقة الغربية من برلين ، أسباب العيش ، وان كانت
قليلة • فلما تنفس الربيع ، وصفا الجو ، ضاعفت الطائرات
مجهودها ، وفى يوم ١٥ — ١٦ ابريل نقلت الى برلين ، ما زنته
١٢٩٤١ طنا ، بطائرات ظلت تقوم وتحط ، كل دقيقة من كل ساعة
خلال أربع وعشرين ساعة • وهذا الذى نقلته يزيد نحو
ثلاثة آلاف طن ، على ما كان ينقل الى برلين بوسائل النقل البرى ،
قبل ضرب الحصار عليها •

ولم يقتصر مغزى « جسر الطائرات » على نقل أسباب العيش
الى أهل برلين الغربية ، بل دل أيضا على عزم الدول الغربية ، وعلى
قدرتها ، وعلى أن الحكومة السوفيتية تتفادى الاصطدام بها •
فقد كان فى وسع السوفيت أن يسقطوا بعض هذه الطائرات ،
ولكنهم لم يفعلوا ، لأنهم خشوا أن يفضى ذلك الى حرب عامة ،
لا يريدونها الآن ، أو لا يطيقونها الآن •

بيد أن الاتفاق ، لن يكون فى حد ذاته ، حلا للمشكلة الألمانية
ولا خاتمة للحرب الباردة بل لعله يثير مشكلات جديدة •

وأغلب رأى أن السوفيت قد اتجهوا الى رفع الحصار ،
مدفوعين باعتبارات سياسية ، فى المقام الأول ، وفى طليعتها
أن الولايات المتحدة ، مرتبطة بعقد مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة ،
متى رفع الحصار ، وان هذا المؤتمر من شأنه أن يعوق السير الى
انشاء حكومة ألمانيا الغربية • وأقطاب السوفيت يعلمون ، أن
الحزب الشيوعى ضعيف فى ألمانيا الغربية ، فان أنشئت حكومتها

تحت اشراف الدول الغربية الثلاث ، كان انشاؤها كمثل باب يوصد دون نفوذ السوفيت السياسى ، فى أغنى رقعة من ألمانيا ، وأمرها بالسكان والعمال الحاذقين ، وأحفلهما بالقدرة على الانتاج .

وقد قال بعض الناطقين باسم الغرب انهم لن يكفوا عن السعى لانشاء هذه الحكومة ، بل هم فى الواقع يستعجلون انشاءها ، غير أن ذلك لن يتم فى أكبر الرأى على وجهه النهائى قبل انعقاد مؤتمر الوزراء الأربعة فماذا تكون حيلتهم اذا أحجم ساسة ألمانيا الغربية عن اقرار نظام نهائى للحكم فى منطقتهم يكون معناه شطر ألمانيا شطرين . فنفسهم تهفو الى وحدة ألمانيا ، وانبعاثها فاذا دخل فيشنسكى مؤتمر الوزراء الأربعة واقترح أن تنسحب جيوش الاحتلال وأن تقوم دولة ألمانية واحدة على أساس دستور فيمار الجمهورى ، وعلى أن يكون الانتخاب على أساس التمثيل النسبى ، فماذا يصنع الألمان وماذا تصنع الدول الغربية ؟ .

لن يسمعك أن تتصور أن ساسة ألمانيا الغربية يستنكرون انسحاب جيوش الاحتلال وقيام دولة ألمانية واحدة أما التمثيل النسبى فخليق أن يجعل للشيوعيين الألمان ، وان كانوا أقلية ، صوتا وقوة فى المجلس النيابى الألمانى يحسب لهما حساب كبير ، فقد كان عدد النواب الاشتراكيين الوطنيين (النازى) فى سنة ١٩٢٨ فئة قليلة ، وفى ١٩٣٣ تقلدوا زمام الحكم .

ولا تنسين أن تمرد تيتو على موسكو كان تمردا مذهبيا ، فهو وأتباعه تقدوا نظرة موسكو الشيوعية ، فى بعض الشؤون وعابوها ، وأيدوا تقدّمهم بأقوال وأدلة من ماركس ولنين . وقد جارى تيتو فريق ، أقل منه شأنا ، من شيوعى بولندة وبلغاريا ،

فموسكو يكبر عليها أن يتمرد عليها متمرد على هذا الغرار ، ولن تستطيع أن تمضى فيما أعدته من خطة للعمل ، قبل أن تخضعهم أو أن تردم الهوة بينها وبينهم ، فلذلك تراها لا تجد بأسا من التساهل في برلين ، حتى تمضى فى مهمة هى الصق بصميم كيان الحزب الشيوعى ، ومقام الشيوعية الدولية • ولما كانت الشيوعية الدولية قائمة ، على أن الرأسمالية الغربية ، هى الخصم والعدو ، فالاتفاق معها الى حين أسلوب يتبع ، ونقض الاتفاق عمل لا يخالف منطق الشيوعية ، متى كان المسوغ قائما للنقض •

واذن ، فالاتفاق على رفع الحصار عن برلين ، هو فى ظاهره ظفر لدول الغرب ، ولسياستهم الحازمة دون تحدٍّ أو استفزاز ، ولقدرتهم الفنية على تنظيم « جسر الطائرات » • ولكن الاتفاق نفسه ينيل السوفيت غرضين رئيسيين فى نظرهم ، أما الأول ، فهو فرصة تتاح لبحث مشكلة ألمانيا برمتها ، وخلق بهذا البحث أن يرجى قيام دولة ألمانيا الغربية ، أو يحول دون قيامها • وأما الثانى فهو فسحة من الزمن تتاح لعلاج التمرد المذهبى على موسكو فى شرق أوروبا (يوغوسلافيا وغيرها) •

وعسى أن نضيف الى هذين الغرضين ، أن تطور الحوادث على هذا المنوال يحمل نفرا غير يسير فى الغرب ، على استبعاد خطر التوسع السوفيتى ، ولعل ذلك يفرض على أمريكا أن تعيد النظر فى سياستها حيال أوروبا فالحسارة الأدبية التى تلحق روسيا بتراجعها فى برلين ، ثمن يسير حقا ، ان أفضى هذا التراجع الى زعزعة تأييد الشعب الأمريكى والحكومة الأمريكية لمشروع مارشال وميثاق الدفاع الأطلسى ، فالمال لمشروع مارشال يرصد سنة سنة ،

وقد تم ارضاده للسنة المقبلة التى تنتهى فى أبريل القادم فلا حيلة فى ذلك ، ولكن كل ما يضعف تأييده فى الكونجرس فى السنة القادمة يعد ظفرا للسياسة الروسية • أما الميثاق فلم يبرم بعد فى مجلس الشيوخ ولم يرصد له مال بعد لمساعدة الأمم المنتظمة فيه • واذن فرفع الحصار عن برلين ، فاتحة تبعث على الرضى ، ان دل مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة الذى يعقب الرفع ، ان عودة الحال فى برلين الى ما كانت عليه ، منذ عشرة أشهر أو أكثر قليلا ، هى دليل على تغيير أصيل فى موقف موسكو ، لا مجرد وسيلة للمزايدة على كسب رضى الشعب الألمانى ، وتعويق انتعاش أوروبا الغربية وسيرها فى طريق الوحدة •

وعلى كل حال ، فالدول الغربية تدخل هذا المؤتمر ، وهى أعز يدا وأعظم ثقة فقد نجح مشروع مارشال فى سنته الأولى ، ووقع ميثاق الدفاع الأطلسى ، ووضع دستور مجلس أوروبا ، ودنت أحزاب ألمانيا الغربية من الاتفاق ، ودل « جسر الطائرات » على العزم والقدرة ، فاذا قرن رجالها الحزم ، بالرغبة الصادقة على التفاهم ، فربما كان المؤتمر خطوة نحو الاستقرار الذى يرتقبه الناس ، فان لم يفعل كان امتحانا لنية روسيا الصحيحة ، وكلا الأمرين خير فى كفتى الميزان •

أى الخطرين أولى بالنقد

لا يزال ستار الغموض يحيط بمصير مؤتمر باريس ، وان كان اخفاقه أرجح فى أغلب الرأى • وجدول أعماله يكاد يقتصر على مصير ألمانيا بين الكتلتين الشرقية والغربية ، فهو المشكلة التى يدور

من حولها المؤتمر • ولكن يلوح من ورائها ، في نظر الغرب ، مشكلة أخرى هي مشكلة روسيا السوفيتية ، فأيهما أولى بالتقديم ؟ يرى الكرملين أن من يسيطر على ألمانيا ووسط أوروبا يصبح سيد القارة ، كذلك كان الأمر في عهد نابليون ثم في عهد هتلر ، وفي العهدين كليهما ، مال سيد القارة الى غزو روسيا ، فألمانيا في نظر روسيا مصدر خطر هدها ثلاث مرات منذ مستهل القرن التاسع عشر • ولروسيا مصالح كبيرة في الشرق الأقصى ، والشرق الأوسط ، وأوروبا • ولكنها لا تخشى أن يأتيها الغزاة الا من قلب أوروبا • فالقوة الوحيدة التي تخشاها هي القوة التي تسيطر على ألمانيا ، سواء أ قوة ألمانية خالصة كانت ، كقوة هتلر ، أم غير ألمانية خالصة كقوة نابليون أو قوة الغرب متحدة مع قوة ألمانيا • فالفضاء على مصدر هذا الخوف مبدأ أساسى في سياسة روسيا حيال ألمانيا • ولا تسل لم تتوقع روسيا هجوما عليها من الغرب • فهي تخشاه بحكم تاريخها وبحكم المبادئ التي وضعها ماركس ومؤداها أن أزمة الانتاج في العالم الرأسمالى ستدفعه حتما الى مثل هذا الهجوم • ويعزز هذا الخوف أن قادة الروس يدركون أنهم لا يجارون أمريكا ، ومن ورائها دول الغرب ، ولا سيما ألمانيا الغربية ، في قدرتهن على الانتاج الصناعى العظيم • فصار هذا الخوف عقدة مركبة في نفوسهم •

ولكن الخوف ليس هو وحده المبدأ الذى يحرك السياسة الروسية حيال ألمانيا • فروسيا هي أم الشيوعية العالمية وهي ترى أن سيطرتها على ألمانيا ، أو جذب ألمانيا لتسير فى فلكها ، هو الذى يمهدها لنشر الشيوعية فى قارة أوروبا • وقد دلت أحداث أوروبا

منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، على أن الأحزاب الشيوعية وحدها لا تستطيع ، دون أن تستند الى الجيش الأحمر ، أن تنتزع زمام السلطان في الدول الأوروبية ، لا بالانتخاب ولا بالقوة • فقد نجحت في دول شرق أوروبا ، حيث يقيم الجيش الأحمر ، وأخفقت في ايطاليا وفرنسا البعيدتين عن مناله • والكرملين يعلم أن احتلال ألمانيا العسكرية ، لن يدوم الى ما شاء الله ، فحاول في السنوات الأربع التي مضت أن ينتفع به ليقم في ألمانيا حكومة مركزية لا يلبث الشيوعيون أن يقبضوا على زمامها • فخاب فيما سعى اليه ، فذلك تنكر لكل ما صنعه الغرب في ألمانيا الغربية ، لأن نهوض ذلك الشطر من ألمانيا يوصد دون روسيا باب الأمل الذي خالجهما ، ويوميء الى ألمان الشطر الشرقي بالتنكر لها •

والدول الغربية تهتم بألمانيا أيضا اهتماما عظيما • ففرنسا كروسيا تخشى قوة ألمانيا الحربية ، ولا تنسى هجوم ألمانيا عليها ثلاث مرات في سبعين سنة • وبريطانيا لا تنسى أن معاهدة رابالو بين روسيا وألمانيا في سنة ١٩٢٢ أخرجت الدولتين من عزلتهما ، ولا ميشاق ربنتروب مولوتوف في سنة ١٩٣٩ ، الذي مهد لتعاون روسيا وألمانيا تعاوننا لو دام لعجز الغرب عن قهر النازية ، فالغرب يخشى أن يعيد هذا التعاون سيرته السابقة ، ويومئذ تقترب القدرة الألمانية في العلم والصناعة والادارة بموارد روسيا العظيمة وبأسباب الصناعة الروسية التي تسير قدما ، فتصبح هذه القدرة أساسا لقوة شيوعية لا تكاد تقهر •

ومن ساسة الغرب من يرى أن خطر العدوان الألماني على الغرب قد بلغ مداه واستنفذ عنفوانه وصار في المقام الثاني ،

وأهم منه في نظرهم خطر التغلغل الروسى وخطر العدوان الروسى المسلح ، بغية الظفر بألمانيا فسائر القارة . فأخطر مشكلة يواجهها الغرب في نظر هؤلاء هى المشكلة الروسية ، لا المشكلة الألمانية ، وأعظم غرض ينبغى أن يتجه اليه ، هو الحيلولة دون اجتماع القدرتين الروسية والألمانية ، لأن ألمانيا في نظرهم لن تخلص الود الا لما تطمح اليه وتطمع فيه ، وستحاول ما استطاعت المحاولة ، أن تحرك التنافس بين الكتلين على خطب ودها ، حتى تنال من القوة ما ينيلها مطامعها .

فالمشكلة في باريس ، في رأى الفريق الأول ، هى أن توحد ألمانيا في نطاق دستور بون الذى وضعته أحزاب ألمانية قوية متنكرة للشيوعية ، فان لم يكن ذلك مستطاعا ، فخير أن تبقى ألمانيا مشطورة ، وليمض شطرها الغربى في نهوضه ، عسى أن تتوثق عرى صلته بأوروبا الغربية ، حتى يصير جزءا منها ، كسائر دول الغرب . وأما في رأى الفريق الثانى فالمشكلة هى الوصول الى تسوية ما مع موسكو ، تتيح لجيوش الاحتلال أن تبقى في ألمانيا زمنا ما وأن يحرص الغربيون على الذكرى فلا يدعوا خوفهم من الخطر الروسى يطمس أبصارهم حتى لا يروا الخطر الألمانى في المستقبل .

وكلا الفريقين يحترم رأى صاحبه ويدرك أن رأيه ليس وحده هو الحق الخالص فالمسألة التى يواجهها وزراء الدول الغربية هى مسألة اقامة ميزان بين الخطرين .

وهذا الميزان يحاولون أن يقيموه على المبادئ التالية : لن تنزل الدول الغربية عن النجاح الذى نالته في نهوض ألمانيا الغربية لقاء وعود من روسيا قد تكون أدنى الى الوهم ومثارا لجداول جديد

ولن ترضى بحل يحرم الشعب الألماني الضمانات الدستورية الأساسية التي انطوى عليها دستور بون ، وظفر بها ألمان الغرب ، ولن تقبل تسوية من شأنها أن تعرض شعوب أوروبا لقيام قوة ألمانيا الحربية مرة أخرى . وهذه المبادئ الثلاثة توفق بين أصول الرأيين ، فتتيح لألمانيا أن تنهض في نطاق اشتراكها مع سائر دول أوروبا الحرة ، فتستمتع هي وهن بثمار التعاون الصادق في سبيل الارتقاء الاقتصادي وضمان السلامة العامة .

ففي حدود هذا التحليل ، ان صح لا يستطيع سوى المتماذي في التفاؤل أن يتوقع نجاحا يذكر لمؤتمر باريس ، ان كان مقياس النجاح اتفاقا كاملا ترتضيه الدول الأربع .

موسكو وبلغراد

وضعت السماعرة على اذني ، وأدرت المفتاح الذي يتيح لي أن استمع بالانجليزية الى وزير خارجية يوغوسلافيا وهو يلقي خطبته من منبر الجمعية العمومية ، فأذهلني ما سمعت . ان الألفاظ التي تتدفق من بين شفثيه هي الألفاظ التي كان الشيوعيون ، من كل جنس وامة ، يحتفظون بها في جعبتهم لأمثال تشرشل وفورستال والرأسماليين المستعبدين (بكسر الباء) ودعاة الحرب ، ولكنها تنطلق اليوم سهاما مسددة الى موسكو — وفيشنسكي جالس يسمع ! وحملة موسكو على تيتو أشد ، فقد اتهمه الكومنفورم بالانحراف ، وبالخروج على التماسك العالمي بين طبقات العمال ، ثم طرد من الكومنفورم ومحي اسمه من جميع الشوارع في الدول التابعة لموسكو ، ومن اندية العمال ، ووصف في مذكرات رسمية

بأنه عدو الاتحاد السوفيتي ، وصار كل رجل منهم بالخيانة في هذه الدول يوصم بأنه « منحرف تيتوى » ، وانشئت في براج و صوفيا وبخارست مجلات تضم صوتها الى صوت الاذاعة في تشديد النكير عليه ، وتولى فيشنسكى نفسه ادارة المساعى للحيلولة دون انتخاب يوغوسلافيا عضوا في مجلس الامن .

فالنزاع الذى نشب بين الكومنفورم وتيتو فى أوائل صيف سنة ١٩٤٨ استمر فى سنة ١٩٤٩ وتفاقم . وشدة الحملة عليه مقياس لما تعلقه بها موسكو من خطير الشأن . فبقاء يوغوسلافيا منضوية تحت جناحيها ، شىء لا غنى عنه لموسكو من أجل ملاحاة الدانوب ، والوصول الى ساحل البحر الادرياتيک وربما السيطرة على البلقان . بيد أن موسكو ترى فى خروج يوغوسلافيا عليها ، ما هو أفدح شرا ، فتيتو شيوعى ، وشيوعيته تستند الى تعاليم ماركس ولينين ، ولكنه يذهب الى أن الدول الشيوعية يحق لها أن تكون مستقلة لا خاضعة خضوعا تاما لموسكو ، فهو ينادى بتساوى الأحزاب الشيوعية ، وباستقلال الدول الشيوعية . وقد كان النزاع فى مبدأ أمره سرا ، أو محصورا فى نطاق ضيق ، وكان مداره : من يملك زمام السلطان على يوغوسلافيا فلما انطلق من نطاقه الضيق الى نطاقه العالمى الأوسع ، صار مداره أهم من يوغوسلافيا نفسها : من يملك الحق فى تقرير الخطط التى يسير عليها الشيوعيون اين كانوا ، ولا ينحرفون عنها قيد انملة ، وهذا السؤال هو وحده أخطر تحد وجه الى موسكو .

أما كيف نشأ الشقاق ، وكيف اذن له أن يستفحل ، حتى يستعصى فشىء يشق استقصاؤه ، ولكن يلوح أن المكتب السياسى

في موسكو ، استعجل الفصل فيه ، حين بدرت بوادره ، دون أن
 يقدر عواقبه جميعا فقد ألف رجاله أن يعالجوا المتمردين على
 سلطانه ، فيفر أحدهم ، كما فر تروتسكى حتى أدركته فأس المقتال
 في داره في مدينة المكسيك ، أو يستسلم أكثرهم ، فيجرى عليهم
 العلاج الذى يفضى بهم الى « الاعتراف » فيدينون أنفسهم
 بألستهم • ولكن ظهر أن تيتو متمرّد من نوع لم يؤلف من قبل
 فهو حاكم أمة نزاعة الى الاستقلال ، يتخذ أرضها قاعدة لسلطانه ،
 وهو بعيد عن موسكو ، ومع ذلك ظن رجال الكرملين أن تيتو
 خليف أن يفر أو يستسلم بعد أن تصدر صحيفة اتهامه فموسكو لم
 يأخذها تمرده على غرة ، بل الذى أخذها هو نجاح هذا التمرد •
 وقد كان لموسكو في يوغوسلافيا عمال كثيرون ، من أعضاء
 البعثة العسكرية ورجال الكومنفورم الذى اتخذ مقره في بلغراد ،
 وغيرهم ، أفأخطأوا جميعا في فهم الدلائل الماثلة بين أيديهم ، أم
 غرهم وغر رؤساءهم ظفرهم فيما مضى في « تصفية » كل متمرّد ،
 أم ردهم الخوف عن أن ينقلوا الى موسكو شيئا لا يسر ؟ وعلى
 كل حال فقد أرادت موسكو ، أن تعامل تيتو كأنه تابع لن يحتفظ
 بمقامه ان لم ينل رضاها ، فلما وجه اليه القول ، تلقت منه الرد
 كيلا بكيلى ، بدلا من التوبة والاذعان ، فصدر القرار بحرمانه ،
 وانشوا يترقبون فراره ، أو تألب جماعته عليه ، ولكنه لم يتزعزع ،
 بل رد على قرار الحرمان ، بأنه لم يجد في تعاليم ماركس قولا
 واحدا يؤتى الكرملين أعلى سلطة لا ترد في العالم الشيوعى ووقف
 الحزب الشيوعى اليوغسلافى — ما عدا أفراداً قلائل — من ورائه
 يشد أزره •

أما كيف استطاع تيتو وأنصاره ، أن يقفوا هذا الموقف ، وان تعجز موسكو حتى اليوم عن اخضاعهم ، فمرجه في أكثر الأمر ، الى شعور الشيوعيين اليوغوسلافيين ، وموقع يوغوسلافيا الجغرافي . فشيوعيو يوغسلافيا يعتقدون أن صلتهم بموسكو تختلف عن صلة سائر الأحزاب الشيوعية بها في أوروبا الشرقية . ويوغوسلافيا لم تكن في صف أعداء روسيا خلال الحرب ، كما كانت رومانيا وبلغاريا ، ولا كانت دولة احتلها الألمان احتلالا كاملا فحررها الجيش السوفيتي كما فعل في بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، وكانت جماعة « الأنصار » اليوغسلافيين بقيادة تيتو ، قوة يعتد بها في مناوأة الألمان فمال تشرشل اليهم ، في تلمسه كل وسيلة تزيد متاعب هتلر . وشيوعيو يوغسلافيا يعرفون هذا ، ويتمازحون فيقولون ان قائدهم — تيتو — لم يهبط بالطائرة بعد النصر وفي فمه غليون يدخنه ، لكي يتسلم زمام الحكم ، كما فعل راكوسى فى هنغاريا ، وجوتوالد فى تشيكوسلوفاكيا ، وديميتروف فى بلغاريا وغيرهم .

ثم أن شيوعى يوغسلافيا تساورهم رغبة قوية فى أن ينهضوا باقتصاد امتهم فيرفعوا انتاجها الزراعى ، ويستثمروا مواردها المائية والمعدنية فى الصناعة ، ويقولون انهم لم يلقوا عوناً من روسيا فى هذا الباب ، فصادرات روسيا الى يوغوسلافيا كانت تقوم بثمان أعلى من مستوى السعر العالمى ، وصادرات يوغسلافيا الى روسيا تقوم بثمان أقل من مستوى السعر العالمى ، والآلات الضخمة اللازمة للانشاء الصناعى فى يوغسلافيا ، ظلت وعودا على ورق على حين دأبت روسيا على استيراد مقادير كبيرة من خامات

معادتهم ، فوقر في أذهانهم أن الخطة المدبرة هي أن تبقى يوغسلافيا
أمة لا تنتج سوى محاصيل الزراعة وخامات المعادن .
أضف الى كل ذلك أن ليوغسلافيا ساحلا طويلا على البحر
الادرياتيكي ، يطل على الغرب ، فليس خضوعها بغير كفاح شيئا
مقدرا عليها ولا مفر منه .

بيد انه من الخطأ البين أن يظن أن تيتو ، في صراعه مع
الكرملين ، ليس شيوعيا قحا ، في مذهبه ونظام الحكم والاقتصاد
الذي أنشأه في يوغسلافيا . فقد تمرس معظم حياته بالتعاليم
الشيوعية وناجح عنها في روسيا وأسبانيا ويوغسلافيا ، فالنزاع بين
تيتو وستالين ليس نزاعا مذهبيا ، وان لفت بعض نواحيه بالعبارات
المألوفة في الجدل المذهبي ، بل هو نزاع على السلطان . والمسألة
ليست أيكون نظام الحكم في يوغسلافيا شيوعيا أو غير شيوعى ،
بل هي : أتظل يوغسلافيا الشيوعية دولة مستقلة ، أم تقضى
يوغسلافيا الشيوعية في سلطان موسكو ؟

والنتيجة التى يسفر عنها النزاع ذات خطر عظيم للكتلتين —
الشرقية والغربية . فروسيا تخشى في المقام الأول أن تمتد النزعة
التيتوية الى الأحزاب الشيوعية في شرق أوروبا وغربها ، وهذا
يعلل تطهير هذه الأحزاب من « المارقين » « والمنحرفين » في بولندا
ويوغسلافيا وهنغاريا ورومانيا ، وليس لأسماء كوستوف
البلغارى ، ورايك الهنغارى وغيرهما من مغزى سوى هذا ، فقد
صارت بلغراد قطبا جديدا لجماعات من الشيوعيين ، ترى ما يراه
تيتو من ضرورة التسليم بمبدأ مساواة الأحزاب الشيوعية
واستقلال الدول الشيوعية .

وتمسك يوغسلافيا باستقلالها عن موسكو — على رغم بقائها
شيوعية — يبقى روسيا بعيدة عن البحر الادرياتيک (اذا استثنيت
ألبانيا) ، ويحد من أثر حملة روسيا السياسية في غرب أوروبا ،
واذا مضت نزعاً تيتو الى تيجتها المنطقية قامت في شرق أوروبا
كتلة من الدول المستقلة وان كانت شيوعية فتكون عامل توازن في
أوروبا ، فاذا اخضعت يوغسلافيا لسلطان موسكو ، اختل الميزان
الأوربي ، كما اختل يوم أخضع هتلر دولتي النمسا
وتشيكوسلوفاكيا ، واضطربت المساعي التي تبذل الآن لبنیان
اقتصاد أوروبا الغربية ودفاعها .

أتقدم روسيا على اخضاع تيتو بالقوة ؟ من يدري . فان كنت
ممن يظنون أن المنطق يقتضي من روسيا أن تخضع يوغسلافيا ،
ما دامت قوة الغرب ضعيفة ، فقل أن روسيا ستقدم وان كنت
ممن يظنون أن روسيا تؤثر خطر تيتو ، على خطر نشوب حرب
عامة الآن ان هي حاولت أن تخضعه بالقوة ، فقل انها ممتنعة .

الصّين واندونيسيا

شهدت سنة ١٩٤٩ حدثين من أخطر الأحداث شأنًا في الشرق
الأقصى ، ومن أكبرها أثراً في ميزان القوى العالمية وسير النزاع
بين الكتلتين الغربية والشرقية ، هما قيام الولايات المتحدة
الاندونيسية ، وقيام الحكومة الشيوعية في باكين . أما الأول
فقد كان ظفراً للقومية الاندونيسية في المقام الأول ، ولمجلس
الأمن ، وأما الثاني ، فكان ظفراً للشيوعية الصينية ومن ورائها
موسكو تشد أزرها ، وخذلانا كبيراً للحكومة الصينية الوطنية ،

وللدول الغربية التي لم تزل تؤيدها ، ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية •

في عام ١٨١٥ ، توج في لاهاي بهولندة ولهم الأول أمير اورانج أول ملك على هولندة وجزائر الهند الشرقية الهولندية بعد أن مضى على تلك الجزائر قرابة قرنين ، تحكمها شركة تجارية تعرف باسم « الشركة التجارية للهند الشرقية الهولندية » • وفي يوم الأربعاء الموافق للثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، احتفل في لاهاي بتوقيع اتفاق نقلت بمقتضاه السيادة على جزائر الهند الشرقية من تاج الملكة جوليانا الى الاندونيسيين أنفسهم ، فكان ذلك الاتفاق تنويجا للمساعي التي لم يزل الاندونيسيون يبذلونها منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، للظفر بالاستقلال • وقد ظلت قواتهم المسلحة ثلاث سنوات تحارب ، فقد حاربت الانجليز الذين نزلوا الجزائر لتحريرها من اليابانيين ، ثم حاربوا الهولنديين الذين عادوا اليها ليستردوا زمام سلطانتهم عليها •

كان مجلس الأمن قد أمر الهولنديين غير مرة أن يعقدوا الصلح مع أهل الجزائر ، وأن يتفقوا وياهم على خطة تفضي الى جلاء القوة الهولندية عن اندونيسيا والاعتراف باستقلالها • وقد تنكرت هولندا لما كان من مجلس الأمن غير مرة ، ولكن الرأي العام العالمي ، وتهديد وزارة الخارجية الأمريكية بقطع معونة مارشال عن هولندة ، انتهيا الى عقد مؤتمر لاهاي في ٢٥ أغسطس الماضي ، الذي وصل الى اتفاق رضيه الفريقان ، في شهرين أو أكثر قليلا • والدولة الجديدة — الولايات المتحدة الاندونيسية — تشمل جميع الجزائر في الأرخبيل الاندونيسي ، ما عدا غينيا الجديدة

التى لم تزل موضع خلاف • ومساحة هذه الجزائر ٧٣٥٠٠٠٠ ميل
 مربع وأرضها من أخصب أرض العالم وأغناها بالمعادن كالتصدير
 والزيت وأغزرها إنتاجا زراعيا • وسكانها ٧٧ مليوناً من الناس •
 وهى مؤلفة من ست عشر ولاية ، أكبرها الجمهورية الاندونيسية
 المؤلفة من معظم جاوة وسومطرة ، ومنها جاوة الشرقية ، وبورنيو
 الشرقية ، وبورنيو الغربية ، وسومطرة الجنوبية وغيرها •
 ودستورها اتحادى ينص على رئيس ومجلس شيوخ يضم شيخين
 عن كل ولاية ، ومجلس نواب ينتخب أعضاؤه على أساس عدد
 السكان • أما العلاقة بين الولايات المتحدة الاندونيسية وهولندة،
 فقد نظمها (قانون الاتحاد) الذى وقع فى لاهاي ، وهو ينص
 على (اتحاد هولندى اندونيسى) تكون ملكة هولندة رأسه
 الرمضى • أما الدولتان اللتان يتألف منهما الاتحاد ، فكل منهما
 دولة مستقلة ذات سيادة ، ولكنهما فى نطاق الاتحاد شريكان
 متساويان • فالدستور الاتحادى شبيه بدستور الولايات المتحدة
 الأمريكية و (قانون الاتحاد) فيه مشابه من نظام « الكومنولث »
 وليس ثمة ريب فى أن الدولة الجديدة ، تواجه فى عهدها
 الأول طائفة من المشكلات الخطيرة ، من سياسى وعمرانى ، ولكن
 الاجماع يكاد ينعقد على أن نبأ هذا الحدث كان خيراً نبأ تلقته
 الدول الغربية من الشرق الأقصى ، منذ زمن بعيد •
 ذلك بأن الحالة فى الشرق الأقصى ، لم تزل فى نظر الدول
 الغربية ، تطرد سوءاً منذ أن ثبت أن الحكومة الصينية الوطنية ،
 بقيادة شانج كاي شيك ، عاجزة — برغم المعونة التى نالتها —
 عن صد تيار الشيوعيين الصينيين • نعم ان ممثلى الصين الوطنية ،

يستطيعون أن يقيموا الحجّة — كما فعلوا في هيئة الأمم المتحدة في دورتها الأخيرة — على أن روسيا قد خرقت المعاهدة القائمة بين موسكو ونانكين ، وبذلت العون المادى والأدبى للشيوعيين الصينيين ، ولكن الحقيقة التى لا مرأى فيها اليوم ، هى أن القوات الشيوعية الصينية ، اكتسحت معظم الصين فى خلال سنة أو أكثر قليلا ، وأقامت منذ أكتوبر الماضى ، حكومة شيوعية اتخذت باكين عاصمة لها ، واعترفت بها روسيا والدول التابعة لها • وقد وصف تشرشل هذا الانقلاب فى ميزان القوة فى الصين بأنه : « أكبر كارثة أصبنا بها منذ النصر فى الحرب العالمية الثانية » •

والاهتمام بما حدث فى الصين يرجع الى سببين رئيسيين ، أما الأول فهو ان ماوتسى تنغ وأنصاره الذين تسلموا زمام الصين الآن قد أحرزوا نصرا فى ثورة سياسية اجتماعية ضخمة لم تزل قائمة منذ ثلاثين سنة أو نحوها وقد يثبت على الزمن أن عواقبها لا تقل شأنًا عن عواقب الثورة البلشفية التى تمت فى روسيا فى سنة ١٩١٧ ان لم تكن أعظم • فالنصر الحربى الذى أحرزته القوات الشيوعية الصينية قد غير الخريطة السياسية والحربية فى شرق آسيا • وأما الثانى فهو أن الصين الشيوعية خليفة أن تصير كحجر المغنطيس القوى ، تجذب إليها طوائف كبيرة من أهل البلاد المجاورة لها ، كالهند الصينية وبورما وغيرها • وقد عقد فى باكين فى الأسبوعين الأخيرين من شهر نوفمبر الماضى ، مؤتمر حضرته وفود نقابات العمال من آسيا وجزائر المحيط الهادى ، فأعلن المؤتمر تأييده لجميع « قوى التحرير » فى بورما والملايو واندونيسيا والهند الصينية والفلبين ، وقرر انشاء مكتب دائم

للاتصال بين الحركات الثورية التى يقودها الشيوعيون ،
وسكرتيرية تكون فى منزلة هيئة أركان حرب لهذه الحركات ...
أى أن الحركة الشيوعية فى الشرق الأقصى صار لها (كومنفورم)
خاص بها كمثل « الكومنفورم » فى أوروبا الشرقية •

وليس من غرائب الدعوة الشيوعية فى آسيا انها تتنكر لبقايا
السيادة الغربية فى الشرق الأقصى — كالحكم البريطانى فى
الملايو — ولكن من غرائبها أنها تتنكر أيضا لزعماء الحركة
القومية الاسيوية من الهند الى الفلبين • فقد شدد مؤتمر باكين
تكيره على نهرو الهندى وتاكين نو البورمى وسوكارنو
الاندونيسى وعدهم « خدما للاستعمار الغربى » • ولما كان
الشيوعيون يظهرون فى مظهر المؤيد للقومية المستقلة ضد
السيطرة الغربية ، فقد كان من المنطق أن تراهم يرحبون بكل
حركة تنتهى الى الاستقلال ، وسفر الجهاد الذى ملأه أمثال نهرو
وسوكارنو بآيات بينات ينبغى أن يضعهم فوق كل شبهة فى نظر
الداعين الى التحرر والاستقلال • ولكن الشيوعيين لا يرون لأحد
فضلا ان لم تنته مساعيه الى وضع بلاده تحت أجنحة الحركة
الشيوعية التى تديرها موسكو فى العالم وتتولاها الصين الآن
فى آسيا الشرقية •

وقد تختلف الدول الغربية الآن ، على الاعتراف بحكومة
الصين الشيوعية (ولهذا الموضوع بحث آخر) ولكن الحقيقة
التى لا خفاء فيها ، هى أن الدول الغربية لا تواجه الصين الشيوعية
وحسب ، ولا الصين الشيوعية وموسكو من ورائها وحسب ، بل
هى تواجه اليوم ضربا من قوة الجاذبية الانسانية ، يشق على

شعوب آسيا الشرقية وجنوب آسيا الشرقي أن تبقى بمعزل عن التأثير بها . فقد كانت هذه البلاد جميعا ، في زمن ما ، جزءا من الصين في بعض عصورها الامبراطورية وتأثرت بالثقافة الصينية ، وهاجرت اليها وأقامت فيها جماعات كبيرة من الصينيين ، فالصوت الذي ينبعث من باكين الشيوعية الى هذه البلاد ، واجد ولا ريب شيئا من الصدى على الأقل ، في نفوس طوائف من أهلها .

نعم أن الصين نفسها لا تزال أمة ضعيفة في ميدان الصناعة الحديثة ، وقد يتعذر على شيوعيينها ، وان بذلت لهم موسكو بعض العون ، أن يغيروا هذه الحالة قبل انقضاء دهر طويل ، فليس ثمة خطر قريب ، من أساطيل الصين وأسرابها الجوية وجيوشها المدرعة أن تقتفي آثار الغزو الياباني في المستقبل القريب .

ولكن التغلغل الشيوعي ، المستند الى ظفر الشيوعيين في الصين ، هو أعظم خطرا لأنه أخفى واختل من الحرب السافرة . ومن هنا يعلق أمل كبير ، على التسوية التي انتهت الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الاندونيسية وسيادتها ، فقواد الحركة الوطنية الاندونيسية ، مقاومون للشيوعية ، وقد أخضعوا غير ترمد واحد أثاره الشيوعيون في السنوات الأخيرة في بلادهم ، فلو ظلت حركتهم الوطنية بغير استجابة من جانب الأمم الغربية وهولندا ، لمهد الطريق للشيوعيين حتى يستغلوا خيبة الأمل ويحولوا تيار الحركة الوطنية الى الشيوعية . أما وقد نالت الوطنية الاندونيسية مطالبها — اذا استثنيت قضية غينيا الجديدة — فالأمل معقود على أن تصبح هي الأخرى ، ضربا آخر من قوة الجاذبية الانسانية ، تستميل اليها شعوب البلاد المجاورة ، التي

تطلب الحياة الحرة والحياة الوافرة ، ولا ترى جماعات كثيرة منها
أن الشيوعية هي التي تمهد لها هذا الطريق .

الحرب الباردة تمتد

أدرك الناس بالتجربة ومطالعة الأصول ، أن الشيوعية الدولية
تبدل وسائلها وغاياتها القربية مسaire لمقتضى الحال ولكنها قلما
تغير خططها العامة وتأبى أن تغير أهدافها البعيدة . فأصحابها
يؤمنون أخذاً بالقواعد التي وضعها ماركس وفسرها لين وستالين ،
أن انهيار الدول الرأسمالية ، مقدر عليها بحكم منطق التاريخ
وتفسيره الاقتصادي ، فعليهم أن يستعجلوا الانهيار بجميع
الوسائل ، يلينون هنا ويشددون هناك ، حتى تتم الثورة العالمية ،
ويتوحد العالم في ظل الشيوعية ، أى حتى ييسطوا سلطانهم
على سطح البسيطة .

فالنظرية الشيوعية ، هي نظرية ثورة وحرب ، غرضها أولاً أن
تقلب نظام المجتمع حتى يصير « العمال » سادته وان هذا الانقلاب
لا يتم الا بالتوسل بالقوة لتقويض دعائم النظم القائمة . ولكن
النظرية لا تقف عند هذا الحد ، فقد يتم الظفر للثورة الشيوعية
في أمة واحدة أو طائفة من الأمم ، ولكن لن يتم لها النجاح
والاستتباب — في تقدير أصحابها — ان لم تفض الى ظفر الثورة
الشيوعية في جميع الأمم ، وهذا يستدعى نشاط الأحزاب الشيوعية
والدول الشيوعية لاستعجاله .

وقد حاولت روسيا ، رأس العالم الشيوعى ، أن تسير على
هذه الخطة في الغرب ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فانقاد لها

شئ من النصر فى الدول المجاورة لها ، حيث كان الجيش الأحمر مقيماً أو على مقربة • ولكن الانقلاب الشيوعى الذى تم فى تشيكوسلوفاكيا ، فى فبراير من سنة ١٩٤٨ ، أحدث هزة فى دوائر الغرب ، فاذا مشروع مارشال يقر ويمضى فى مراحله الأولى فيرد العافية الاقتصادية الى أوصال أوروبا الغربية ، واذا شيوعيو ايطاليا يخذلون فى الانتخاب العام ، وشيوعيو فرنسا يخفقون فيما سعوا اليه من بلبلة فرنسا بالاضراب ليفسدوا المنفعة التى تعود عليها من معونة أمريكا ، واذا الاتحاد الغربى يقوم بين بريطانيا وفرنسا ودول البنلو كس ويتبعه ميثاق الدفاع الأطلسى ، فلما حاولت روسيا أن تمتحن دول الغرب وعزيمتها وصدق حرصها على الحيلولة دون توسع الشيوعية فى الغرب ، عمدت الى برلين فاذا « جسر الطائرات » برغم ما اكتنفه من المشقة والنفقة ، دليل لا يخطئ ، فكفت عن الامتحان فى أواسط هذا العام •

فقد أثبتت سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٤٩ أن الشيوعية الدولية أخفقت فى الحرب الباردة التى أدارت رحاها ، فى الشق الغربى من أوروبا ، وتجلى هذا الاخفاق خاصة ، فى تمرد تيتو وعواقبه •

ففى أوائل هذه السنة (١٩٤٩) أنذر كاشان الشيوعى الفرنسى ، وتوليأتى الشيوعى الايطالى ، بأن الشعين الفرنسى والايطالى ، خليقان أن ينضما الى الاتحاد السوفيتى اذا نشبت حرب عامة ، ولكن الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٤٩ ، بينت أن شيئاً من التردد قد طرأ على هذين الحزبين ، فزعماء الحزب الشيوعى فى فرنسا يعترفون بتغلغل النزعة « التيتوية » فيه ، وتوليأتى حذر لجنة حزبه ، من نفوذ « الأعداء » الى الطبقات العليا فى الحزب ،

نفوذا أحدث فيها « انحرافا مذهبيا » ، وقد شجع هذا التحول تيتو نفسه فعمد الى الهجوم المذهبي ، وقد كان حتى الآن يدافع عن حق الدول الشيوعية في أن تكون مستقلة عن موسكو ، فاذا صحيفة الحزب الشيوعي اليوغسلافي اليوم تتهم شيوعي موسكو بالانحراف والاستغلال والاستعباد ، وهكذا •

فكان من أثر هذا التحول في أوروبا خلال السنتين الماضيتين ، أن عمدت موسكو ، الى تعزيز سلطانها في دول أوروبا الشرقية ، بمحاكمة المنحرفين وتصفياتهم ، وتعيين المارشال روكوسفسكى وزيرا للدفاع في بولندا وقائدا للجيش ، كما مالت الى الشرق الأقصى ، ولاسيما الصين ، حيث يعيش مئات الملايين في بيئة اجتماعية لعلها أصلح بيئة لتقبل بذور الشيوعية وانباتها •

فالحرب الباردة التي ظلت زمنا وهي تكاد تكون محصورة في نطاق أوروبا ، امتدت اليوم واتسع نطاقها • ومن الأقوال التي تعزى الى لينين قوله : « ان الشرق الأقصى هو الباب الخلفى الى دار الدول الرأسمالية ، وان في الطاقة الشيوعية أن تنفذ منه الى غرضها البعيد — سقوط الدول الرأسمالية وبسط سلطان الشيوعية على العالم » •

وكذلك جدد شيوعيو الصين هجومهم على قوات الحكومة الصينية الوطنية ، فتم لهم في سنة وبعض سنة الاستيلاء على معظم الصين ، ومنذ أيام وصل ماوتسى تنغ وتشيه تيه قائد جيشه الى موسكو فخفف ثلاثة من كبار أعضاء المكتب — السياسى مولوتوف ومالينكوف وبولجانين ومعهم فيشنسكى وجروميكو الى استقبالهما •

وخضوع الصين كلها للشيوعية خلق أن يصير قوة دافعة
للشيوعية في جنوب آسيا الشرقى من برما الى الهند الصينية
ولا يبعد أن تشعر الهند وأندونيسيا وباكستان بأثرها •
فالاخفاق الذى منيت به الشيوعية في الغرب يقابله ظفرها
في آسيا •

وقد ترى من يقيم لك الحجة بأن الصين الشيوعية قد تنزع
الى الاستقلال عن موسكو ، وأن موسكو لا تستطيع أن تواليها
بما تحتاج اليه لتنمية مواردها وانشاء الصناعة فيها فلا بد لها من
أن تستعين بالغرب وقد يكون هذا صحيحا ولكن من الخطل أن
ينبى الحساب على هذا التقدير فالزعيم الشيوعى الصينى ماوتسى
تغ لم يزل منذ ظهر فى حلبة الشيوعية الصينية يؤكد فيما يكتب
ويقول : ان الشيوعيين الصينيين يد واحدة مع سائر الديمقراطيات
الشعبية ، ضد « المعسكر الاستعمارى » ، وقد كان عضوا
فى الكومنترن منذ سنة ١٩٣٥ الى أن حل رسميا فى سنة ١٩٤٣
وها هى ذى زيارته لموسكو بعيد قيام الحكومة الشيوعية فى باكين
تؤيد — الآن على الأقل — هذا الرأى •

ولسنا نعلم ما تنويه الكتلة الغربية حيال هذا الشطر من الحرب
الباردة ، فخطتها فى أوربا بينة ولكن موقعها فى آسيا يكتنفه
الغموض فقد تعتمد الى تقوية اليابان وبذل المعونة لأندونيسيا
والهند فى حدود الانشاء العمرانى ، وقد تضيف الى ذلك ميثاقا
خاصا بالمحيط الهادى على غرار ميثاق الدفاع الأطلسى وان كان
ذلك شيئا مستبعدا الآن • وفى أول شهر فبراير المقبل ينتظر أن
يرأس السفير الأمريكى العام فيليب جيسوب مؤتمرا سياسيا

في بانجكوك عاصمة سيام يحضره رؤساء البعثات السياسية الأمريكية في تلك المنطقة وقد يخرج من هذا المؤتمر بمقترحات جديدة تبنى عليها الولايات المتحدة خططها المرتقبة ♦

ومهما يكن من أمر فإن امتداد الحرب الباردة من أوروبا الى سواحل الصين ، وجنوب آسيا الشرقى ، يجعل تجديد النظر في موقف الشرق الأوسط شيئا لا غنى عنه ، قلب نظرك كيف شئت في هذه الحرب الباردة العالمية على وجوهها الحربية والاقتصادية والسياسية ، فلن تجد لك مفرا في خاتمة المطاف من أن تنتهى الى القول بأن رقعة الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط ، هما كالعقدة الصعبة أو كحجر العقد في الخطة التى لا مفر للكتلة الغربية من أن تتخذها في هذا الصراع العالمى — سواء أظل باردا أم تحول الى نار حاصدة ♦

فهذه الرقعة بأوسع معانيها الجغرافية من تركيا الى الهند ، قد ازدادت شأننا عالميا ، بعد الذى تم في الصين — أفيكون منطق الحقائق الجغرافية والاقتصادية والحربية كفيلا باستخراج النتائج التى يفرضها هذا المنطق فتعتمد بريطانيا وأمريكا وأصحابهما الى استرداد ثقة الشعوب العربية والتعاون معها ومع جاراتها على وجه يزيد الفريقين قوة ومنعة أم تمنى السياسة بالعقم والعجز ، فاذا ما ألتقى في اليونان وتركيا وإيران عرضة لأن يذهب هباء لأن شعوب المنطقة الواسعة التى يستند اليها هذا الخط الأمامى لا يحركها سوى التسكر والاستنكار ♦

مشروع مارشال

مرحلته الثانية

لو لم يؤت المشروع ثمره في مرحلته الأولى ، لما كان ثمة مرحلة ثانية يدور البحث من حولها .

فقد اجتمعت الأنباء منذ أواخر السنة الماضية على أن هناك مفاوضات خطيرة دائرة ، غرضها أن يحول مشروع الانعاش الاقتصادى الأوروبى من وسيلة لدعم الانتاج الأوروبى بالدولار حتى يسترد مستواه قبيل الحرب العالمية الثانية ، في كل دولة على حدة ، من الدول الأوربية التى اشتركت فيه ، الى وسيلة تمهد لقسط أوفى من حرية التجارة بين دوله جميعا ، أى الى قسط من التعاون الاقتصادى بينها ينزل منزل شئ من الوحدة الاقتصادية . فهذه الوحدة كانت أحد الغرضين العظيمين اللذين وضع المشروع من أجلهما ، وبها على الخصوص ، زين المشروع للشعب الأمريكى وممثليه فى المجلسين . وحقيقة الأمر أن توفيق المشروع فى مرحلته الأولى أفضى الى نتيجة تناقض غرضه الثانى . فالحرص فى مبدأ الأمر على زيادة الانتاج فى كل دولة من دوله وتوزيع معونة الدولار الأمريكية على الدول وفقا لعجز الدولار فى ميزان كل منها ، أفضى الى تعزيز الفوارق الاقتصادية المتحدرة من تاريخها السياسى ، وشجع الدول المشتركة على أن تقتصر كل دولة نظرها على مشكلاتها ومشروعاتها الخاصة بها دون نظر يذكر لمشكلات الجماعة أو مشروعاتها . ومع ذلك لا مفر من التسليم بأن تقديم زيادة الانتاج فى المرحلة

الأولى على السعى لادراك الوحدة ، كان شيئا لا مفر منه •
وما تم في السنتين الأوليين أيد حكمة هذا التقديم • ولو قدم
التعاون في سبيل الوحدة على زيادة الانتاج لكان الأمر فوضى •
فالناس في حاجة الى العمل والقوت والكساء ، فارهاقهم ، وحالهم
هى حالهم ، بعبء يقتضى تبديلا في العادات المألوفة في التجارة ،
والآراء المتبعة في السياسة ، والتقاليد المرعية في منهج الحياة ،
تقتضى اتخاذ قرارات سياسية خطيرة بعيدة عن المألوف ، وقد كان
اتخاذها شاقا ، ان لم يكن مستحيلا ، في أمم يوهنها الضعف
الاقتصادى ويفرق بينها وبين طبقات الأمة الواحدة منها دعوة الدعاة
الذين يجدون الضعف الاقتصادى والاجتماعى مرتعا لهم •
وليس ثمة ريب في نجاح المرحلة الأولى ، فقد زاد الانتاج حتى
بلغ مستواه قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، أو فاقه ، وهذه
حقيقة لا يسع رجال السياسة والاقتصاد أن يهملوها في تقدير ماتم ،
والتمهيد لما يطلب ويرام •

وقد اقترح المعنيون بادارة الانعاش الأوروبى مقترحات مالية
فنية لا يتسع هذا المقال لبسطها ، لو كان فى وسع كاتبه أن يبسطها •
ولكن أهم هذه المقترحات ثلاثة ، يريدونها أن تكون قوائم
المشروع فى مرحلته الثانية • فأولا يريدون نظاما أوسع نطاقا من
اتفاق المدفوعات القائم بين دول المشروع حتى يزداد التبادل
التجارى وتحويل العملات بعضها الى بعض ، تيسيرا ومرونة ،
وثانيا يريدون أن تخفض القيود الكمية أى الحصص ، المفروضة
على التبادل التجارى بين هذه الدول ، وثالثا يريدون أن يتحول
مجلس ادارة التعاون الاقتصادى الأوروبى من مجلس استشارى

ضعيف الى مجلس له شيء من السلطان في وضع المناهج الكبيرة
لتشмир الأموال ، أى أن يخطو خطوة ما نحو تحويله الى مجلس
اقتصادي أعلى لأوروبا الغربية .

وهذا في اعتقادهم هو أقصى ما تستطيع دول المشروع أن
تصنعه ، في سنة ١٩٥٠ ، في اتجاهها الى « الاندماج » Integration
الاقتصادي الذي يطلبه هوفمان ، المدير الأمريكي للمشروع .
وهذا الطلب في مصلحة أوروبا الغربية البعيدة المدى ، ويلوح أنه
لا غنى عنه لاقناع الكونجرس لارصاد المال اللازم للمشروع
في سنته الثالثة .

والاتفاق على هذه الأصول والسير قدما في سبيل تحقيقها ،
برغم العقبات الكبيرة التي تعترضه هو أيضا شيء لا غنى عنه
في النضال السياسى المتوقع في هذه السنة بين الكتلتين .

فقد وردت أنباء من موسكو أن رجال السلك السياسى
الأجنبى في العاصمة السوفيتية يرون أن ستالين يذهب الى ان
النظام الرأسمالى مقدر له أن يعيش سنوات آخر ، وان العالم اليوم
يتسع للنظامين الشيوعى والرأسمالى ، دون ضرورة لحرب .

ولعل أقوى دليل على صحة هذا المذهب ، أن مالينكوف ،
الذى يعد في طليعة رجال المكتب السياسى بعد ستالين ، نشر مقالا
خطيرا في صدد الاحتفال بعيد ستالين السبعين ، ذهب فيه الى
أبعد حد في الاسناد واقامة الدليل لتبيين رأى ستالين في أنه ينبغى
للعالم أن يتوقع قيام الشيوعية والرأسمالية جنبا الى جنب زمنا
طويلا ثم صرح بأن آراء ستالين في هذا الموضوع يمكن تطبيقها
على الحالة العالمية اليوم . وقد نشرت هذه الأقوال في الوقت

الذى اجتمع فيه ممثلو العالم الشيوعى من أواسط أوروبا الى سواحل الصين لتحية ستالين فى عيدہ — أى فى وقت بلغ فيه المد الشيوعى أقصاه •

بيد أن المتحدثين السوفيت لم يكتموا ما يجول فى أذهانهم ، برغم ما نشره مالينكوف • فهم لا يزالون يعتقدون أن الأزمة الاقتصادية الأمريكية قادمة لا ريب فيها ، ويومئذ ينهار البناء الاقتصادى فى أوروبا الغربية ، كأنه بيت من ورق ، أو بيت بنى على الرمل •

فمقال مالينكوف الذى يمهّد فيما يلوح ، لحملة سلام كالحملة التى مهّد لها ستالين فى أوائل السنة الماضية ، بحدّثه مع كنجزبرى سميث ، ورأى الشيوعيين الذى لم يطرأ عليه تغيير ، بأن « المتناقضات » فى ثنايا النظام الرأسمالى والأزمة الاقتصادية الأمريكية ، كفيلة بهدم هذا النظام ، ان آجلا وان عاجلا — كلاهما يقتضى من أمريكا وأوروبا الغربية أن تتقيا باليقظة والتعاون كل ما من شأنه أن يحقق الرأى الشيوعى فى اقتصادهما حتى تكونا ذات يد عزيزة فى كل حديث يدور ، ان شئت حملة السلام ، ومن هنا ما يعلق من شأن عظيم بمشروع مارشال فى مرحلته الثانية •

الجبهة الشعبية الجديدة

فى الفترة المضطربة التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، قام فى أنحاء أوروبا ، التى لم تخضع للحكم الفاشى أو النازى ، ائتلاف بين أحزاب الوسط وأحزاب اليسرة ، أطلقوا عليه وصف « الجبهة الشعبية » • وقد كان مرجع الايحاء بقيامها الى موسكو ، عسى

أن يكون فيها رد قوى ، على الحكمن الفاشى والنازى ، وسعى
أقطابها الى استمالة رجال المينة والمال والأعمال فى دول أوربا .
ففى سنة ١٩٣٥ عقد الكومنترن مؤتمره السابع فى موسكو ، وقرر
أن يكف حملته على الأحرار والاشتراكيين ، أو يرجئها ، وأن
يسعى لانشاء ضرب من الائتلاف ضد الفاشية والنازية ، وكذلك
قامت الجبهة الشعبية فى فرنسا ، مستندة الى الأحرار والاشتراكيين
والشيوعيين على ما بينهم من تفاوت فى المذهب ، وقام مثلها
فى اسبانيا وغيرها .

ولكن هذه الجبهة انهارت ، وتفككت أوصالها ، قبيل نشوب
الحرب ، يوم عقد الميثاق النازى السوفيتى ، فبمقتضاه ألقت روسيا
بوزنها فى الكفة الألمانية ضد الدول الغربية ، فانقلب الشيوعيون
فى فرنسا ، مثلاً ، الى مناوأة الحكومة القائمة ، لأنهم وقفوا من حرب
ألمانيا ، الموقف الذى رسمه لهم اتفاق مولوتوف وربنتروب
فأخرجوا من المجلس ووضعوا تحت الرقابة .

ويلوح أن اتفاقات مشروع مارشال والوحدة الغربية الأوربية ،
وميثاق الدفاع الأطلسى ، قد أنشأت فى العالم الغربى اليوم جبهة
شعبية جديدة . وهذه الجبهة تجمع بين أمم ليس بينها خلاف
مذهبى ، كمثل الخلاف المذهبى الذى كان قائماً بين الأحرار
فى فرنسا وهم حزب وسط ، وبين الشيوعيين حلفائهم فى الجبهة
الشعبية فى ذلك الزمان . بل تجد بين أمم الجبهة الشعبية الجديدة ،
مبدأ تجتمع من حوله ، ففى هذه الدول شىء من الاشتراكية ، يقل
أو يكثر ، وكثير من الرأسمالية على درجات متفاوتة من التحكم
والسلطان ، ولكن شعوبها تعترف ، بأن كل نظام فى الحكم يمكن

تعديله التعديل الذى ترتضيه كثرة الذين يعيشون فى ظلاله ،
وتؤمن بأن نظرتها الى الحرية واستمساكها بها ، تؤلف بينها وتوحد
عزمها على الدفاع عنها • وقيام هذه الجبهة له صلة فيما يظن ،
باعفاء مولوتوف من مهام وزارة الخارجية السوفيتية ، وتعيين
فيشنسكى خلفا له فيها •

كان الكرملين يعد وزارة الخارجية قبل أن تقلدها مولوتوف
فى مايو سنة ١٩٣٩ ، ادارة من ادارات الحكومة يتعين عليها أن
تحفظ بالصلة بمنبوذى العالم — فى نظر الشيوعيين — أى الدول
البورجوازية • وما كان وزير الخارجية من الرجال الذين يرسمون
سياسة الحكومة ، فقد تقلدها رجلان اثنان قبل مولوتوف ،
هما تشيشرين ولينينوف ، ولم يكن أحدهما من البلاشفة
المؤصلين ، ولا كان عضوا فى المكتب السياسى ذى الحول والسلطان •
فلما أعفى لينينوف ، وخلفه مولوتوف ، دل ذلك على تغيير
فى نظرة الكرملين الى وزارة الخارجية ووزيرها والى المهمة التى
تضطلع بها فى الاشراف على صلة روسيا بسائر العالم ، فمولوتوف
بلشفى قديم وهو عضو فى المكتب السياسى مقرب من ستالين منذ
عشرين سنة أو أكثر ، ويعتد الرجل الذى يليه فى الحزب وفى
الحكومة فلم يكذب يتولى وزارة الخارجية حتى مضى فى مفاوضة
رنتروب ، وفى أغسطس ١٩٣٩ عقد الميثاق النازى السوفيتى ،
الذى ضمن لهتلر — فى أول الأمر على الأقل — سلامة مؤخرته
فى الجبهة الشرقية ، وانطلاق يده فى قهر الغرب •

كان رأى ، حتى ذلك العهد ، أن المبدأ الأصيل فى سياسة
السوفييت هو أن أغراضهم تتحقق متى نخر السوس جذور العالم

غير السوفيتى ، فتصير الثورة العالمية ممكنة فينهار ذلك العالم
الانهيار المقدّر عليه بحسب تعاليم ماركس وأتباعه •

فلما عقد مولوتوف الميثاق مع ربنتروب دل بعمله هذا على
أن الكرملين يريد أن يتوسل بالوسائل الدبلوماسية ليستعجل سير
التاريخ فى تحقيق ما يريد ، لأنه قدر أن الميثاق يفضى الى نشوب
الحرب بين المحور والغرب الرأسمالى ، فدمر الحرب الفريقين
جميعا ، ويرث الاتحاد السوفيتى السؤدد والسلطان على العالم •
وقد أخفقت المحاولة لأن هتلر هاجم روسيا ، ولكن مولوتوف
بقي فى الوزارة برغم اخفاقها ، ليسعى بالوسائل السياسية بعد
الحرب الى تحقيق الأغراض التى فاته تحقيقها فى أثنائها • وقد ظل
وهو وزير الخارجية عضوا فى المكتب السياسى ، فكان يشترك
فى وضع السياسة الخارجية ويتولى تنفيذها • وكان الكرملين ،
يتوقع أن تتاح له ، بعد انتهاء الحرب ، فرصة ثانية أدنى الى نجاحه
فيما يريد بالأساليب السياسية • فتعاليم ماركس ولينن تقطع
باستفحال أطماع الدول الغربية ، بعد ظفرها ، فتختلف وتتنازع
فيما بينها على الأسواق ، وقد يشتد الجفاء بينها ، فيومئذ تحاول
روسيا السوفيتية بالأساليب الدبلوماسية ، أن تقسم العالم
مع كبرى الدول الرأسمالية — الولايات المتحدة — وأن تخرج
من هذه القسمة بشرط الأسد ، فيكون ذلك الاقتسام خطوة على
الطريق المرسوم •

ولكن المقدّر لم يقع ، فلا الدول الغربية ، اشتد بينها النزاع
على الأسواق ، ولا الاتفاق مع أمريكا على حساب سائر العالم
قد تم •

بل الذى تم هو قيام هذه الجبهة الشعبية الجديدة فى الغرب ،
التي أركانها مشروع مارشال ، والوحدة الغربية ، وميثاق الدفاع
الأطلسي .

أى أن محاولة روسيا أن تتوسل بالأساليب السياسية لتحقيق
أغراضها قد أخفقت ، فعزفت عن التجربة ، وأرجعت وزارة الخارجية
الى المنزلة التي كانت لها قبل مولوتوف ، فتولاها فيشنسكى ،
وهو كتشيشرين وليتفينوف ، رجل ذو براعة وبلاغة وسعة حيلة ،
ولكنه ليس بلشفيا عريقا ولا عضوا فى المكتب السياسى . وفى
مجلس الوزراء الروسى رجل آخر ، كان كوزير الخارجية
ذا صلة بدول الغرب ، هو ميكويان وزير التجارة الخارجية ،
وقد أعفى كما أعفى مولوتوف ، ولكن ظل كلاهما عضوا فى المكتب
السياسى .

فالنتيجة التي تخرج بها من هذا ، هى أن قيام الجبهة الشعبية
الجديدة فى الغرب قد أقنع الكرملين ، بأنه لا خير يرجى الآن من
التوسل بالأساليب السياسية لتحقيق أغراضهم . أما ما يلى ذلك
فعلمه عند رجال المكتب السياسى ، ولن تجد أحدا يستطيع أن
ينبئك عن علم وثيق بما عسى أن تكون خطة الكرملين فى السنوات
المقبلة .

ولكن الرأى الغالب فى الغرب بين متتبعي الحالة الدولية ،
هو أن روسيا لا تريد الحرب الآن ، ولا يحتمل أن تغامر فى شيء
خليق أن يفضى الى حرب خلال زمن ما . بيد أنها ، فى رأى هؤلاء ،
قد اتخذت لنفسها خطة ذات ثلاثة أغراض ، أولها ترسيخ قدمها
حتى لا ينازعها على السلطان منازع فى بلاد شرق أوروبا التي دخلت

فى نطاقها منذ الحرب • وثانيهما أن تنتفع بانهماء أمريكا فى أوربا ،
لتظفر بكل ما تستطيع أن تظفر به من المزايا فى الشرق الأقصى ،
وجنوب آسيا الشرقى ، والشرق الأوسط • وثالثهما أن تعجل
اعداد الاقتصاد الروسى للحرب • وهذه خطة قد يستغرق تحقيقها
بضع سنوات على الأقل ، ولن تستطيع دول الغرب أن تحبطها بعقد
ميثاق كميثاق الدفاع الأطلسى ، بل ينبغى لها أن تبادر الى تنفيذ
برامج الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى التى تعين على رد الناس
عن فتنة الدعوات الهدامة •

مبدأ الميثاق الأطلسى

فى أواسط سبتمبر الماضى سمعت فى نيويورك ووشنطن همسا
عن مباحثات تجرى وراء ستار ، غرضها وضع ميثاق للدفاع ، على
غرار الميثاق المعقود بين دول الجامعة الأمريكية ، فتنظم فيه طائفة
من دول غرب أوربا من ناحية ، والولايات المتحدة وكندا من ناحية
أخرى • وقد علمت يومئذ أن هذه المباحثات لم تزل دائرة فى
وشنطن ، منذ أوائل شهر يوليو ، بين ممثلى حكومتى كندا
والولايات المتحدة ، وممثلى الاتحاد الأوروبى الغربى ، وان غرضها
الاستطلاع وحسب ، دون أن تنطوى على تقييد الحكومات
بما تسفر عنه من آراء ومقترحات •

وقد عنيت بعد ذلك بتقصى رأى فى هذا الاتجاه الجديد ،
الذى لا عهد للسياسة الأمريكية الخارجية بمثله من قبل ، فى زمن
السلام ، فتبينت موافقة عليه من ناحية المبدأ وألفت الدوائر
الصحفية الأمريكية فى المدينتين ، مقتنعة بأن لا مناص للولايات

المتحدة من أن تنهض بنصييها كاملا فى الدفاع عن أوروبا الغربية ،
وأن مصلحتها تقتضى ذلك •

ولكن الاتفاق على المبدأ ، كان يجاريه خلاف على بعض
التفاصيل : أترضى الحكومة الأمريكية أن تمد زمن هذا الميثاق
المرتقب الى ما شاء الله ، كالمعاهدة التى وقعت فى ريودى جانيرو
بين دول الجامعة الأمريكية ؟ أ تستطيع الحكومة الأمريكية أن تنقيد
فيه بدخول حرب ، مع أن الدستور ينص على أن شهر الحرب حق
للكونجرس ، والكونجرس حريص دائما على أن لا يفرط فى حقوقه ؟
أ يقتصر الميثاق على دول الاتحاد الأوروبى الغربى أم يشمل الدول
السكنديناوية والبرتغال واسبانيا ، فمزاياها الحرية المستمدة من
موقعها الجغرافى لا يسهل اهمالها ؟ أمن المصلحة أن يطرح هذا
الموضوع على بساط البحث العام ، فى بضعة الأسابيع المحمومة
التى تسبق انتخاب الرئيس ؟

أما السؤال الأخير ، فقد حسم فى اليوم الذى ثبت فيه أن
ترومان قد أعيد انتخابه ، فلا حاجة بعد ذلك الى التريث فى البحث
الى ٣٠ يناير ١٩٤٩ ، يوم يتولى الرئيس الجديد زمام الرئاسة •
وأما الأسئلة الثلاثة الأولى ، وأسئلة أخرى كثيرة على غرارها ،
فهى موضع بحث يدور اليوم فى واشنطن — وقد بدأ منذ أيام —
على أساس مشروع وضع فى أوروبا وارتضته دول الاتحاد الأوروبى
الغربى •

قد يختلف المؤرخون فيمن سبق الى اقتراح القاعدة التى يقوم
عليها ميثاق الدفاع الأطلسى • فأنا أذكر مثلا أن الكاتب الأمريكى
والترلمان وضع فى سنة ١٩٤٤ كتابا عنوانه « الولايات المتحدة

وغاياتها من الحرب » وقد عرض فيه فكرة قيام جماعة متآلفة من الدول أطلق عليها « جماعة الأطلسي » وان كانت لا تقتصر في تعريفه على الدول القائمة على سواحل المحيط الأطلسي وحسب .

ولكن حسبنا أن نقول ، ان نواة ميثاق الدفاع الأطلسي ، بذرت من الناحية العملية في شهر مارس الماضى ، على أثر توقيع معاهدة بروكسل . ففى ١٧ مارس ألقى ترومان رسالة على مؤتمر الكونجرس قال فيها : « ان الولايات المتحدة ستتوسل بالوسائل المناسبة لتسدى الى الدول الحرة التأييد الذى يقتضيه المقام » وفى اليوم نفسه وقف مكنزى كنج رئيس وزراء كندا فى مجلس النواب الكندى فقطع عهدا « بتأييد كل حركة ترمى الى تحقيق السلامة المشتركة وانشاء الموائيق الاقليمية فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة » .

بعد ذلك عرض السناتور فاندنبرج على مجلس الشيوخ الأمريكى ، اقتراحا مؤداه أن الولايات المتحدة توافق على مبدأ اشتراكها فى نظم السلامة المشتركة الاقليمية فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة ، فوافقت عليه لجنة الشيوخ الخارجية بالاجماع ، فى ١٩ مايو ، ثم وافق عليه مجلس الشيوخ فى ١١ يونيو ، ولم يخرج على الكثرة سوى أربعة من أعضائه .

على أن اقتراح فاندنبرج لا يمكن أن يعد عهدا حربيا مجديا ، الا اذا أفرغ فى قالب معاهدة لا تقتصر نصوصها على المبدأ ، ولكن اقراره أتاح للمراقبين الأمريكين أن يحضروا اجتماعات اللجنة الحربية التى أنشئت وفقا لميثاق بروكسل ، ولمثلى الحكومة الأمريكية أن يشتركوا فى المباحثات التى دارت فى واشنطن

فى الصيف الماضى مع ممثلى كندا والاتحاد الأوروبى الغربى كما تقدم ، ولدول الاتحاد الأوروبى الغربى أن تمضى قدما فى وضع مشروع يتخذ أساسا للمباحثات الدائرة فى واشنطن اليوم . واذن فقد أرسيت الدعائم على جانبى المحيط الأطلسى ، وعلى الدول السبع أن تبنى القنطرة التى تصل بينها فوق المحيط .

هذه هى الخطوات التى مهدت للميثاق المرتقب ، فما هى الحقائق الحربية التى تجعله أمرا لا مفر منه وتكفل نفعه اذا قضى الأمر ووقع الصدام ؟

أثبتت الأيام التى انقضت منذ أن وضعت الحرب أوزارها فى أوروبا ، أن العالم قد شطر كتلتين — كتلة تأتم بروسيا ، وكتلة تلتف من حول الولايات المتحدة ، ودول أوروبا الغربية . وبين الفريقين جماعة من الدول لا تزال تميل الى الحياد — الآن على الأقل .

والكتلة الأولى تحتل رقعة ، هى أضخم رقعة واحدة من اليابسة على سطح الأرض ، قلبها مستقر فى أواسط آسيا وجناحها يمتدان الى أواسط أوروبا من الغرب ، والى الصين من الشرق . فهذه الكتلة من الدول هى بحكم طبيعة أرضها وموقعها وعدد سكانها أكبر قوة برية فى العالم اليوم . وأما الكتلة الأخرى فهى جماعة من الدول تعد الولايات المتحدة وكندا ودول الاتحاد الأوروبى الغربى عمادها الأول . وهى تضم شعوبا بلغت من الثقافة والحدق الصناعى والقدرة الصناعية أعظم مبلغ ، وتملك عنان أكبر قوة بحرية وجوية فى العالم اليوم .

وقد يلوح أن قيام المحيط الأطلسى بين فتى هذه الكتلة

في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية ، باعث من بواعث الضعف •
والحق أنه باعث من بواعث الضعف والقوة في آن واحد • فوقع
المحيط بينهما يجعل امداد الفئة الأوروبية بالعون الأمريكي ، عملا
شاقا ولكنه في الوقت نفسه يقيم حاجزا عريضا يتعذر على القوة
البرية أن تتخطاه اليوم ، أو في المستقبل القريب فيتيح للفئة
الأمريكية أن تظل مصنعا ضخما تستند إليه أوروبا الغربية
في دفاعها •

بيد أن تقدم أسباب المواصلات الحديثة ، وازدياد سرعة
الطائرات والصواريخ ، قد جعلا أمريكا الشمالية اليوم ، بالقياس
الى أوروبا ، كما كانت الجزائر البريطانية بالقياس الى أوروبا قبل
اختراع الطائرات • فهذا التقدم قد جعل بريطانيا جزءا من القارة
وجعل أمريكا جارة غير بعيدة عنها •

وإذا نظرت الى الخريطة ، رأيت الكتلة الأرضية التي تشغلها
روسيا وأتباعها ، تحف بها على مقربة من السواحل أرض غير
تابعة لها ، تسكنها شعوب ، هي أدنى في نهج حياتها وصلاتها
التاريخية الى الكتلة الغربية وان لم تكن منها • فإذا تم للقوة البرية
المتفوقة أن تبسط سلطانها على هذه الأرض — أى اذا تم لروسيا ،
أن تبسط سلطانها على كل آسيا وأوروبا أتيحت لها على الزمن
فرصة لتصير قوة جوية وبحرية متفوقة ، فيومئذ تصير سلامة أمريكا
الشمالية عرضة لخطر حقيقى لا يحميها منه محيطان متراميان •
وقد خاضت الولايات المتحدة الحرب الأخيرة لكي تحول دون
وقوع أوروبا تحت سيطرة دولة واحدة ودون وقوع آسيا تحت
سيطرة دولة أخرى • أما اليوم فمن البين أن الغرض من مشروع

مارشال ، وميثاق الدفاع الأطلسي ، هو الحيلولة دون وقوع أوربا وآسيا تحت سيطرة دولة واحدة خليفة أن تهدد أمريكا في المستقبل .
فهذا التقدير الحربى يبين كيف مالت الولايات المتحدة الى مبدأ الميثاق الأطلسي ، على ما فيه من انحراف عن السياسة التى كانت تؤثرها زمن السلام ، ويعلل ما يعلقه بعض الكتاب الحربيين من شأن عظيم على انضمام دول أوربية أخرى الى هذا الميثاق .

ما قيمة الميثاق

طرح نصوص الميثاق الأطلسي ، على بساط البحث ليبدى كل ذى رأى رأيه فيها . وسوف تحفل الصحف والمنابر العامة والمجالس النيابية بأقوال أنصاره ومعارضيه . وهذه العلانية فى بحث الميثاق قبل توقيعه ، ثم بعد توقيعه وقبل ابرامه ، صفة أصيلة من صفات الحياة النيابية ، لن تجد لها شبيها فى الأمم التى أخذت زمامها يد حاكم بأمره ، أو حزب فرد حاكم بأمره .
وسوف تتكشف الأيام المقبلة عن آراء متباينة فى ضرورة الميثاق وقيمته . فالمستر جون فوستر دليس ، يرى أن القرار الذى يتخذه الشعب الأمريكى فى موضوع الميثاق ، هو أخطر قرار فى سياسته الخارجية ، منذ أن نشر الرئيس مونرو مذهبه المعروف باسمه فى أوائل القرن التاسع عشر . أما الشيخ فاندنبرج ، فيرى على خلاف ما يرى دليس « ان ليس فى الميثاق تبعة ما لن تجد نواتها مكتوبة فى ميثاق الأمم المتحدة » . وكلاهما من أقطاب الجمهوريين وخبير كبير فى الشؤون الخارجية .

وبين رجال الكونجرس الأمريكى ، فئة قليلة ترى أنه اذا نص

الميثاق على التزام خوض الحرب ، عند وقوع هجوم على غرب أوروبا ، فالميثاق مناقض للدستور الأمريكى ، وانه ان لم ينص على هذا الالتزام ، فلا قيمة له . ثم هناك جماعة توافق على مبدأ الميثاق ، ولكنها تأبى أن تتقيد بالموافقة على ارساد المال اللازم له ، أو بالموافقة دون فحص دقيق مفصل للمبالغ المطلوبة ، فقد صرح الشيخ تافت بأنه سوف يؤيد الميثاق ، ولكنه ينوى أن يمتنع عن الموافقة على ارسال السلاح الى الدول الأوروبية لأنه يرى أن الاقدام على ذلك زمن السلام ، عمل قد يعده الروس استفزازا صريحا . وكما يختلف أهل الرأى فى الولايات المتحدة ، يختلف أيضا رأى الدول التى دعيت للانضمام اليه . ففرنسا التى بلت الاحتلال النازى ، يهمها فى المقام الأول ، أن يكون الميثاق حائلا دون أن تبلى مرة أخرى باحتلال سوفيتى فهى لذلك تريد الميثاق وسيلة للدفاع لا وسيلة لتحريرها من احتلال جديد . وقد رضيت به النرويج ولكنها تأبى أن تتخذ دول الميثاق فى أرضها قواعد حربية فى زمن السلم ، حتى لا تستفز روسيا .

وعلى الرغم من تباين الرأى فى نواحي الميثاق تدل الدلائل جميعا على أن مجلس الشيوخ الأمريكى ، سيرمه بأكثرية الثلثين التى ينص عليها الدستور ، وعلى أن المجالس النيابية فى كندا والدول الأوروبية المنتظمة فيه ، سوف تبرمه أيضا .

وأكبر الظن أن قيمة الميثاق الحقيقية فى الفترة الأولى اللاحقة لابرامه انما هى قيمة مغزاه ، وهذا المغزى ينطوى فى أن الولايات المتحدة الأمريكية ، قد حزمت أمرها على نبذ العزلة والحياد ، وانها تعد نفسها من الناحيتين الأدبية والقانونية دولة يعنيه

كل شيء يهدد سلامة المنطقة التي يشملها الميثاق ، أى منطقة الجزء
الشمالي من المحيط الأطلسي ، الواقعة الى الشمال من خط السرطان •
وهذا المعنى شيء جديد في السياسة الدولية • ففي سنة ١٩٣٩
نظر هتلر فيما بين يديه من خطط لتحقيق مآربه ونظر الى الولايات
المتحدة ، فرأى أولا أن قواتها المسلحة لا تمكنها وان أرادت من
أن تقف عقبة في طريقه ، وان حالتها النفسية كانت أدنى الى الامتناع
عن التدخل في شئون العالم ، وأن قانون الحياد الذي سنته
في ١٩٣٥ و ١٩٣٩ يمنعها من التدخل ، دون تعديله •

فكان هذه العوامل الثلاثة اجتمعت على كلمة « الحياد »
وكان هذه الكلمة قالت لهتلر اذا نشبت حرب في أوروبا فالولايات
المتحدة ملتزمة حيادها ، فلذلك كان في وسع هتلر يومئذ أن يقدم
على شن الحرب ، وهو مطمئن الى أن الولايات المتحدة لن تنصبه
عدوانا تخشى عاقبته ، في خلال فترة ، ظنها يومئذ كافية لكي ينال
الظفر الذي يريد • وقد فعل ، ولكنه أخطأ الحساب في بعض
النواحي ، التي جرت عليه الوبال في آخر الأمر •

وقد مضت عشر سنوات على ذلك • وها هو ذا ميثاق الدفاع
الأطلسي ، يقول لستالين ، أو لمن يحل محله ، ان موقف الولايات
المتحدة بعد ابرام الميثاق في ١٩٤٩ ، يختلف عن موقفها في ١٩٣٩ ،
كاختلاف النقيض عن النقيض ، لأن هذا الميثاق لا يقول ، ان
الولايات المتحدة ستلتزم الحياد ، بل يقول ، انها تعد سلامة جماعة
الأطلسي جزءا من سلامتها ، فكل اقدام على تهديد هذه السلامة
تعدده تهديدا لسلامتها هي ، وكل هجوم على هذه الجماعة من الدول
أو أحد أعضائها تعدده هجوما عليها •

فهذه هى قيمة الميثاق الآن • ان نصوصه تحدد طرقا تتخذ اذا وقع هجوم مسلح ، فهو ميثاق دفاع ، ولكن غرضه الأول هو أن يحول دون وقوع هذا الهجوم ، وأن يحذر من تحدته نفسه بشنه ، من الاقدام عليه ، وأن يبذل الوهم بأن الولايات المتحدة سوف تقف موقف المتفرج من قوة تحاول أن تدمر أمما ونظما تعدها عزيزة عليها ، ولا غنى عنها لسلامتها ، ومن هنا العبارة التى وردت فى خطبة الرئاسة التى ألقاها ترومان يوم تنصيبه فى ٢٠ يناير الماضى قال : اذا استطعنا أن نوضح توضيحا لا يقبل الشك ، ان أى هجوم مسلح يعرض سلامتنا القومية للخطر سوف يقابل بقوة غالبة ، فمن المحتمل أن لا يشن ذلك الهجوم •

أو هذا على الأقل هو المبدأ الذى قامت عليه فلسفة الميثاق • فاذا نظرت اليه هذه النظرة رأيت وجوه التباين فى رأى التى تقدم ذكرها ، قد صارت فى المقام الثانى •

طبعا ينص الميثاق على انشاء لجنة لأركان حرب ، مهمتها أن تضع خطط الدفاع ، لمنطقة شمال المحيط الأطلسى كلها ، وأن تعين منزلة كل دولة وتبعتها فى هذه الخطة العامة ، وعلى اقامة نظام للمشاورة اذا نشأت حالة تهدد الأمن وبذل العون الاقتصادى والحربى للدول الأعضاء ، ولكن هذه التفاصيل جميعا ، على خطرها ، ليست سوى وسائل لتحقيق الغرض الأول ، وهو الحيلولة دون قيام الحالة التى تقتضى الالتجاء الى هذه الوسائل ، وسر الحيلولة ، فى نظر واضعى الميثاق ، هو أن الولايات المتحدة قد عازمت أن تقف فى سنة ١٩٤٩ وما يليها ، موقفا يختلف عن موقفها فى سنة ١٩٣٩ كاختلاف النقيض عن النقيض •

الجماعة الأطلسية

نظر علماء الجغرافية الطبيعية في سطح الأرض ، فقسموه وفقا
للخواص الجغرافية الطبيعية فجعلوه قارات ومحيطات وبحارا ،
ثم قسموا القارات فجعلوها سهولا ونجودا وصحارى وأحواض
أنهار كبيرة ومناطق جبال • ونظر علماء الجغرافية السياسية
والانسانية والاقتصادية في أهل الأرض وشعوبهم ودولهم ونواحي
نشاطهم الزراعى والصناعى والتجارى ، فجعلوها دولا ذات سيادة
أو مناطق تابعة لتلك الدول ، أو جماعات متاخية من الدول ،
أو أجناسا توثق بينها أوامر الملامح وقربى الدم ، أو كتلا من
الدول تربط بينها مصالح التكامل الاقتصادى أو التقاليد
العريقة أو النظم السياسية أو الدين أو ضرورات الدفاع • والأمثلة
على ذلك كثيرة تتجلى في عبارات جغرافية تجرى على أقلام الكتاب
والسنة الساسة كل يوم : حوض الدانوب ، وادى النيل ، الشرق
الأدنى ، الشرق الأوسط ، جماعة الشعوب الصقلية ، منطقة الأمم
السكندناوية ، الكومونولث الذى ظللنا نصفه بالكومونولث
البريطانى الى عهد قريب ، أمريكا اللاتينية وهكذا •

ولكنك لن تجد في الكتب الجغرافية المتداولة ، أو معاجم
الساسة والصحفيين ، عبارة « الجماعة الأطلسية » ، فهي عبارة
جديدة تصف جماعة صار لها شبه كيان عالمى • وقد ينكر علماء
الجغرافية الطبيعية أو الانسانية أو الاقتصادية أن لهذه الجماعة
وجودا في عرفهم • فالمحيط الأطلسى المترامى يفرق بعضها عن
البعض الآخر ، ومنها دول ذات نظام جمهورى وهى الكثرة ،

وأخرى ذات نظام ملكى ، بعضها لاتينى وبعضها انجلوسكسونى
وبعضها خليط ، فيها الدول التى أكثر شعبها من أتباع المذهب
الكاثوليكي ، وفيها الدول التى يغلب عليها أتباع شيع نصرانية
أخرى . بينها فروق فى مذاهب الاجتماع من اشتراكى الى رأسمالى ،
وقد كانت حتى عهد قريب تنافس بعضها بعضا فى أسواق العالم ،
وقد نشبت بينها فى القرون الأخيرة حروب دامية مدمرة تركت من
البغضاء فى النفوس جراحا لا يزال بعضها داميا .

بيد أن عبارة « الجماعة الأطلسية » غدت وصفا لحقيقة
سياسية دولية ، تنطوى تحت الضرورات التى فرضتها جميع هذه
الفوارق — أو هكذا يرجو أصحابها أن تصير . وقد اقتضت قيامها
أحوال العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، ولا سيما بعد أن خاب
الأمّل فى قيام عالم واحد ، وانشطر العالم شطرين ، فدارت بينهما
رحى الحرب الباردة .

وفكرة قيام « الجماعة الأطلسية » ليست بالفكرة الجديدة
الطارئة . فقد دعا إليها أولا فيما نعلم رجل أمريكى كان يقيم
فى جنيف ، هو كلارنس سترايت ، وألف فى ذلك كتابا عنوانه
« الوحدة الآن » ، ونشره قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ،
وحث على تنفيذ الفكرة فى أثناء الحرب ، ثم استقال من عمله
وأنشأ مجلسا يجمع المال من المؤمنين بهذه الدعوة ، وينفقه
فى الترويج لها .

ثم دعا إليها أو الى ما يشبهها والتر ليمان المعقب الأمريكى
والمفكر السياسى المشهور فى كتاب نشره فى أواخر الحرب العالمية
الثانية ، وجعل عنوانه : « الولايات المتحدة وغاياتها من الحرب » .

نعم ان لبمان لم يدع الى قيام هذه الجماعة لتتحدى الكتلة الشرقية أو لتنافسها ، بل دعا الى قيامها لتكون احدى الوحدات الكبيرة المتعاونة في عالم واحد ، وقد فرض أن الوحدتين الآخرين هما وحدة « المدار الروسى » ووحدة « المنطقة الصينية » ، وسلم بأن « الأمم الاسلامية والهندية في افريقية الشمالية والشرق الأوسط وجنوب آسيا سوف تؤلف في الوقت المناسب وحدات اقليمية خاصة بها » . ثم قال : « فالسلم بعد هذه الحرب سيكون مناطه الاحتفاظ بالتحالف بين المدار الروسى وجماعة الأطلسى ، ويتوقف قيام حرب عالمية ثالثة أو عدم قيامها على استقرار الروسيين في مدارهم ، ودول الأطلسى في مدارها وعلى توحيد السياستين في الجانبين حيال ألمانيا واليابان » .

ولكن الأمور بعد الحرب لم تسر على المنوال المتوقع ، فتألفت « الجماعة الأطلسية » بحكم الضرورة ، من دول تقل عددا عن الدول التى دعا لبمان الى انتظامها فيها ، ولغرضين أقربهما قيام كتلة تستطيع بالتعاون أن تدافع عن نفسها ان وقع اعتداء ، وأبعدهما الآن أن تتعاون مع الوحدة الروسية التى ابتلعت الصين — ان حدث في النفوس تغيير يجعل التعاون مستطاعا .

والدول التى تنتظمها هذه الجماعة هى أعضاء في جماعة التعاون الاقتصادي الأوروبى ، أو ميثاق الدفاع الأطلسى أو فيهما كليهما . ومجموع أهلها يبلغ أربعمئة مليون نفس أو أكثر قليلا ، وهى على الأكثر دول صناعية يستمتع سكانها بمستوى عال للحياة وان تفاوتت مراتب ارتفاعه ، ولها قدرة كبيرة على الانتاج . نعم ان المحيط الأطلسى يفصل بعضها عن البعض الآخر ، ولكن البحار

والأجواء قد ذلت عقباتها ، فالدول الصناعية التى تملك السفن والطائرات تجد فى البحر المتراعى والفضاء الواسع طريقا معبدا لا فاصلا منيعا • نعم ان نظم الحكم فيها تختلف من الملكى الى الجمهورى ، ولكنها تصدر جميعا فى نظرتها السياسية عن فلسفة واحدة هى حقوق الانسان ومشئنة الشعب ، وقد تقصر هذه الدول جميعا عن تحقيق المثل الأعلى فى هاتين الناحيتين ، ولكنها مع تقصيرها لا تنفك مستمسكة بهما • نعم هى تختلف لغة ، فأهلها يتكلمون عشر لغات أو أكثر ، ولكن يغلب عليها أنها جميعا ترجع أصول ثقافتها الى ارث ثقافى ذى ثلاثة أصول أولها فى اليونان وثانيها فى المسيحية وثالثها فى نهضة القرون الوسطى التى تأثرت بالثقافة العربية ولاسيما فى العلوم ، التى مهدت للنهضة العلمية الصناعية الحديثة • وأخيرا هى دول جمع بينها ريب مشترك فى نية روسيا السوفيتية وخطتها ، ورغبة مشتركة فى التعاون على حسن الحال والدفاع عن النفس •

وقد شهد شهر ابريل ومايو مؤتمرات متلاحقة عقدها ممثلو هذه الجماعة فى لاهاي وباريس ولندن ليعالجوا المشكلات التى يواجهونها أو ليمهدوا لمعالجتها ، فاذا أُلقيت نظرة مستشرفة على البيانات الرسمية التى صدرت ، والأنباء والتعقيبات التى نشرتها الصحف وحملتها وكالات الأنباء ، تبين أن هذه المشكلات وان اشتركت وتشابكت ، ففى وسعك أن تبوبها تيسيرا لبحثها ، فاذا هى المشكلات الخاصة بمستقبل الاقتصاد الأوروبى ، والمشكلات الخاصة بالدفاع الغربى ، والمشكلات الخاصة بمقاومة التيار الشيوعى فى سائر أنحاء العالم وفى طليعتها الآن جنوب آسيا الشرقى وما يجرى مجراه •

المانيا والدفاع الغربى

ليس ثمة ريب فى أن شعوب العالم ينهشها اليوم خوف خاتل من نوائب حرب عالمية ثالثة • وليس ثمة ريب أيضا فى أن روسيا ازدادت جرأة فى امتحان عود الدول الغربية ، بعد أن مال اليها ميزان الحرب الباردة • ولكن تشرشل الذى لا يلقى الكلام على عواهنه ولا يدس رأسه فى الرمل كالنعامة ، كما يقولون ، ألقى خطبة منذ ستة أسابيع أو نحوها فى مجلس النواب البريطانى ، فقال فيها : ليست الحرب شيئا وشيكا ، ولا هى شىء لا مفر منه • ويغلب أن تشرشل ليس الرجل الوحيد بين أقطاب الغرب الذى يرى هذا الرأى • فقد عقد رؤساء أركان الحرب فى ميثاق الدفاع الأطلسى مؤتمرا عسكريا فى لاهاي ، فى اليوم الرابع من أبريل الماضى ، وهو العيد الأول لتوقيع الميثاق ، وليس من عادة العسكريين أن يعلنوا ما اتخذوه من قرار ، ولكن المقربين منهم والمطلعين على اتجاه فكرهم ، رووا أن البحث فى هذا المؤتمر دار على خمسة موضوعات أو ستة موضوعات ، قدمت على غيرها •

وفى طليعتها أن الزمن الذى يستغرقه انشاء قوة دفاع لا بأس بها ، فى الغرب ، قد يكون أربع سنوات أو خمسا ، وانه لا مفر لدول ميثاق الدفاع الأطلسى من أن تواجه ضرورة الفصل فى انشاء قوة حربية ألمانية تكون ركنا من أركان هذا الدفاع ، أو الحيلولة دون انشائها •

والرأى الأول — أن صدق ما روى عنه — دليل على أن رجال مؤتمر لاهاي يميلون الى الرأى الذى أعرب عنه تشرشل من أن

الحرب ليست شيئا وشيكا ، لأن من يرى الحرب وشيكة لا يبنى خطته على قوة دفاع يستغرق انشاؤها أربع سنوات أو خمس سنوات .
بيد أن الزمن ليس حليفا الا لمن ينتفع به . فذلك كان البت في تسليح ألمانيا حتى تشارك في الدفاع عن الغرب ، أو الامتناع عن تسليحها ، شيئا لا يستطيع ارجاؤه زمنا طويلا . وليس البت بالشئ الهين فللرايين كليهما مزايا ومساوئ ، لا بد من وزنها بميزان دقيق ، ولكنه أمر لا مفر منه ، وخيره عاجله ، لأن اتخاذ الأصول للخطط الغربية رهن به .

وأول اعتراض على تسليح ألمانيا هو الريبة التي لا تزال تساور بعضهم في قدرة الغرب أن يعتمد عليها . وقد قال أحد رجال السياسة : كيف نستطيع أن نطمئن ، اذا نشبت حرب مع روسيا ، الى أن ألمانيا الغربية لا تعتمد الى محالفة الروس ، في المراحل الأولى على الأقل ، عسى أن يوقئها ذلك ويلات القتال في أرضها اذا ما اندفع الروس الى السواحل الغربية .

على أن هذا الريب لا يساور جميع النفوس . فالذين يرون الآن ، أن الحرب مع روسيا شئ لا مفر منه ، وان لم يكن وشيكا ، لا يترددون في الموافقة على ضرورة تسليح ألمانيا ، وعلى المبادرة الى ذلك ، لأن التسليح ليس كلمة تقال ، فاذا القوة الحربية بين يديك ، بل يحتاج الى تنظيم الانتاج الصناعى وتنسيقه مع ما يقابله أو يكمله فى سائر أوربا الغربية ، كما يحتاج الى انشاء جيش وتدريبه .

وليس بين هؤلاء — على ما يروى المراسلون الثقاق — من يزعم أن القوات الغربية تستطيع أن تصد الجيوش الروسية وأحلافها ،

بغير معونة عدد غير يسير من الفرق الألمانية • وعند بعض الخبراء
الحريين أن التوفيق في تنفيذ الخطط الموضوعة لصد الروس عند
نهر الالب أو نهر الراين ، يتعذر بغير عشرين فرقة ألمانية الى ثلاثين
فرقة ، تضم الى القوات الغربية •

بيد أن هذا الرأي ، يثير مشكلة أخرى تتصل بمبادئ الحرب
الحديثة ، كما كشف عنها القتال في الحرب العالمية الثانية ، وهي
الشك في القدرة على الدفاع عن أى خط أنشئ للدفاع وحسب ،
سواء أكان نهرا كنهر الراين ، أم خط حصون كخط ماجينو
أو خط زيجفريد ، فقد أثبتت القوات المتفوقة في الجانبين ، أن
هذه الخطوط لا تعدو أن تكون عوائق وحسب ، فعل الألمان ذلك
في أيام تفوقهم في أوائل الحرب ، وفعله الروس في الشرق والحلفاء
في الغرب في أواخرها يوم كانوا متفوقين •

ثم هناك مشكلة ثالثة ، هي أدنى الى التقدير السياسى منها الى
التقدير الحربى ولبابها أن تسليح ألمانيا ، قد يفضى الى تعزيز قوة
الأحزاب الشيوعية والأحزاب المحايدة في دول الغرب ، وبخاصة
في فرنسا •

وخوف فرنسا من نهوض ألمانيا العسكرية مرة أخرى ، خوف
متأصل في تاريخها ونفس أهلها ، فاذا تعاضى عنه العسكريون ،
في لهفتهم على انشاء قوة دفاع وافية ، أتاحوا فرصة للحزب
الشيوعى الفرنسى ، لا يشك أحد في أن الحزب يحسن الانتفاع بها
لبذر بذور التمرد في القوات الفرنسية المسلحة • وقد شهدت فرنسا
في أوائل الحرب العالمية الثانية جماعة من دعاة ألمانيا فيها تبذر مثل
هذه البذور ، مع أن عددها ونظامها ، كانا أقل كثيرا من الحزب

الشيوعي الفرنسي وأتباعه اليوم • نعم ان التاريخ لا يعيد نفسه دائما ، ولكن الأحوال التى يخلق بالتاريخ أن يعيد نفسه فيها متماثلة فى الحالين ، ولا ريب فى قيامها اليوم •

ومن وراء هذا كله ، سؤال يمتد الى الأصول : كيف ينوى رجال الغرب أن يحدوا من التوسع السوفيتى ؟ فان مال رأى الى تحقيق ذلك بالوسائل السياسية ، دون الحرب ، فالمنطق يقضى بأن ينصرف معظم جهدهم الى توحيد أوروبا وأنصارها وراء المحيط ، فى كتلة تستطيع أن تصد الزحف الشيوعي • فاذا أقحم على هذا الاتجاه موضوع تسليح ألمانيا ، كانت عاقبته النكوص عن التقدم الذى تم فى سبيل هذا التوحيد • أما اذا مال رأى الى أن الحرب لا مفر منها ، فعليهم أن يقنعوا فرنسا وغيرها من دول أوروبا الغربية بأن تسليح ألمانيا شيء لا غنى عنه — وهو مهمة شاقة •

ويلوح الآن أن رجال الغرب لم يغلبوا رأيا على رأى تغلبا حاسما ، فهم يعززون قوتهم الحربية تعزيزا ، لا يزال حتى الآن وئيدا ، وهم يسرون فى سبيل التوحيد السياسى والاقتصادى ، برغم العقبات • ومن هنا تجد أن اقتراح بيدو بإنشاء مجلس أعلى لجماعة الأطلس له شأن عظيم • فهذا المجلس توكل اليه مهمة تنسيق الخطط السياسية والاقتصادية والحربية للجماعة الغربية ، وغرضه أن يعالج أثر مشروعات الدفاع فى اقتصاد الدول الأعضاء بعد أن ينتهى أجل مشروع مارشال ، وأن ييسر توثيق الصلة بين الجماعة الغربية وألمانيا الغربية ، توثيقا مطردا دون أن تقتصر هذه الصلة على الاستعانة بألمانيا فى شئون الدفاع ، وأن يمهد لبقاء الولايات المتحدة عضوا دائما فى الجماعة الغربية ، تمدها بنواح من قدرتها ،

وتوازن بوجودها فيها قيام ألمانيا ان استقر الرأى على ضرورة تسليحها فى حدود أو بغير حدود .

أعباء الدفاع والاقتصاد

منذ سنة أو نحوها ، بدأ هوفمان مدير مشروع مارشال يدعو دول المشروع الى توحيد اقتصادها . فالمشروع فى نظره قد حقق غرضه الأول فى مرحلته الأولى ، وهو النهوض بالانتاج الأوربى فى ميدانى الصناعة والزراعة ، فالتوحيد الاقتصادى والتنسيق ينبغى أن يكونا شعار المشروع فى مرحلته الثانية ، حتى تزول العوامل التى تبقى التبادل بين دول المشروع مصفدا بالاغلال ، وحتى يصبح اقتصادها اقتصاد رقعة كبيرة غنية أجزاؤها متكاملة لا متنافسة ، فيتدرج نموا وسعة ، ويصير أقدر على المنافسة فى الأسواق العالمية ، وتعدو شعوبها أوسع أملا وأعز .

والى هذا قصدت ، يوم كتبت فى هذا الباب مقال « مشروع مارشال فى مرحلته الثانية » (صفحة ٢٧٨ من هذا الكتاب) فقلت فيه : « لو لم يؤت المشروع ثمره فى مرحلته الأولى لما كان ثمة مرحلة ثانية يدور البحث من حولها ... كان تقدم زيادة الانتاج على السعى لادراك الوحدة ، شيئا لا مفر منه فى المرحلة الأولى ، ولو قدم السعى الى الوحدة على زيادة الانتاج لكان الأمر فوضى . فالناس فى حاجة الى العمل والقوت والكساء والمأوى ، فارهاقهم باتخاذ قرارات سياسية خطيرة تقتضى منهم تبديلا فى العادات المألوفة فى التجارة ، والآراء المتبعة فى السياسة ، والتقاليد المريعة فى منهج الحياة ، عمل يرهقهم ، وقد كان اتخاذها شاقا ان لم يكن

مستجيلا ، في أمم يوهنها الضعف الاقتصادي ، ويفرق بينها ،
أو بين طبقات الأمة الواحدة منها ، دعوة الدعاة الذين يجدون
الضعف الاقتصادي والاجماعى مرتعا لهم » .

فلما ظن هوفمان أن طريق الوحدة قد مهد بزيادة الانتاج ،
دعا اليها ، ولكن دعوته لم تلق في النفوس يومئذ صدى كان
يتوقعه . فكلمة الوحدة أو الاندماج (Intégration) لها رنة ووقع
ولكن رجال السياسة في أوروبا رأوها بعيدة عن حقيقة الحال .
فقد مضت قرون على أوروبا الغربية ، والسمة الغالبة على حياتها
هى العداء المستحكم بين ألمانيا وفرنسا ، وقد قام نظامها الاقتصادي
ونما وتشعب متأثرا به . فلما دعا هوفمان الى توحيد اقتصاد
الدول الأوروبية الغربية ، قال ساستها ليس الى ذلك سبيل ان لم
تعالج أولا أسباب الحروب بين الأوروبيين أنفسهم ثم بعد ذلك
قد يشرق نور الأمل .

فلذلك كان اقتراح شومان بأن ينشأ مجلس دولى أعلى
للاشراف على صناعتى الصلب والفحم في ألمانيا وفرنسا ، وأن
تضم اليه كل دولة أوروبية ترتضيه ، خطوة عسى أن تكون تاريخية
حقا . ومجال القول في هذا الاقتراح ذو سعة ، من نواحيه
السياسية والاقتصادية ، ولكن الذين يتوسمون خيرا فيه ، وهم
كثرون ، يرون أنه اذا حقق على وجهه الأولي مهد للقضاء على فوارق
اقتصادية كانت في طليعة الأسباب التى أفضت الى نشوب ثلاث
حروب بين فرنسا وألمانيا في بحر سبعين سنة ، والى عودة ألمانيا
الى جماعة الأمم ندا بين أنداد ، والى بدء التوحيد الحقيقى في
اقتصاد الدول الأوروبية الغربية ، والى تعزيز قدرة أوروبا الغربية

على النهوض بنصيبها في هذا النزاع العالمي .
وتحقيق مشروع شومان ، يقيم لألمانيا وفرنسا ، مصلحة
عظيمة تقضى رعايتها بضرورة الوحدة الاقتصادية . فلن يتاح
لأحد أن ينشئ وحدة أوربية غربية ، باصدار قرار وحسب ، بل
بالعمل على تحقيق « فكرة موحدة » . و « الفكرة الموحدة »
التي أسفرت عنها أحوال العالم بعد الحرب ، هي أن الرخاء
والسلام لا يتجزآن . فمشروع شومان قائم على انشاء مصلحة
مشتركة ، فاذا هي الخطوة التي تمهد للوحدة ، أو تكون هي
نفسها نواة الوحدة .

بيد أن الاقتصاد نفسه لن يمضى في طريق النهوض ان لم
تحس الشعوب بقسط من الطمأنينة على سلامتها وحسن قدرتها
على الدفاع . وقد كانت خطة الغرب في الحرب الباردة ترمى الى
غرضين ، النهوض باقتصاد أوروبا وتعزيز قدرتها على الدفاع
وكلاهما يستغرق مالا كثيرا ، ويستأثر بمجهود لا حد له ، وبين
مطالب النهوض ومطالب الدفاع ، شئ من التناقض أو المنافسة .
فكيف تستطيع أوروبا أن تنهض بالتزامات الدفاع التي أُلقيت اليها
بمقتضى ميثاق الدفاع الأطلسي ، دون أن ترهق اقتصادها الناهض
وتحد من نطاق المنافع الاجتماعية ؟

وتأمين الدفاع الغربى مشكلة ضخمة وععب باهظ . فاذا أريد
أن تجعل أوروبا الغربية منيعة وجب في أغلب الرأى ، أن ينظم
دفاعها وراء خط يمتد من أسفل النرويج الى ايطاليا ، وطوله ألفا
ميل أو نحوها . فالى الشرق من هذا الخط تقوم روسيا وآتباعها ،
وقدرتها الحربية على ما يروى كبيرة وليس في المنطقة الواقعة الى

الغرب من هذا الخط قوة حربية تستطيع اليوم أو في المستقبل القريب ، أن تصد اعتداء قد تهب ريحه من الشرق • وقد ظل الأوروبيون فترة ما يستشعرون الطمأنينة يوم كانت الولايات المتحدة تستأثر بالقنبلة الذرية ، وكان جيشها الصغير في منطقة احتلالها بألمانيا الغربية ، عربونا على أنها ودول أوروبا الغربية في مركب واحد •

فلما اجتمع أركان حرب الميثاق الأطلسي في لاهاي ، في ٤ أبريل الماضي اتفقوا على خطة عامة للدفاع الغربي ، أساسها على ما روى ، إنشاء قوة للدفاع قوامها خمسون فرقة ، وما يلحق بها ويلزمها من منشآت جوية وبحرية ، على أن يتم ذلك في سنة ١٩٥٣ ، وهي السنة التي تبلغ فيها قوة روسيا أوجها على حسب تقديرهم ورضيت الولايات المتحدة أن تشارك في تنفيذ هذه الخطة بما يكلفها ألف مليون دولار كل سنة ، فلما عرض المشروع على حكومات الدول قال وزراء مالياتها أنهم لا يستطيعون أن يوفروا المال اللازم لذلك دون أن يجعلوا اقتصادهم الناهض عرضة للخطر أو للتعثر على الأقل • فلم يكن بد من تدبر الأمر • وقد تدبروه في مؤتمرى لندن الأخيرين •

في مشروع مارشال قدمت مرحلة زيادة الانتاج ، على مرحلة السعى الى وحدة الاقتصاد ولكن الثانية صارت الآن مساوية على الأقل للأولى • وفي الخطة الغربية العامة ، قدم النهوض الاقتصادي ، على السعى الحثيث لتعزيز الدفاع • فلما عقد المؤتمران في لندن ، كانت الحاجة بادية الى العناية عناية خاصة بشئون الدفاع • فروسيا ماضية قدما في تسليحها والفرق الكبير بين قوتها وقوة

الدول الغربية الآن ، وكما يحتمل أن تكون في سنة ١٩٥٣ قضى على الدول الغربية بأن ترفع العناية بالدفاع الى المقال الأول ، أو أن تسوى بينها وبين العناية بالنهوض الاقتصادى على الأقل . فتشابكت بذلك أعباء الدفاع والاقتصاد حتى صارت وكأنها شىء واحد ، ينظر اليها وزراء الخارجية والدفاع ، فيرون تقديم ما يحتاجون اليه لتعزيز ايديهم في الحرب الباردة والتأهب للدفاع وينظر اليها وزراء المالية والتجارة والخدمات الاجتماعية فيروعههم أن ينفق من الدخل القومى ما هم في حاجة اليه لتوفير سلع الاستهلاك وضمان التأمين الاجتماعى وما أشبه .

والجماعة الأطلسية دول مستقلة ، فعلى كل منها أن توفق في داخلها بين مطالب هذا الفريق ومطالب ذلك ، وعليها جميعا أن توزع فيما بينها الأعباء الخاصة بالأمن والدفاع وفقا للخطة العامة التى تترتضيها ، ومن هنا كان انشاء اللجنة التى تتولى هذا العمل قرارا خطيرا وقد يكون تاريخيا ، فهى على ما وصفت « قيادة عامة » فى زمن السلم . وانشاء القيادة ليس كفيلا بحسن القيادة ، ولكنه خطوة لا بد منها والأشهر المقبلة وحدها تستطيع أن تنبئ بقيمتها أو عقمها .

قوة مشتركة متوازنة

هذه عبارة جديدة اقترحت معجم السياسة والصحافة فى هذا العهد ، فهى تأخذ من « القوة الحربية المتوازنة » صفة التوازن بين الأسلحة الثلاثة — الجيش والأسطول وسلاح الطيران ، وتأخذ من « السلامة المشتركة » صفة الاشتراك بين جماعة من الدول ،

تعد الاعتداء على احداها اعتداء عليها جميعا ، فاذا قدر لهذه العبارة أن تصبح اسما على مسمى ، نزلت في التاريخ علما على حدث من أخطر أحداث السلام في النصف الثاني من القرن العشرين .

يؤثر عن نبوليون العبرى الحربى قوله : « من لى بحلفاء أحاربهم » ، ومعناه واضح ، فالحلف العسكرى المؤلف من دول ذات سيادة ، عرضة لما يضعف قدرتها على القتال ، من خلاف بين القواد على مسائل الحرب الفنية ، الى خلاف بين الحكومات على شئون السياسة وما تطويه من أغراض يعسر البوح بها . وليس التمثيل على هذه الحقيقة بعسير ، لا فى الغرب ولا فى الشرق . ولكن شبح الهزيمة ، والقتال دائر الرحى ، يؤلف أو قد يؤلف بين العناصر المتنافرة . كذلك فعل الحلفاء الغربيون فى الحرب العالمية الأولى ، بعد أربع سنوات تقريبا من الخيبة ، فأسلموا فوش قيادتهم العامة فى الميدان الغربى قبيل نهاية الحرب وحسب . وقد استخرجوا العبرة مما كان فى تلك الحرب ، فاتفقوا على قيادة عامة للميدان الأوروبى قبل غزو أوربا فى يونيو من سنة ١٩٤٤ ، وكان ايزنهاور عبقرى تنسيق ، فوفق فى هذه الناحية من مهمته ، ومع ذلك تقرأ المذكرات التى كتبها هو وغيره من كبار القادة والساسة فترى أن الأمر لم يخل من وجوه خلاف قامت وراء ستار .

أفتستطيع جماعة كبيرة من الدول ذات السيادة ، أن تنشئ قيادة عامة فى زمن السلم ، وأن ترضى باندماج قوتها الحربية فى قوة حربية عامة ، فلا يكون لها عليها كل السلطان الذى هو صفة من صفات الدولة ذات السيادة ؟

هذا السؤال فى حد ذاته يبين خطر الشأن الذى يعلق بعبارة :

« قوة مشتركة متوازنة » التي جاء ذكرها في بيان صدر بعد
ارفضاض مؤتمر الدفاع الأطلسي •

فقد اجتمع هؤلاء الوزراء ليحاولوا أن ينشئوا في زمن السلام
« قوة مشتركة متوازنة » أجمع أهل الرأي على أن انشاءها شيء
لا غنى عنه لحفظ الكيان ان نشبت حرب عالمية ثالثة • ولكن
أسباب الهجوم قد بلغت اليوم من السرعة وقوة الأثر مبلغا لا يتيح
لجماعة من الحلفاء وقتا ما لانشاء تلك القوة بعد أن يبدأ القتال ،
كما فعل الحلفاء في الحرب العالمية الأولى بعد أربع سنوات ، وكما
فعل الحلفاء الغربيون قبل اقدامهم على غزو « قلعة أوروبا » في
الحرب العالمية الثانية •

وليس ثمة ريب في أن الجماعة الغربية تملك موارد وافرة ،
ولها قدرة عظيمة على الانتاج الصناعى ، ولأبنائها حذق لا يكاد
يجارى في أسباب الصناعة والحرب الحديثة ولكن هذه القوة
الكبيرة ان اجتمعت هى قوة ضعيفة في ميزان القوة العالمى لسببين :
أولهما ، أنها مبعثرة فوق مساحة واسعة من سطح الأرض تمتد
في أقصاها من ساحل أمريكا على المحيط الهادىء حيث شطر كبير
من صناعتها الى منطقة الرور في ألمانيا الغربية اذا أدخلنا ألمانيا
الغربية في الحساب • وثانيهما أن قوة كل دولة منهما منظمة على
أساس قومى فدول الميثاق اثنتا عشرة دولة واحدة منها ليس لها
قوة مسلحة هى اسلندا وأما البقية فلها احدى عشرة قوة مسلحة
كل منها قائمة بنفسها — أى لها أحد عشر جيشا وأحد عشر أسطولا
بحريا وأحد عشر سلاحا جويا فالمال الذى لا بد منه للاحتفاظ بهذه
القوات المتفرقة أكبر من المال الذى تحتاج اليه روسيا للاحتفاظ

بقوة واحدة تعدلها أو تفوقها .

فلما عقدت دول الميثاق مؤتمرها الأخير في لندن كانت قد اقتنعت بأنه لا مفر لها من أن تبذل مجهودا أكبر مما بذلت حتى الآن لتعزيز دفاعها ، وهذا يقتضى ، أول وهلة ، مبلغا أكبر من المال ومن المجهود الصناعى المنصرف اليوم الى زيادة الانتاج . وكانت قد اقتنعت أيضا بأن الحكمة والضرورة تقتضيان منها ، أن تعالج عناصر قدرتها الحربية حتى تقضى على هذين العاملين اللذين يضعفانها . فأقدم المؤتمر على اقتراح جرىء ، مؤلف من ثلاثة مبادئ : أولا انشاء لجنة دائمة وصفتها الصحف بأنها « القيادة العامة » . وهى لجنة أعضاؤها يمثلون وزراء الخارجية ، وليس بينهم عسكري واحد وان كان لها أن تنفع بأراء الخبراء العسكريين ، ولعل وصف اللجنة بأنها « مجلس ادارة » خير من وصفها بأن « قيادة عامة » ، فهمها أن تنوب عن وزراء الخارجية ، الذين يتعذر عليهم أن يجتمعوا أكثر من مرار قليلة فى العام ، وأن تتولى تنفيذ القرارات العامة التى يتخذها الوزراء ، فتطور شئون الدفاع تطورا سريعا ، وضرورة توزيع أعباء الاتفاق على شئون الدفاع ، والسهر على تنسيق الخطط الاقتصادية والحربية ، أشياء ليس فى الوسع أرجاؤها حتى يتاح لوزراء الخارجية أن يجتمعوا . وثانيا ، أوصى وزراء الخارجية بانشاء « قوة مشتركة متوازنة » ، لأن انشاءها خير وسيلة للانتفاع أجدى انتفاع بموارد الجماعة بأقل نفقة . وقد كان رأيهم أن احتفاظ كل دولة بقوة مسلحة مؤلفة من جيش وأسطول سلاح جوى ، قد أصبح فى هذا العصر ترفا عظيم الكلفة . وقل أن تجد دولة فى يومنا هذا تستطيع

أن تنشئ قوة دفاع كافية من الأسلحة الثلاثة في زمن السلم دون أن ترهق اقتصادها • وخير من ذلك أن تقتسم دول الميثاق « العمل » أو « الوظيفة » فتحصر كل منها عنايتها في تلك الناحية من « وظيفة » الدفاع التي تلائم وضعها الجغرافي ومواردها وتقاليدها وما أشبهه ، وتترك سائر وظائف الدفاع لغيرها من الجماعة •

وثالثا — ان الموارد المتاحة كافية لذلك التعزيز ، اذ أحسن تنسيقها فلا يخشى أن يتعرض اقتصاد الدول للخطر الذي يحاذره • أى أن التنسيق هو الشيء الذى قدم على غيره •

ولكن التنسيق متغلغل في أصول الجزء الثانى من المقترح الثلاثى • اذ من الواضح أنه اذا كان في الوسع اقناع فرنسا بالتخصص في وظيفة الدفاع البرى ، وبريطانيا في وظيفة انتاج المقاتلات والقاذفات المتوسطة والأسلحة البحرية الخفيفة ، والولايات المتحدة بالتخصص في وظيفة القوة القاذفة البعيدة المدى والقوة البحرية الضخمة ، كان في وسعها جميعا أن تنشئ « قوة مشتركة متوازنة » بكلفة أقل من كلفة ثلاث قوات بريطانية وفرنسية وأمريكية تعنى كل منها بأن تجمع الأسلحة الثلاثة في أنواعها ، فلا تكاد تتفوق في أحدها •

ولكن هذا الاتفاق لن يتم الا بعد أن ترضى الحكومات الثلاث بالنزول عن بعض سيادتها في سبيل انشاء القوة المشتركة وادارتها ، والا بعد أن تستوثق دول — كفرنسا مثلاً — من أن « القوة المشتركة المتوازنة » قائمة حقا للدفاع فالصدمة الأولى سوف تحل بها ، فهي لن تكتفى بانشاء جيش برى ولن ترضى أن تستغنى عن مقاتلات أو قاذفات أو طرادات ، الا على هذا الأساس •

وليس ثمة ريب في أن العقبات كثيرة ، ولكن مبدأ (القوة المشتركة المتوازنة) وما قد يعقب تطبيقه من تمهيد لوحدة حقيقية ، يستهوى النفس والعقل وغريزة حفظ الكيان ويستحق التضحية بشيء من السيادة لتحقيقه ، فهو الطبعة المنقحة التي يصدرها العصر الصناعي لتلك القصة القديمة : « قصة العيدان المتفرقة والمجتمعة » .

أسبانيا في الميزان

في دوائر الأمم المتحدة خلاف لا يزال قائما على منزلة أسبانيا من الناحية السياسية ، ولكن لا خلاف بين أهل النظر الحربى على أصول منزلتها الحربية .

فقد أفرغت الطبيعة أسبانيا في قالب يجعلها قاعدة حربية من الطبقة الأولى — جبال شم بينها وبين فرنسا تقوم عقبة كأداء في وجه كل غاز من الشمال الشرقى ، وجبال كالحة في رقعتها الفسيحة تصلح حمى لقواعد الطائرات في سهولها ونجودها ، وساحل يسيطر من الجنوب على المدخل الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، وثغور وأجوان على المحيط الأطلسى تشوب إليها الغواصات أو السفن التى تقاوم الغواصات ، فاذا ازدادت الطرق الممهدة فيها ، وكثرت المطارات ، ووسعت المرافىء ، واستنبطت القلزات الحربية الثمينة ، صارت أسبانيا ذات شأن لا يسهل اهماله في خطط الدفاع الأطلسى .

ولكن نظام الحكم فى أسبانيا لم يزل يثير خلافا شديدا بين رجال السياسة . فقد استتب الحكم لفرانكو وجماعته فى أسبانيا على أثر ثورة على نظام الحكم الشرعى القائم يومئذ ، وبعد حرب أهلية

دامية • وقد استتب لهم بمعونة إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية •
أما فرنسا وبريطانيا فقد وقفنا يومئذ موقف عدم التدخل ،
وأما موسكو فأيدت الحكومة الجمهورية تأييدا جعله البعد
غير مجد جدوى كبيرة ، وفي أثناء الحرب بذلت أسبانيا لألمانيا عوناً
غير يسير ، وأرسلت « الفيلق الأزرق » للقتال مع الجيوش الألمانية
في روسيا ، ولا تزال أرضها — على ما يروى — تضم عدداً غير
قليل من زعماء الفاشية الأوروبية ، أما الحكم نفسه فنظامه وأسلوبه
هما النظام والأسلوب المتبعان في الدول الدكتاتورية •

فلما عقد مؤتمر بوتسدام في سنة ١٩٤٥ اتفق أعضاؤه على
إهمال دعوة أسبانيا إلى الانتظام في الأمم المتحدة ، وأصدر المؤتمر
بيانا ندد فيه « بأصول الحكم القائم في أسبانيا ، وطبيعته ومشاركته
الوثيقة للدول المعتدية » ، وفي سنة ١٩٤٧ عرض موضوع أسبانيا
على مجلس الأمن فأحيل إلى لجنة فرعية أعضاؤها من الدول
الصغيرة ، فأوصت بالاجماع بأن تفصم الدول أعضاء الأمم
المتحدة صلاتها السياسية بفرانكو ، ولكن المجلس خفف توصية
اللجنة الفرعية بإضافة العبارة التالية : « أو باتخاذ أى عمل تراه
الجمعية العمومية » فأوصت الجمعية العمومية بسحب السفراء
والوزراء المفوضين من مدريد وكفى ، فلما اقترح مشروع مارشال
ونفذ لم تدع أسبانيا للمشاركة فيه •

هذه هي المآخذ التي جعلت أسبانيا حتى اليوم أشبه شيء بالدولة
المعزولة • ولكن سير الحرب الباردة ، وضرورات التأهب للدفاع
عن أوروبا ، وما لأسبانيا من المنزلة الحرة أفضت جميعها إلى إعادة
النظر في كل هذا •

فالذين أرادوا إلغاء توصية الجمعية العمومية وضم أسبانيا الى جماعة مشروع مارشال وكتلة الدفاع الأطلسي ، يقولون : اذا كان الحائل دون ذلك هو أن استئناف الصلات السياسية الكاملة يعنى الموافقة الأدبية على نظام الحكم القائم فى أسبانيا ، فكيف يفسر الاعتراف التام والتبادل الدبلوماسى الكامل بين دول الغرب وروسيا السوفيتية أو الأرجنتين وغيرهما ، وعلى كل حال فتبادل التمثيل السياسى لا يطوى معنى الموافقة أو الاستنكار لنظام الحكم فى دولة ما •

واذا كان الحائل هو موقف أسبانيا فى أثناء الحرب العالمية الثانية، فتشرشل نفسه صرح فى مجلس النواب البريطانى فى سنة ١٩٤٤ «لو أذعنت أسبانيا لضغط ألمانيا لما كان ثمة ريب فى ازدياد متاعبنا ، وقد كانت أسبانيا أقدر ما تكون على إلحاق الأذى بنا قبيل نزول قواتنا فى شمال أفريقية الغربى » ، وفى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ : « أبت أسبانيا أن تيسر حركة الألمان للاستيلاء على جبل طارق ودخول افريقية » ويقول من عداه « ان أسبانيا على تعاونها مع ألمانيا وإيطاليا فى أثناء الحرب ، لم تجعل تعاونها معها يوما ما كمثل تعاون روسيا مع ألمانيا فقد اتصل من أغسطس ١٩٣٩ الى يونيو ١٩٤١ يوم أمر هتلر بغزو روسيا » •

وقد سئل تشرشل لم وافق فى بوتسدام على إهمال دعوة أسبانيا للانتظام فى الأمم المتحدة فقال : « انه فعل لأنه رجا أن يستدرج روسيا لتبذل للأمم المتحدة تأييدها الودى الكريم » ، واستقصى بعضهم سبب الحيولة بينها وبين مشروع مارشال فظهر أن إقصاءها انما أريد لإغراء روسيا وتوابعها بالاشتراك فيه ،

فلم تشترك روسيا وثنت توابعها عن الاشتراك •
وفي خريف ١٩٤٨ سرت في أروقة الأمم المتحدة بباريس شائعة
بأن مارشال — وزير خارجية الولايات المتحدة — اقترح على بينن
وشومان ، أن يمهد لأسبانيا طريق الانضمام الى جماعة الدول
الغربية ، وبادرت طائفة من دول أمريكا اللاتينية — وصلتها
التاريخية والأدبية بأسبانيا هي ما هي — الى الترويج لهذا الرأى ،
فأحدث ذلك ضجة ، وأصدر مارشال بيانا قال فيه أن حكومته
غير راضية عن توصية المقاطعة ولكنها لم تبذل سعيًا لتغييرها •
وكتب السنيور ده مدراياجا الدبلوماسى والأديب الأسباني، رسالة
مفتوحة الى الدول الغربية حذرهما فيها من الاغترار بالمزاي الحربية
التي تتيحها لها أسبانيا ، فاذا انقادت للاغترار بها فقدت ولاء كثيرين
من أحرار أوروبا لها • فرد عليه من قال : « في أسبانيا اليوم قسط
من الحرية أوفر مما تجده وراء الستار الحديدي » •

وقد تجدد السعى لالغاء توصية الجمعية العمومية في مايو
سنة ١٩٤٩ يوم عقدت دورة خاصة ، فلم يصب نجاحا ، ثم أعاد
أنصاره الكرة في الدورة الحالية^(١) •

ذلك أن في دوائر الغرب استغرابا أن تظل أشد الدول مقاومة
للشيوعية ، في عزلة عن الجماعة التي تخوض غمار الحرب الباردة
لمقاومة الشيوعية ، وأن أسبانيا — كإيطاليا على الأقل — لا غنى
عنها لنجاح مشروع مارشال أو للظفر في الحرب الباردة ،
أو الحامية — ان نشبت •

بيد أن التسليم بقيمة أسبانيا الحربية ينبغى أن لا ينطوى على

(١) وافقت عليه الجمعية العمومية بعد نشر هذا المقال •

نية التفهقر عن أوروبا الغربية اذا عمد السوفيت الى الهجوم ، عسى أن تحشد في أسبانيا قوة تجليهم ، كما أجلت الألمان قوة نزلت في نورماندى . فاذا كان ذلك ، كان كالمعول يهدم ثقة أوروبا الغربية ، ويحبط سعيها للوحدة ولانشاء قوة تشترك مع القوة الأمريكية في الدفاع ، فليس في أوروبا من يجب أن يتصور احتلالا آخر فبلاء جلاء بعد بلاء الاحتلال .

بين العزم والقدرة

حزم العزم على مقاومة العدوان شيء لا غنى عنه للأمة أو للجماعة التى تأبى الخضوع للقوة أو للتهديد بها ، ولكن حزم العزم وحده غير مجد ان لم تؤيده قوة مادية كافية تفسح أمام المقاومة أمل التوفيق ، فمن حزم أمره على الغاية ، لم يكن له مفر من أن يحزم أمره على الوساطة أيضا . وفى هذا المبدأ العام تستقر مشكلة الدفاع الغربى اليوم .

أغلب رأى أن الدول الغربية قد حزمت عزمها على مقاومة العدوان الشيوعى حتى لا تنحدر رويدا رويدا فى طريق التسليم ، ولو شاءت أن تهدأه لما وجدت حادثا خيرا من حادث كوريا تهدأه فيه — أرضها بعيدة ، ومنزلتها الحربية فى صراع عالمى ليست بذات خطر عظيم ، والدفاع عنها فيه شيء متعذر ، ومحاربة فريق من شعبها عرضة لتأويلات شتى تحنق الشعوب الآسيوية ، والقوات المتاحة قليلة ، وحشدها فى الميدان البعيد يكشف أماكن أخرى لا غنى عن حمايتها .

ولكن بين عزمها وقدرتها البادية بون شاسع .

بسط تشرشل في مجلس النواب البريطاني ما يعرفه عن القوة السوفيتية المسلحة بالقياس الى قوة الوحدة العربية — أو الضعف الغربى : ١٧٥ فرقة سوفيتية مقابل ١٢ فرقة و ٤٠٠٠٠ دبابة مقابل بضع مئات ، و ١٩٠٠٠ طائرة مقابل بضعة ألوف وأسطول غواصات أقوى من أسطول الغواصات في عهد هتلر ، مقابل قوة بحرية لم تزل تخفض منذ نهاية الحرب . فهو يرى أن تأهب دول الوحدة الغربية للذود عن نفسها اذا قيس بالقوة السوفيتية ، كان أضعف من تأهب كوريا الجنوبية بالقياس الى قوة كوريا الشمالية . وصفوة حسابه أن ليس في أوروبا الغربية الى الشرق من المانش قوة دفاع تذكر ، وان انجلترا نفسها عرضة اليوم لخطر أعظم من خطر سنة ١٩٤٠ في أحلك أيامها .

وقد تقول أن في تقدير تشرشل شيئا من المبالغة ، لأنه أراد أن يجعل النذير أقوى ما يكون النذير ، ولكن رجال الغرب يعلمون أن تشرشل أنذر قبل الحرب العالمية الثانية ، وقل من أصغى الى نذيره يومئذ ، ثم صدق قوله . والدوائر الغربية ترى أن القوة المسلحة السوفيتية ، تفوق قوة الغرب سبعة أضعاف على الاجمال ، اذا استثنينا القنبلة الذرية .

ومن هنا ما تراه من اهتمام دول الميثاق الأطلسى بسد الثغرة الفاعرة بين العزم والقدرة ، ثم بين قوة الكتلتين . وأول مظاهرها زيادة المبالغ التى أرصدها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا للتسلح ، وقرار مجلس الميثاق الأطلسى أن ينشئ جيشا موحدا في أوروبا ، وعزم الولايات المتحدة أن تزيد قوتها المرابطة في ألمانيا الغربية — وأخيرا تحول موقف الدول الغربية

الكبيرة بعض الشيء من ألمانيا ولو شاءت موسكو أن تنظر بمقياس
تقيس به أثر سياستها في الكتلة الغربية لكان حسبها أن تنظر الى
حادث كوريا ثم الى مدى التغير الذى طرأ على موقف الغرب ،
ولاسيما فرنسا من ألمانيا ، فهو أدل .

قد يكون من التماذى فى الوهم أن يظن ظان أن فرنسا قد
اطرحت مخاوفها من ألمانيا ، ولكن من البين أن مخاوف اليوم من
الاتحاد السوفيتى وأتباعه ، غالبية على مخاوف الغد من تجدد
قدرة ألمانيا الصناعية والحربية .

والعالم الغربى يواجه خطرا فى أى الطريقين سار ، ولكنه يميل ،
وقد تكشف نية موسكو وان لم تنكشف خطتها ، الى تفضيل
الخطر الذى يخشاه من نهضة ألمانيا الصناعية والعسكرية ، عسى
أن يكون أهون الخطرين ، وعسى أن يكون للزمن المتغير أثره
فى ضبطه وتحويله عن مسراه المعهود .

ومن يظن أنه فى الوسع ابقاء ألمانيا مهيضة الجناح ملتصقة
بالرغام ، صناعا وسياسيا وعسكريا ، يجهل طبائع الشعوب وينكر
عبر التاريخ ، فالحرص على انهاضها هو حرص على مواجهة
الواقع ، وان كان هذا الحرص اليوم هو على الأكثر وليد الخطر
المتبدى على الأفق الشرقى .

هذا النهوض ركن من أركان الأمن الغربى المنشود ، ولكنه
مع ذلك خليف أن يكون خطرا — فقد تتخذ موسكو عذرا
للهجوم على أوروبا الغربية العاجزة عن الدفاع اليوم ، ولن تتوانى
موسكو عن الانتفاع به فى دعايتها فتصفه بأنه انتهاك للاتفاقات التى
عقدت بعد الحرب ، ووسيلة يتخذها مثيرو الحروب لقضاء مآربهم ،

وقد ترتضيه الحكومة الفرنسية في حدود ويسايرها فريق من الأمة ،
ولكن النقر على الأوتار القديمة الحساسة قد يثير فريقا كبيرا آخر
من الفرنسيين فتنقسم الأمة بعضها على بعض • ومهما يكن من أمر
فلا بد من حل هذه المسألة حتى تجدى الجهود التي تبذلها الدول
العربية خير جدواها •

أفى الزمن فسحة كافية ؟

يرى بعض أهل رأى أن التأهب الصناعى فى الاتحاد السوفيتى
الذى لم يبلغ غايته بعد ، وخشية القنابل الذرية الأمريكية ،
قد يصرفان حكومته اليوم وفى المستقبل القريب عن عمل خليق
أن ينقلب حربا عالمية •

كان غرض روسيا منذ أواخر الحرب الماضية ، أن توزع
صناعاتها الثقيلة حتى تصير فى مأمن أو ما يشبه المأمن من القذف
الجوى المركز بالقنابل الذرية أو غيرها ، فاستقر رأى على نقل
مركز هذه الصناعات من أوقرانيا وأسفل نهر الدون الى منطقة
الأورال وشرعوا فى تنفيذه على نطاق واسع فى سنة ١٩٤٤ • ولكن
مناجم الحديد تكثر فى منطقة ، ومناجم الفحم تكثر فى منطقة أخرى
تبعد عنها ١٥٠٠ ميل فاقتضى الانتفاع بموارد المنطقتين انشاء وسائل
لنقل ، تكفل نقل ركاز الحديد الى منطقة الفحم ، ونقل الفحم الى
منطقة الحديد ، فتصبح كل منهما مركزا للصناعات الثقيلة تشبه
منطقة الرور فى غرب ألمانيا ، وانشأوهما بجميع ما يلزمهما من
وسائل النقل والصناعة ليس شيئا ميسرا فى سنوات قلال ، ويغلب
أن تصبحا قادرتين على انتاج يذكر ، بعد سنتين أو ثلاث سنوات
على الأقل •

فاذا أضفت الى هذا ، أن الولايات المتحدة متفوقة الآن على الاتحاد السوفيتى فى ما جمعته من القنابل الذرية ، علمت لم يرى بعضهم أن أمام العالم فترة من التأهب المحموم قد يملؤها الاتحاد السوفيتى بالحوادث على مثال كوريا ، ليستنزف قوة الدول الغربية واقتصادها ، وينبغى للمغرب أن يجعلها حافلة بالمساعى للنهوض من هوة ضعفه حتى يتلاقى العزم والقدرة، ويومئذ يستطيع — فى رأى تشرشل — أن يفاوض الاتحاد السوفيتى عن قوة لا عن ضعف ، واذا توسل بالانصاف وحسن التقدير فقد ينتهى معه الى تسوية سليمة — تدوم الى حين .

الجماعم والحدود

لم يزل انشاء « الوحدة الأوروبية » أمنية يتعلق بها خيال الشعراء والكتاب والساسة ، من داتنى فى القرن الرابع عشر الى أريستيد بريان فى القرن العشرين . وقد اشتدت الدعوة الى تحقيقها فى القرن التاسع عشر ، وكان مازينى وجاريبالدى الايطاليان وفكتور هوجو الفرنسى أبلغ الدعاة وأجهرهم صوتا . وقد كتب هوجو ، على أثر الحرب البروسية الفرنسية ، كلمة كانت كأنها صيحة صاعدة من أعماق القلب ، قال : « سأهدم حصونى ، فاهدم حصونك . تأرى ، ما تأرى ، انه الاخاء . ولتمح الحدود ، وليكن نهر الرين لنا جميعا ، ولننشئ الولايات المتحدة الأوروبية . . . » فالشعوب الأوروبية فى نظر هؤلاء أفراد أسرة واحدة من البشر ، وورثة ثقافة مشتركة ، وتنافرهم يدفعهم الى حرب تلو حرب ، المنتصر فيها من الخاسرين . ولكن بروسيا تعاضم جبروتها فباعت

الدعوة بالخسران ، ثم استعرت نار الحرب العالمية الأولى • ولم تكد تنقضى أربع سنوات على نهايتها حتى هب أريستيد بريان يدعو الى اتحاد أوروبا ، وكان شعاره « اتحدوا تحيوا ويطيب عيشكم » ، وقد حذر أوروبا يومئذ من عواقب الامتناع عن الاتحاد ، قال : ليس الاتحاد شيئاً لا غنى عنه في طلب الرخاء وحسب ، بل هو شيء لا غنى عنه لحفظ الكيان • وقد عضده شريف نمسوى ، أمه يابانية ، فوقف حياته وماله على هذه الدعوة ، فاجتمعت مؤتمرات متلاحقة في فينا ١٩٢٦ وبرلين ١٩٣٠ وبال ١٩٣٢ ، ولم يكن الوافدون عليها رجالاً من أهل الخيال ، بل كانوا رجالاً لهم مكاتتهم في الحياة العامة ، وقد أيدهم تشرشل برسالة قال فيها : « ان قيام ولايات متحدة في أوروبا فكرة صائبة ، فتيسير تبادل المنافع بين بلاد أوروبا خليف أن يفضى الى خير الناس جميعاً » • ولا يزال تشرشل في طليعة الدعاة الى هذه الوحدة ، وآخر كلمة قالها في ستراسبورج في شهر أغسطس الماضي (١٩٤٩) : ان لم تتحدوا فالهلاك لكم بالمرصاد • وهى تذكر بكلمة بريان ، ولعلها منحدرة منها •

ولكن أصحاب المصالح رموا الفكرة — يومئذ — بأنها خيال ووهم ، فلما مات بريان في سنة ١٩٣٢ وتقلد هتلر زمام الريخ الثالث في سنة ١٩٣٣ ، ونادى بمبدأ « الشعب السيد المختار » خبت الدعوة ، وظلت تحت رماد ، الى أن تفضه تشرشل عنها في سنة ١٩٤٣ فدعا الى انشاء مجلس أوروبا ليكون أحد العمد التى تقوم عليها الحياة الدولية بعد الحرب • ولم تزل هذه الدعوة تتجلى وتنتشر حتى صارت اليوم أدنى قليلاً الى الحقيقة ، بقيام مجلس أوروبا •

ولكن لا تتوقع تحقيقها كاملة في غدك القريب على الرغم من الدستور الذى وضع ، والمجلس الذى عقد دورته الأولى ، فربما استغرق ذلك عشر سنوات أو عشرين ، أو جيلا كاملا ، فرجال الحكم فى غرب أوروبا ، لا يرون كيف يستطيعون أن يسيروا الى غرضهم ، بغير الخطى الوئيدة التى يخطونها الآن ، وان كان ممثلو الشعوب — لا الحكومات — يستحثونهم ويطالبونهم بالمبادرة دون الونى .

والاتحاد ، اذا تم تمامه ، جعل دول أوروبا الغربية دولة اتحادية — كالولايات المتحدة الأمريكية — ذات حكومة اتحادية مركزية ، لها صفة السيادة ، أما الدول الداخلة فيها فتحتفظ كل منها باستقلالها الذاتى ، فى الحدود التى يعينها الدستور .

ولا تجد فى أوروبا اليوم ، رجلا من رجال الحكم ، يقدر أن قيام مثل هذا الاتحاد ، شئ ممكن قبل زمن طويل ، بيد أنك لن تجد واحدا منهم ينكر أن الضرورة تقضى بابقاء هذا الهدف البعيد نصب العيون .

وليس ثمة ريب فى أن العقبات كثيرة . فهذه طائفة من الدول لم تزل منذ خمسة قرون مستمسكة بنزعاتها القومية الجائحة ، وهى درجات متفاوتة فيما أدركته من الديمقراطية السياسية ، وليس لها نظام اقتصادى واحد ، ولا نظام حربى واحد ، مع أنها شهدت فى السنوات الأخيرة ، تقدما يسيرا فى تنسيق خططها الاقتصادية والحربية . فتدمير الأسس التى قامت عليها الحياة القومية ، فى كل منها منذ قرون ، حتى يحل محلها بناء جديد شامل ، يقتضى معجزات من دقة الادراك وفضيلتى الصبر وحسن الظن ،

وضرورة تدريب رجال الحكم في جميع طبقاته على أصول جديدة من الشعور والتفكير والعمل ، وليس هذا شيئا ميسورا يتقبله الطبع البشرى دفعة واحدة في زمن قصير .

وكل من تتبع أعمال هؤلاء الراغبين في الوحدة الأوروبية ، يعلم أنهم قد اختلفوا في كل مرحلة عبروها . فقد كانت فرنسا — مثلا — تؤثر أن تقوم الجمعية الأوروبية أولا لتكون صوت أوروبا المتحدة ، على غرار ما اقترحه المؤتمر الذي عقده في لاهاي منذ نحو سنتين ، دعاة الوحدة الأوروبية من ممثلى الشعوب . ولكن بريطانيا خشيت أن تكون هذه الجمعية صوتا وحسب ، وأن تتسع جناباتها للخطب دون العمل ، وأن تغرى الشعوب الأوروبية فتتوهم أنها قد توحدت حقا ، برغم العقبات الكثيرة التى ينبغى تذليلها قبل أن تصير الوحدة مستطاعة . فرأى بيفن أنه خير وأفضل أن تنشأ هيئة تمثل الحكومات ، فهى التى تملك أن تقرر وأن تنفذ ، وبعد مناقشة دامت شهورا انتهوا الى اقتراح انشاء « مجلس أوروبا » ، المؤلف من لجنة الوزراء (ممثلى الحكومات) والجمعية الأوروبية (ممثلة الشعوب) .

كتب تشرشل منذ ثلاث سنوات تقريبا فى مقال عنوانه « طريق المستقبل » : « قالوا قديما ان أسيرا أسبانيا ظل سنين يذوى ويذوب حينما الى الحرية ، وفى ذات يوم دفع الباب فانفتح ، فقد كان مفتوحا لم يوصد قط ، فخرج حرا طليقا ، وشعوب أوروبا اليوم أمامها فرصة كمثل هذه الفرصة . . . نفضة واحدة من العزم ، واذا باب السجن ينفتح على مصراعيه ، فيخرج الأسرى الى الشمس المشرقة » .

وتشرشل كاتب ألمع ، يصور بالألفاظ كما يصور بريشته

مشاهد تأخذ العين وتبهر النفس ، ولكن الشيء الثابت الخطير في حركة الوحدة الأوروبية اليوم ، هو أن غرب أوروبا قد بدأ يسير نحو الهدف ، وإن كان الهدف لا يزال بعيدا . ومجلس أوروبا بهذا الوصف شيء يقتضيه التاريخ ، وتدعو اليه الضرورة ، فهو أحد الأركان الثلاثة التي يقوم عليها تنظيم الجماعة الغربية من الدول ، أما الركنان الآخران فهما مشروع مارشال وميثاق الدفاع الأطلسي . ولكن ما هو « مجلس أوروبا » ؟

وضع دستوره ووقع منذ ثمانية أشهر ، بالاتفاق بين عشر دول أوروبية ، هي أرنلدة وإيطاليا وبريطانيا وبلجيكا والدنمارك والسويد وفرنسا ولكسمبورج والنرويج وهولندا^(١) ، وغرضه : « السعي الى الظفر بقدر أكبر من الوحدة بينها لحماية المثل والمبادئ التي تعد تراثها المشترك ، ولتحقيق تلك المثل والمبادئ ، ولتيسير تقدمها الاقتصادي والاجتماعي » .

وهو فرعان : لجنة الوزراء ، تضم ممثلا من حكومة كل دولة ، ويغلب أو يحسن أن يكون وزير الخارجية ، والجمعية العمومية ، وهي تضم ممثلين لشعب كل دولة يتفاوت عددهم بتفاوت تعداد الشعب .

وقد جاء دستور المجلس وسطا بين رأيين : فالفريق الأول يرى ، أن خير المساعي للتعاون الأوروبي في شئون الدفاع والاقتصاد ووضع الخطط العامة ، تتم في مجالس ولجان أوروبية قائمة ، وقلما تذاع أخبارها ، وهو يشك في نفع برلمان أوربي يفسح فيه المجال للخطب الرنانة ، والأخذ والرد في مسائل تختلف فيها الآراء

(١) ضمت اليها في الدورة الأولى تركيا واليونان واسلندا

والمذاهب أو لا تجتمع عليها ، وتحرك في النفوس آملا يشق تحقيقها . وكان أصحاب الرأي الآخر يطلبون مجلسا أوربيا ينتزع السلطان رويدا رويدا من الحكومات الأوربية القومية ، فيناقش أعضاؤه جميع المسائل التي تهم أوربا عامة ، ثم يصدرون أحكاما فيها ، أى أنهم كانوا يطلبون أن يسيروا سيرا حثيثا الى انشاء حكومة أوربية ، تنزل لها الحكومات القومية عن بعض سيادتها على الأقل . فجاء الدستور الذي وضع لمجلس أوربا وسطا بين الرأيين فأنشئت الجمعية العمومية ولكن ليس لها سلطان ، بل لا يحق لها أن تتناقش في شؤون الدفاع ، ولا يحسن بها أن تتناقش في الشؤون الاقتصادية التي تعالجها هيئات دولية أخرى ، منها مكتب التعاون الاقتصادي الأوربي . ولا تنفذ توصيات الجمعية العمومية الا اذا أقرتها لجنة الوزراء ، ولهذه اللجنة أن ترفض احداها أو ترفضها جميعا .

وقد دلت المناقشات التي دارت في الجمعية الأوربية في ستراسبورج ، أن هناك خلافا غير يسير في الرأي بين جماعات أعضائها ، ولكن هذا الاختلاف في الرأي لم يعن أن الجمعية كانت عرضة لتذهب مع الريح منذ أيامها الأولى . فالقوى التي تقرب بين دولها ، أقوى كثيرا من الخلاف بينها . فهم جميعا يخشون التوسع السوفيتي والتغلغل الشيوعي المدمر ، وهي يعتقدون أن المستقبل للدول الكبيرة ، وأن الدولة الأوربية التي يريدونها ينبغي أن تكون احداها ، وهم جميعا يرجون أن تعود ألمانيا عضوا في العشيرة الأوربية، تشد من أزرها راضية عن منزلتها فيها، وقل أن تجد بينهم من لا يذهب الى أن التكتل على وجه متسق أكفل بالرخاء .

ان مجال القول في مجلس أوربا ، وما يرجى أن يصنع ، وما يخشى أن يهمل لذو سعة • ولكن من كان يجرؤ منذ سنتين أو أقل قليلا ، يوم كانت الوحدة الأوربية ، في مرحلتها الجديدة ، قاصرة على اجتماعات شعبية في لاهاي أو غيرها ، أن يعتقد أن تلك الحركة سوف تقضى بعد قليل الى دستور ، مهما تكن القيود التي فرضها على لجنة الوزراء والجمعية العمومية ، فانه ولا ريب دستور فيه عناصر حياة أوربية أفضل •

فاذا أحس المجلس دعوة التاريخ ، وارتفع الى مستواها ، في حماسة تقيدها الفطنة وتفكير محكم دقيق لا يطفىء من جذوة النزوع الى المثل العالي ، فهو خليك أن يكون نواة لهيئة أوربية تنضوى تحت لوائها قوى أوربا المنبعثة المتطلعة الى آفاق واسعة بعيدة من التعاون المطرد على الانشاء والاصلاح •

منذ عهد قريب وقف فلاح بلجيكي في سهل واترلو ، وكان القمح عاليا غزير النمو ، فقال : كيف لا يكون كذلك وقد تغذى بالدم ، فالدم البشري خير سماد ••• وهأنذا أقف هنا أفكر في الدم الذي سفك في هذا السهل ، وفي كل شهر يقع أحدنا على جمجمة وهو يحرق أرضه — جمجمة فرنسي أو بريطاني أو بروسي أو بلجيكي أو هولندي ••• أنظر شرقا وشمالا وجنوبا وأقول : ما أسخف الحدود التي تفصل هذه الأمم ••• ان الجماجم لا تعرف شيئا عن الحدود •

هكذا قال الفلاح البلجيكي ، بلسان الانسان الأوربي • فالمستقبل خير لجميع الذين يقولون هذا القول ، ان تعاونوا ، وحرب عليهم وهلاك ، ان ظلوا شيعا متفرقة •

الميزان المضطرب

١٩٦٠

الميزان المضطرب

الخطة القومية لأمة ما في هذا العصر هي خطة تندمج فيها عناصر الصلات السياسية ، وحقائق الموقع الجغرافي ، وعدد الأيدي العاملة ، والقدرة الصناعية والقوة المسلحة وما تواضعوا على وصفه بلفظي « الحزب النفسية » والدعاية احدى وسائلها •

فاذا نظرت الى الجماعتين المتناظرتين في الميدان العالمى اليوم ، على ضوء هذا التعريف لأصول « الخطة القومية » تبين أن لخطة الجماعة الشرقية التى تديرها موسكو ، من الموقع الجغرافى ووفرة الأيدي العاملة واحتشاد القوة المسلحة والتوسل بالشيوعية وأحزابها فى حلبة الحرب النفسية والسياسية ، مزايا كبيرة • فالقوة الحربية التى احتشدت وأحكم توزيعها فى رقعة مترامية من سطح الأرض ، تيسر لأصحابها أن يدفعوها فى جهات شتى ، ان هدامهم تقديرهم الى ترجيح النفع الذى ينالونه على الخطر الذى يصيرون عرضة له • ولو بسطت خريطة العالم أمامك ، ونظرت اليها من مكان تتخذة لنفسك بالتخيل ، فى موسكو ، لوجدت أن الأخذ بالتقدير العسكرى وحده يمهّد لأصحاب هذه القوة المسلحة ،

✽ بعد الفراغ من اعداد فصول هذا الكتاب كتب هذا الفصل ونشر

فى « مجلة المشاة » عدد فبراير ١٩٥١ •

أن يغزوا بها الآن بغير مقاومة تذكر ، البلاد الإسكندنافية أو أوروبا الغربية أو يوغسلافيا واليونان أو الشرق الأوسط أو اليابان أو جميعها في آن .

والتقدير المقبول عند خبراء الحرب في الغرب ، لهذه القوة ، قائم على أنها تشمل مئة وسبعين فرقة روسية عاملة الآن ، تضاف إليها قوات الدول التي تدور في فلكها ، وتسعة عشر ألف طائرة وأربعون ألف دبابة ، وما يتبعها من الأسلحة الحديثة كالقاذف الموجهة ، وأن في الوسع زيادة هذه القوة في مجموعها إلى ٣٥٠ فرقة في أشهر وإلى ٥٠٠ فرقة في بحر سنة بعد أن تشب الحرب ، وتؤديها موارد لا حد لها من الرجال وقدرة صناعية كبيرة وان كانت دون القدرة الصناعية في الغرب .

ويقابل هذا أن الجماعة الغربية لا تملك الآن في أوروبا الغربية أكثر من خمس عشرة فرقة ، بعضها ليس وافي السلاح ولا حديثه ، وأكثر ما تستطيع أن تتطلع إليه لا يزيد بحسب قرار بروكسل على ستين فرقة في خلال سنتين إلى ثلاث سنوات ان سار كل شيء على ما يرام . أما قوتها الجوية فذات كفاية وان لم تكن ضخمة ، وقوتها البحرية متفوقة — اذا استثنيت الغواصات — تفوقا يكاد يكون مطلقا ، وقدرتها الصناعية ، اذا وزنت بميزان الصلب وحده كانت أربعة أضعاف أو نحوها ^(١) ، بيد أنها كانت منصرفه حتى عهد قريب أكثر ما تكون إلى انتاج سلع الاستهلاك لا معدات الحرب .

(١) يقدر تفوق الكتلة الغربية في القنابل الذرية بنسبة ١٠ إلى ١ على الأقل ، وفي الزيت بنسبة ١٠ إلى ١ أيضا وفي الألومنيوم بنسبة ٦ إلى ١

فبين من هذه الأرقام أن موسكو اذا شاءت أن تقدم الآن على عدوان مسلح ، كان في وسعها أن تجتاح غرب أوروبا والشرق الأوسط وأن تنطلق الى افريقية ، وليس في اليابان قوة يابانية أو غير يابانية ، تستطيع أن تتغلب على هجوم تشنه بضع فرق تقلها الطائرات وتؤيدها الطائرات ♦

وقد واثتها الفرصة يوم شن أهل كوريا الشمالية هجومهم على كوريا الجنوبية ، فبادرت الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد قرار مجلس الأمن الى ارسال زهرة قواتها المسلحة القليلة الى كوريا ، تعاونها في ذلك فصائل من بعض الأمم الأعضاء ، فلما فعلت صارت اليابان مجردة من قوة تحمى حماها ، وصارت الفرق الأمريكية عرضة للخطر في بلاد بعيدة ، لو شاءت موسكو أن تنقض عليها بقوتها المحتشدة في الشرق الأقصى ، وغدت سفن الأمم المتحدة بين حربية وناقلة في مياه كوريا هدفا ميسرا للغواصات السوفيتية هناك ، ويقال ان عددها بين مئتي غواصة وثلاث مئة ♦ ففي تلك الفترة — وهى لم تنقض بعد — كانت الفرصة مواتية لموسكو في الغرب الأوربي والشرق الأوسط والشرق الأقصى ، ولكنها لم تفعل ♦

ويعسر الظن أن يكون امتناعها لأنها كانت تجهل أن الفرصة مواتية ، أو لأنها عدلت عن غرضها البعيد ، فهي لا تنفك تسعى اليه وتمهد له بشتى الوسائل ♦ بيد أنها امتنعت عن الارتفاع بمزيتها الحربية حتى الآن ، وقد خاض الجيش الكورى الشيوعى ، والجيش الصينى الشيوعى غمار القتال في كوريا ، ولكننا لم نسمع أن جيشا روسيا قحقا قد خاضه ♦

وعسى أن يلتبس خير تعليل لهذا الامتناع في باب القدرة الصناعية ، وبعض عناصر القوة المسلحة ، وأصول المنطق المذهبي الذي أخذت موسكو نفسها به وربما في وجود بعض العناصر « التيتوية » القوية في الدول التابعة لموسكو في شرق أوروبا .

فروسيا هي أم الشيوعية العالمية وحصنها وينبوعها ومحركها ، وهي ماضية في نهضتها الصناعية تعزز قدرتها الحربية ، ومنزلتها باعتبارها مثالا يحتذى في التوجيه الاقتصادي والصناعي ، ومع أنها أدركت شيئا كثيرا في هذا الباب فانها لا تزال في حاجة الى مواصلة العمل لتحقيق أغراضها ولاسيما زيادة الانتاج وتوزيع الصناعات في أقطارها المترامية ، وانشاء مراكز صناعية جديدة في منطقة الأورال وما وراءها الى الشرق الأقصى ، واحكام شبكة الدفاع بوسائل رادار وغيره ضد الهجوم الذري فوق المناطق الرئيسية . . . فاذا أطلقت حربا عالمية اليوم أو في المستقبل القريب كانت عرضة لمئات من القنابل الذرية ، فأغلب الظن أن الولايات المتحدة تملك منها الآن أضعاف ما يملكه الاتحاد السوفيتي ، وليس للكتلة الغربية سلاح فعال تحارب به في مطلع حرب عالمية قريبة سوى هذا السلاح .

نعم ان قوة الجماعة الغربية خليقة أن تصير في بحر سنتين أعظم مما هي الآن بالقياس الى قوة الجماعة الشرقية ، بيد أن عدد القنابل الذرية التي تملكها الجماعة الشرقية خليقة أن تزداد أيضا وان لم تلحق بما تملكه الجماعة الغربية منها فيصير وجودها رادعا صامتا للفريق الآخر عن المبادرة الى استعمالها ، فان استعملها ردت موسكو على الهجوم الذري بمثله . وأثر هجوم ذري في مناطق محتشدة

الصناعة ، كالرور وانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة هو حتماً أفدح من أثر القنابل الغربية في مراكز صناعية متفرقة في بلاد واسعة كالاتحاد السوفيتى .

ثم ان موسكو تعتقد بحكم منطقها المذهبى ، أن الاقتصاد الغربى ينطوى على « متناقضات » كفيلة بانهيائه فى آخر الأمر ، فما على موسكو سوى أن تصبر وتصابر وتتوسل بكل وسيلة تعجل ذلك الانهيار . واذا نظرت الى ما يدور فى كوريا والهند الصينية مثلاً ، على ضوء هذا التعليل وجدته معقولا ، فموسكو تمهد بوسائل شتى كالحروب الصغيرة التى تشنها بالواسطة ، والأحزاب الشيوعية ، لبعثرة القوة الغربية ، ولتحميل الاقتصاد الأمريكى والغربى عامة ، أعباء ان طال زمنها ، كانت مرهقة له . ومن هذه الأعباء تحويل المصانع الى الانتاج الحربى ، وتحويل القادرين الى صفوف القوات المسلحة ، وزيادة الضرائب الفادحة ، وتعدد الاضراب ، وتدمير وسائل التخريب الصناعى ، وانصراف الدول المعنية باتتاعاشها الاقتصادى عن العمل الدائب فى سبيله الى وقف قدر كبير من الميزانية ، وشطر عظيم من المجهود على صناعات الحرب ، بدلا من الانصراف الى الانتاج المجدى .

وثمة حقيقة أخرى ، هى موارد الزيت ، فالزيت فى العصر الحديث لا غنى عنه للدولة الصناعية فى السلم ولا للدولة المحاربة فى الحرب ، وما تستهلكه الدولة الحديثة من الزيت ومشتقاته ، يزداد ازديادا كبيرا فى ابان الحرب ، فلن تتحرك طائرة أو دبابة أو سيارة نقل الا به ، حتى تروض الطاقة الذرية لهذا الغرض . ويقدر ما يبلغه انتاج الزيت فى الاتحاد السوفيتى والدول التابعة له ،

بنحو ٣٢٥ مليون برميل فى السنة ، أو نحو ٤٦ الى ٤٧ مليون طن
يضاف اليه مقدار غير معروف من الزيت المصنوع بالكيمياء ، على
حين ترى الانتاج العالمى بلغ فى سنة ١٩٥٠ أقل قليلا من ٥٢٣ مليون
طن ، أى أن ما تحت يدى روسيا من انتاج الزيت يزيد قليلا على
٩ فى المائة من الانتاج العالمى . وهذا المقدار أقل من الكفاية لمطالب
الحاجات المدنية الضرورية والصناعية والقوات المسلحة البرية
والجوية والبحرية فى حرب عالمية مستحرة ان طالت .

وقد تكون الحاجة الى الزيت رادعا عن الاقدام على حرب
عالمية النطاق يقدر لها أن تستغرق أكثر من بضعة أشهر ، أو قد
تكون حافزا الى الاقدام على اجتياح الشرق الأوسط ، حيث بلغ
الانتاج فى المنطقة التى تحف بالخليج الفارسى ٨٨ مليون طن
فى سنة ١٩٥٠ ، فان كان الثانى فالاجتياح العسكرى نفسه لا يحقق
الغرض المنشود ، لا لأن الآبار ووسائل الانتاج والتصفية خليقة
أن تدمر أو تعطل وحسب ، ولكن أيضا لأن نقل الزيت من هذه
المنابع الى روسيا شاق على أقل تقدير بوسائل النقل البرى ،
وينبغى أن ينقل بالسفن الناقلة حول الجزيرة العربية وفى ترعة
السويس ، ثم فى البحر الأبيض المتوسط ومن خلال المضائق الى
البحر الأسود . أما الزيت الذى تنقله الأنابيب الى الساحل الشرقى
للبحر الأبيض المتوسط فهو خاضع أيضا لضرورة النقل البحرى
بقية الطريق ، فالاستيلاء على منطقة الزيت حول الخليج الفارسى
لا يجدى جدواه على موسكو وان كانت الآبار سليمة ان لم تملك
موسكو أيضا زمام السلطان على شرق البحر الأبيض المتوسط
والمضائق وما يحف بها .

وأخيرا ان معظم الزيت الذى يعتمد عليه الاتحاد السوفيتى مركز
فى منطقة باكو ، ولعل هذه المنطقة هى فى طليعة الأهداف التى تنتجه
اليها الطائرات المقلدة للقنابل الذرية ان شئت نار حرب عالمية أو اذا
لزم حسم الأمر قبل شوبوها • وعلى أن وسائل الدفاع ضد هجوم
الطائرات بالقنابل الذرية يسير قدما ، فان روسيا فى أغلب الرأى
لا تقدم على عمل من شأنه أن يفضى الى حرب عالمية قبل أن تحكم
شبكة الدفاع ضد القنابل الذرية فوق منطقة باكو •

وخلاصة الرأى أن موسكو لم تقدم حتى الآن على تحقيق
ما يبدو ظفرا حربيا ميسرا لأنها فى أغلب الرأى تقدر أن الظفر الأول
الميسر لا يكفى الكتلة المقابلة عن المضى فى القتال ، وأن لهذه الكتلة
وراء قوتها الصغيرة المتأهبة الآن ، قوة عظيمة تحتشد وتعبأ
ولا يسع موسكو أن تستهين بها •

هذا رأى ، وفحواه أن الاتحاد السوفيتى برغم تفوقه
العسكرى الكبير الآن ، يتردد قبل الاقدام على عمل من شأنه أن
يفضى الى حرب عالمية فى المستقبل القريب •

وأما الرأى الآخر فهو أن ميزان التقدير قد يميل بموسكو الى
الحرب الآن أو فى المستقبل القريب ، قبل أن يشتد عضد الدول
الغربية ، بما بدأه من برنامج التسليح والتدريب والتعبئة الصناعية ،
وما يحاوله من تسليح ألمانيا الغربية • فقوة روسيا وأتباعها لن
تكون أقوى مما هى اليوم بالقياس الى قوة الجماعة الغربية ،
وها هو ذا الشطر الغربى من أوربا مكشوف أمامها بغير قوة دفاع
تذكر تحمى حماه ، وما فيه من موارد صناعية يغرى بالاقدام ، فان
أرجىء الاقدام فقد تصير القوة الغربية حائلا دون الظفر بأعظم

رقعة صناعية فى العالم ، واذا استثنيت مناطق معينة فى الولايات المتحدة الأمريكية •

وثمة رأى ثالث يقع فى الوسط بين الرايين ، مرده الى أن شيئا من التأهب الحربى فى أوروبا الشرقية ماض قدما ، ودليله الدأب على تحسين المواصلات بالسكك الحديدية وطرق السيارات ، وزيادة المطارات ، وتعزيز قوات الدول التوابع ، وخطته هجوم هذه القوات على يوغسلافيا — كما حدث فى هجوم قوات كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية — لتأديبها بعد أن شقت عصا الطاعة ولا نذار العناصر التيتوية فى الدول التوابع ، وللظفر بقاعدة ذات شأن حربى خطير فى مصير البحر الأبيض المتوسط وذات شأن سياسى فى مصير ايطاليا • فان عجزت عن اخضاع الجيش اليوغسلافى ، جاءتها نجدة من القوات السوفيتية القرية • وعمل من هذا القبيل ، عرضة ولا ريب ، لأن ينقلب حربا عالمية ، فالاقدام عليه يعد « مخاطرة مقدرة » ، فاذا انتهى دون أن يثيرها فيها ونعمت ، واذا أفضى الى اثارها فيها أيضا ، وبؤس ما يكون •

وأخيرا تجد من يذهب الى أن موسكو قد تقدر أن كفتها فى ميزان القوى العالمية سوف تظل راجحة زمنا غير يسير ، فاذا صدق هذا الرأى فربما اكتفت بأن تبذل جل نشاطها خلال هذه السنة والتي تليها فى جنوب آسيا الشرقى ، الى الحد الذى لا يثير حربا عالمية ، وأن تسعى فى الوقت نفسه متعاونة مع حكومة بكين على تنظيم الصين تنظيما سياسيا واقتصاديا ، ومع حكومات وارسو وبراج وبودابست وغيرها على تطهيرها من عناصر المناوأة الخفية ، معلقة أملها خلال ذلك كله على أن يفضى الضغط السياسى المستمر

على « تيتو » الى ضعفه الاقتصادي فالسياسى ، فالى زوال حكمه ،
ومعتمدة على اثاره وجوه من الخلاف السياسى بين دول الجماعة
الغربية حتى تضعف وحدتها •
وليس فى وسع أحد أن يحكم أى هذه الآراء أصدقها ، حتى
يقع ما يثبت هذا وينفى ذاك •

* * *

تحت ضغط الأحداث المتوالية فى الشرق الأقصى والشرق الأوروبى
وما يعرف عن حقائق القوة العسكرية السوفيتية المتأهبة اليوم ،
صحت عزيمة الدول الغربية على السير قدما فى بنىان الدفاع الغربى
على أساس القوة المشتركة ، وظهر فى الدول الغربية فى الوقت نفسه ،
ميل الى الحياد فى أوربا وميل الى العزلة فى أمريكا •
أما العزيمة فيمثلها قرار مؤتمر بروكسل الذى اتفقت فيه دول
الميثاق الأطلسى على انشاء قوة دفاع غربية مشتركة بقيادة ايزنهاور ،
وعلى مفاوضة حكومة ألمانيا الغربية فى موضوع مشاركتها فى هذا
الدفاع ، وعلى عزم الولايات المتحدة أن تزيد قوتها المراقبة فى
أوربا الغربية ، ليكون وجودها رادعا يثنى موسكو عن الاقدام ،
لا لأن هذه القوة مع الفرق القليلة الأخرى لا تستطيع أن تصد
عشرات الفرق الروسية ، بل لأن وجودها يعنى أن اقداما من هذا
القبيل معناه حرب عالمية النطاق ، بما ينطوى فيه من الحرب الذرية •
وقد عاد ايزنهاور الى منزلة فى أوربا تشبه المنزلة التى أخلاها
بعد النصر الحليف فى سنة ١٩٤٥ ، ولكنها تختلف عنها فى الحقيقة
كاختلاف النقيض عن النقيض • فقد كان يومئذ قائدا لقوة حربية
متفوقة تؤيدها جميع الموارد الصناعية فى أمريكا وبريطانيا ، أما اليوم

فهو يكاد يكون قائدا بلا جيش ، وقد كان يومئذ يتلقى توجيهه
السياسى الأعلى من حكومتى دولتين هما الولايات المتحدة
وبريطانيا ، أما اليوم فهو يتلقاه من مجلس أو لجنة تضم ممثلى
اثنتى عشرة دولة ، وقد كانت مهمته يومئذ أن يدبل القوة الألمانية
ضربة قاضية فى الغرب بعد أن نهكها قتال دام خمس سنوات
أو نحوها ، أما اليوم فمهمته أن ينشئ دفاعا عن الغرب بقوة
لا يحتل أن تبلغ متى تم تمامها سوى نصف قوته الأولى ان بلغها ،
ويغلب أن لا يتم تمامها — ان سمحت الحال — فى أقل من سنتين .
فالعامل الذى ندب له ايزنهاور قل أن يجاريه فى مشقته عمل آخر
ندب له قائد عسكري فى العصر الحديث .

نعم ، بين الدول الغربية من ناحية وموسكو من ناحية أخرى
حديث يدور على عقد مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة ، وهذا
الحديث فى حد ذاته دليل على رغبة مستمدة من مقت الشعوب
للحرب ، ولكن بين الرغبة فى عقده وتوفيقه فيما يعرض له من
مشكلات خطيرة ، بون شاسع ، فالعامل الذى ندب له ايزنهاور
وهو تعزيز قدرة الغرب على الدفاع ينبغى أن يتم فى جو يسوده
القلق والحيرة حيال ماتنوى موسكو أن تصنعه خلال الفترة التى
تحيل فيها الدول الغربية ضعفها البادى الى قدر من القوة ، ويملؤه
خوف بئين فى بعض دوائر أوربا وتردد صريح فى بعض دوائر
أمريكا .

وأما الميل الى الحياد فمرجهه الى أن أوربا تعاني فتورا ووهنا
فى العزيمة والقوة هما أثر من آثار الحربين العالميتين وبلاياهما ،
وأنها تشعر بشيء من التردد فى الموافقة على تسليح ألمانيا الغربية

من أجل اشتراكها في الدفاع الغربى ، وترتاب بعض الشىء فى أن
خروج أمريكا من عزلتها ليس الى غير رجعة • وقد شهدت هزيمة
قوات الأمم المتحدة فى كوريا فصارت تشك فيما يكون مصير
الدفاع عنها ، ووافقت فى الأمم المتحدة على رفع الحظر الدبلوماسى
عن اسبانيا ، ولكن مجرد النظر فى جعل اسبانيا قاعدة حربية يملأ
أوروبا الغربية جزعا من أن تبلى ببلوى الاحتلال الروسى ثم ببلوى
الحرب لاجلاء جيوش الاحتلال • فهذه الحالة النفسية المعقدة كان
لها أثرها فى ضعف المجهود الحربى الذى بذل على بر أوروبا الغربية
فى بضع السنوات الأخيرة فبدا لبعض الأمريكيين من ذوى رأى
أن الاعتماد على أوروبا فى الدفاع عبث لا طائل تحته ، وأن زيادة
القوات الأمريكية على بر أوروبا انما يزيد عدد الجنود الأمريكيين
الذين يتعرضون للبوار ، فمالوا — كما قال هوفر — الى وجوب
الانكماش فى الشق الغربى من كرة الأرض ، وانشاء دفاع عنه
كفيل برد كل اعتداء عليه ، وكذلك تفاعل الميل الى الحياد فى أوروبا
والميل الى العزلة فى أمريكا فصار كل منهما وقودا للآخر •

ولكن حقائق الحياة الدولية الحديثة أخذت تقنع أهل أوروبا
الغربية أو كثرتهم على الأقل بأن حياد الضعيف المعتمد على حسن
معاملة خصمه وهم لا يوقيه عواقب الخضوع ، وحقائق الحرب
الحديثة قد أخذت تقنع أهل الولايات المتحدة أيضا أو كثرتهم
على الأقل بأن الدفاع الجامد عن رقعة بعينها من سطح الأرض
لا يجدى ، وقد كان هذا صحيحا يوم أن كانت وسائل القوة جيوشا
وطائرات مألوفة ، وهو أصح اليوم وأصدق وقد صارت الطائرات
نفاثة وصاروخية ، وغدت القنابل تطوى فى جوفها هلاك الذرة

المتفجرة ، فماذا تصنع أمريكا لو أخذت برأى هوفر وانكمشت في أرضها ، يوم تصبح للسوفييت قواعد على سواحل أوروبا الغربية تنطلق منها هذه الطائرات بقنابلها مسددة الى المثلث الصناعي المحتشد الواقع بين دترويت وبتسبرج ونيويورك .

ولكن اذا كان الاتفاق بين دول الميثاق الأطلسي تاما أو يكاد يكون على أمور الدفاع عن أوروبا الغربية ، فان بينها غير يسير من خلاف على خير خطة تتبعونها في الشرق الأقصى ، وهذا عاقبة من عواقب الضعف . أما الدفاع عن الشرق الأوسط فليس الحكم فيه لهن وحدهن ، ولن يستتب لهن دفاع صحيح عن الشرق الأوسط بغير معاونة شعوبه وحكوماته ، وموقفها أميل الى الحياد لأن الدول الغربية لم تقم بعد دليلا صادقا على نيتها أن تستجيب لنداء الحق والمصلحة جميعا في تحقيق مطالب هذه الشعوب وحكوماتها .

* * *

قبل ايزنهاور المهمة العاتية التي ألقيت اليه ، وجال جولة سريعة في عواصم دول الميثاق الأطلسي في أوروبا ، وعاد الى الولايات المتحدة ، ليبدى رأيه فيما رأى وقدر لرئيسه وللكونجرس الأمريكي ، وهذا الرأي في مجمله يؤيد سياسة وشنطن ويطالب أعضاء الميثاق الأطلسي في أوروبا بزيادة ما تبذله من مجهود في التسليح .

ولكن مهما يكن حزم الولايات المتحدة قويا ، ومهما تكن وحدة الرأي بين دول الميثاق وثيقة ، ومهما يكن العزم على تعبئة الموارد الصناعية عظيما ، فان ذلك لن يغنى ايزنهاور وقيادته عن مواجهة ثلاث مشكلات أو أربع مشكلات كل منها خطير ولكن ليس بينها واحدة تستعصى على الحل .

أما المشكلة الأولى فهي العناصر التى ينبغى لايزنهاور أن يصهرها وينشئ منها قوة دفاع تستطيع أن تردع القوة السوفيتية عن المغامرة فى اجتياح أوروبا الغربية، وأن تصدها ان فعلت . والعناصر المتاحة له اليوم قليلة متفرقة، وليست مزودة كلها بالسلاح الوافى أو الحديث . فسوف يدخل فى قيادته ثلاث فرق فرنسية ، تليها فرقتان ، وفرقتان أمريكيتان مرابطتان فى ألمانيا ، يليهما عدد غير معروف الآن من الفرق الأمريكية قدر بأربع فرق، وفرقتان بريطانيتان مرابطتان فى ألمانيا تليهما فرقتان أخريان متى حلت بعض المسائل القانونية الدستورية الخاصة بالسلطان عليها ، وقد يضاف الى هذه فرقة بلجيكية وقوة هولندية فى منزلة الفرقة . أما ألمانيا الغربية ، فلن ينتظر أن يكون لها قوة ذات شأن ، فى أقل من سنة ونصف سنة ، ان تم الاتفاق بينها وبين دول الميثاق على أصول التعاون المنشود وأما سلاحه الجوى « التكتيكي » فيغلب أن يكون صغيراً حسن الأهبة وان كانت طائفة من طائراته قديمة الطراز . وأما القوة البحرية فله منها ما يشاء ، وله أن يستعين بهيئة أركان حرب الوحدة الأوروبية التى كان المارشال موتيجمرى قائدها الأعلى .

فهذه القوة فى مجموعها لا تكفى للغرض الذى ندب له ، وان حسن الظن فى قدرته على أن يدمجها ويجعلها خير قوة حربية ممكنة ، فى الحدود الضيقة التى تحددها الآن .

واذن فعليه أن يطمئن الى أن دول الميثاق عازمة على زيادة هذه القوة التى لا تكاد تبلغ الآن ولا فى المستقبل القريب ، عشرين فرقة ، حتى تصير خمسين فرقة أو ستين — ثلثها على الأقل فرق شاكية الدروع — تواجه من ناحية الشرق فرق الجيش السوفيتى

وجيوش الأتباع التى تزيد على مئتى فرقة • والظفر بالعدد المطلوب من الفرق لا يكفى ، بل ينبغى أن يزداد الانتاج الحربى فى دول الميثاق ، حتى تزود هذه الفرق بقدر واف من أحدث السلاح ، فإن لم تفعل فعل جميع المشكلات التالية ، على وجه يرضى ، ليس فيه غناء ولا جدوى ، والدلائل تترى على أن الولايات المتحدة وبريطانيا قد حزمت أمرهما على هذا ، ويغلب أن تحذو فرنسا حذوهما بعد مؤتمر وشنطن بين ترومان وبلين •

وأما المشكلة الثانية فهى مشكلة التوجيه السياسى الذى يتلقاه القائد الأعلى ومن يتلقاه • أفرض " واجب عليه أن يقضى وقته متنقلا فى الطائرة بين الولايات المتحدة وأوربا ، وبين عواصم دول الميثاق فى أوربا نفسها ، ليظفر من رؤساء الوزارات ووزراء الدفاع بالموافقة على كل خطة يراها هو وأعوانه ! فإن فعل ضاق وقته عن النهوض بمهمته التى هى فى أساسها حربية فنية • فينبغى لدول الميثاق أن ييسروا عليه اتصاله السياسى بحكومات هذه الدول ، حتى يستطيع أن يفرغ أكثر ما يفرغ للشئون الحربية التى تلقى عادة على كاهل قائد عام •

وأما المشكلة الثالثة فهى انشاء هيئة عامة لأركان الحرب ، تؤدى ما عليها خير تأدية وأجداها ، وقد اختار ايزنهاور لرياسة أركان حربه قائدا مشهودا له بالقدرة هو الجنرال جروتير الأمريكى • وقد روى أنه عرض على المارشال موتجمرى أن يكون نائبا للقائد العام • وعلى الجنرال جوان الفرنسى أن يكون قائدا للجيش الأطلسى فى أوربا • ولكن ذلك لا يغنى عن جماعة متعاونة من خيرة الضباط الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين ، لرأيها سلطان العلم

والنجربة وقد قيل ان خيرة هيئة لأركان الحرب لا يسعها وحدها
أن تنال النصر في حرب، ولكن في وسعها ان لم تحسن العمل أن تخسرها.
وأما المشكلة الأخيرة، فهي وضع خطة محكمة للدفاع عن غرب
أوربا، وهذه الخطة ينبغي أن تكون مفصلة، تشمل فيما تشمل
أقل قدر من القوة الحربية يكفى للنهوض بالمهمة التي ألقيت الى
جيش الدفاع الأطلسي، وتقدير المكان الذي ينبغي أن تدور فيه
المعارك الرئيسية — اذا نشبت الحرب — وكيف تدار، وتعيين
المواقع التي يتم فيها تدمير المنشآت، وبث الألغام، ونسف
الكبارى، وحماية الطرق، والمحافظة على الأمن الداخلي من
التخريب وما أشبه. وقد نهض رجال قيادة مونتجومري في فوتنبلو
بجانب يذكر من هذا العمل، ولكن القيادة الجديدة ينبغي لها أن
تأخذ كل ذلك وتضيف اليه، وتفرغه في قالب خطة منسقة تفرض
الاقناع على الحكومات، فالفترة التي يستغرقها تحويل خطة حربية
على الورق، الى فرق وفصائل ومعدات في هذا العصر، هي في
الغالب فترة غير قصيرة، والمبادرة الى وضع هذه الخطة واجب
لا مفر منه، فاذا لم تبذل الدول الغربية مجهودا هائلا منسقا في
أقصر وقت، سبقتها الحوادث والأيام.

هذا الميزان المحيّر بين مواطن القوة والضعف في الفريقين،
والمضطرب بين مخاوف الناس وآمالهم، قد يجنح الى شيء
من الاستقرار، في التقدير الحربي، اذا مالت كفتا القوة الى
التكافؤ، قبل أن تنطلق الكارثة من عقالها. أما ما قد يكون بعد
ذلك ففي ضمير الغيب، وهو عرضة لكل تقدير، ففترة الشهور
المقبلة هي الفترة التي يحف بها الخطر من كل جانب.

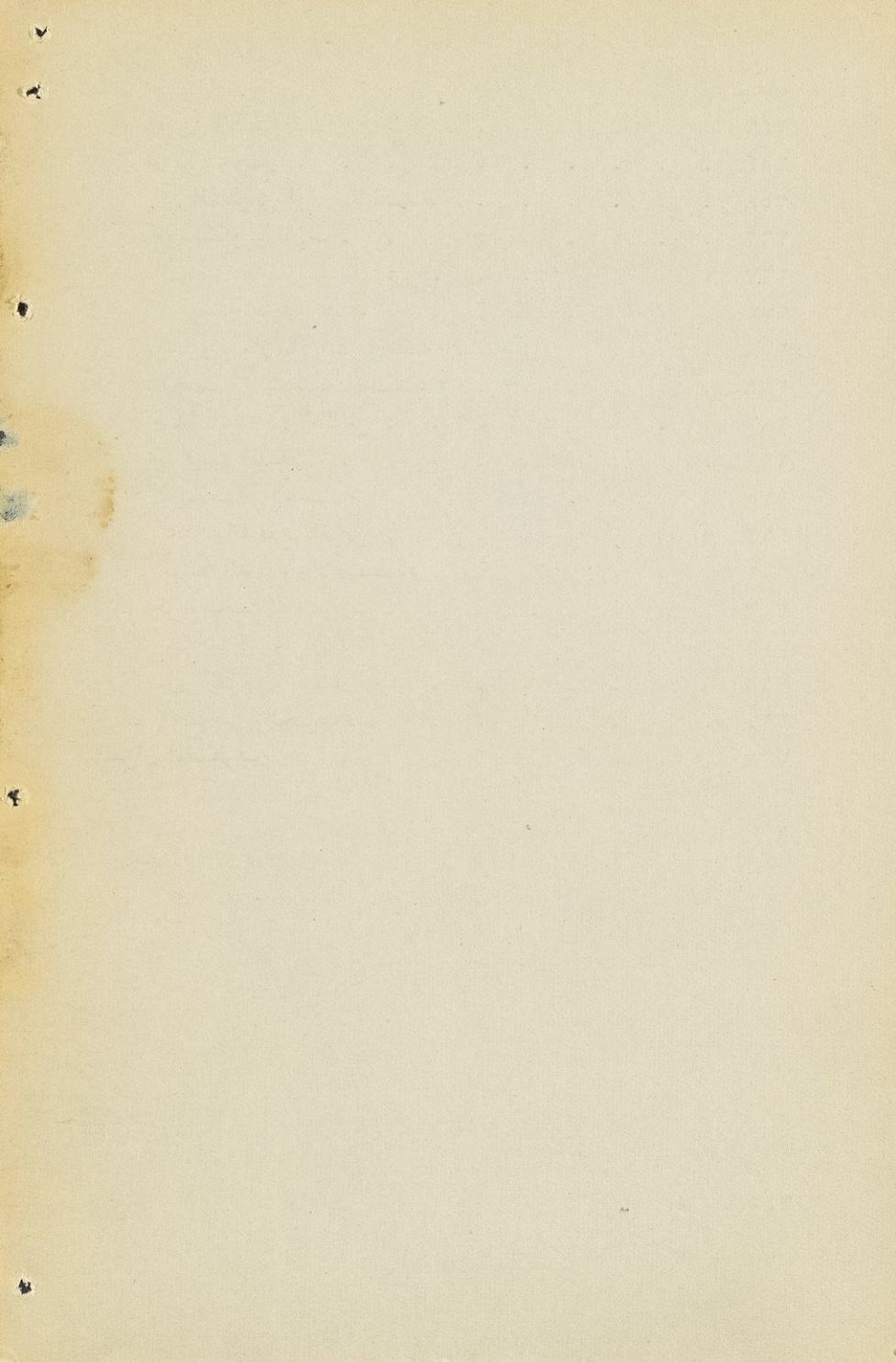
فهرس

رقم الصفحة

٣	انتصف القرن (مقدمة)
	باب : الجهاد الأكبر
١٧	قرار الحق
٢٠	بين جهادين
٢٥	تفسير لا يقبل عذرا
٣٠	هكذا يقول العربي
٣٣	رسالة مفتوحة الى برنادوت
٣٨	موجتان
٤٥	مستقبل الثروة القومية
٤٨	اقتصاد عربي متكامل
٥٠	الاستقرار لا الجمود
٥٣	حكم القوة ومنطق النفع
٥٥	قطيعة ضد الطبيعة
٥٨	منايع الالهام
٦٤	فرصة الجامعة
٦٨	نعيش في واجهة
٧٢	موعد مع التاريخ
	باب : نحن شعوب الأرض
٧٩	روح الميثاق
٨٥	قوة تحرك الأرض
٨٩	مشروع جديد جرىء
٩٥	معنى النقطة الرابعة
١٠٠	المساعدات الفنية
١٠٧	أزمة الطعام العالمية

١١٦	عودة الى العقل
١٢٣	مصر الأمم المتحدة
١٣٠	في قصر شايبو
١٣٦	الأمم المتحدة - ما نفعها ؟
١٤٢	مقعد الصين
١٤٧	الوسيلة وحدها لا تكفى
باب : أنا الطاقة الذرية	
١٥٣	بين خطرها ونفعها
١٦٠	سبب الخيبة
١٦٤	طورها الجديد
١٦٩	روسيا بين المعرفة والقدرة
١٧٣	التوازن العالمى الجديد
١٧٧	القنبلة فى عام
١٨٢	قنبلة ذرية أخرى
١٨٧	قيمة الاتفاق
باب : الحرب الباردة	
١٩٤	فى كفتى الميزان
١٩٨	أمل يتحدى العزيمة
٢٠٢	الوسيلة والغاية
٢٠٦	بين سياستين متناقضتين
٢١٠	هدنة فى الحرب الباردة
٢١٤	لا حرب ولا سلام
٢٢٠	أوربا تتلفت
٢٢٦	المنحدر والهوة
٢٣٢	العيدان المجتمعة والمتفرقة
٢٣٧	ما جدوى الاجتماع ؟
٢٤١	بين برلين وناكين
٢٤٥	سقط القناع

٢٤٩	.	.	.	.	.	.	فترة السلم الباردة
٢٥٤	.	.	.	.	.	.	رضى وحذر
٢٥٨	.	.	.	.	.	.	أى الخطرين أولى بالتقديم ؟
٢٦٢	.	.	.	.	.	.	موسكو وبلغراد
٢٦٧	.	.	.	.	.	.	الصين وأندونيسيا
٢٧٣	.	.	.	.	.	.	الحرب الباردة تمتد
٢٧٨	.	.	.	.	.	.	مشروع مارشال . مرحلته الثانية
٢٨١	.	.	.	.	.	.	الجهة الشعبية الجديدة
٢٨٦	.	.	.	.	.	.	مبدأ الميثاق الأطلسي
٢٩١	.	.	.	.	.	.	ما قيمة الميثاق ؟
٢٩٥	.	.	.	.	.	.	الجماعة الأطلسية
٢٩٩	.	.	.	.	.	.	ألمانيا والدفاع الغربى
٣٠٣	.	.	.	.	.	.	أعباء الدفاع والاقتصاد
٣٠٧	.	.	.	.	.	.	قوة مشتركة متوازنة
٣١٢	.	.	.	.	.	.	أسبانيا فى الميزان
٣١٦	.	.	.	.	.	.	بين العزم والقدرة
٣٢٠	.	.	.	.	.	.	الجماجم والحدود
٣٢٨	.	.	.	.	.	.	الميزان المضطرب



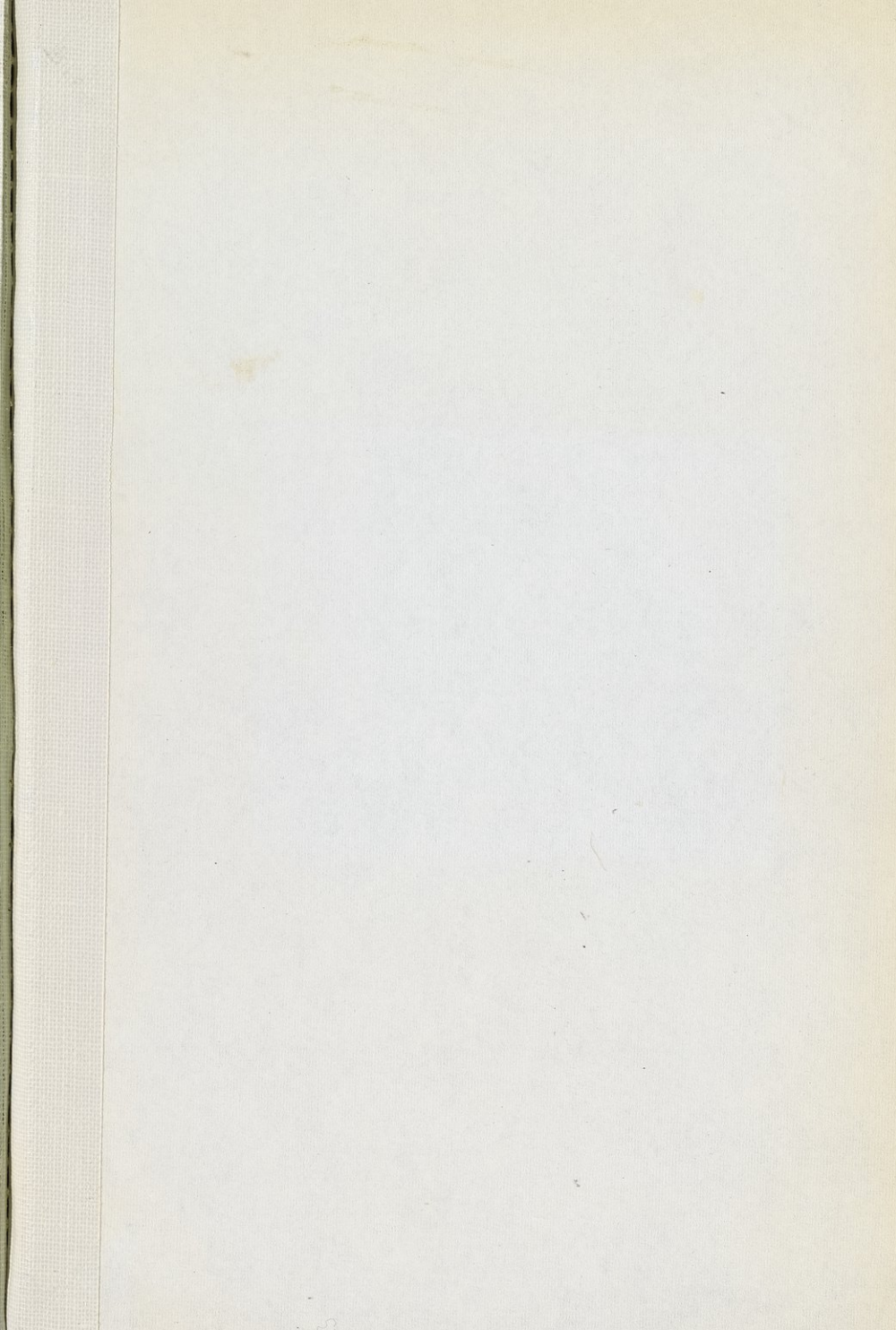
الثلث . ٤ قرشاً

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABRAHAM
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. HARRIS, ET
AL. PRINCE GEORGE'S EPISCOPAL
COUNCIL ON EDUCATION



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library



32101 074326354